فريق
متميزون
E-BOOK

# الزيني بركات



جمال الغيطاني

دار نهضة مصر
للنشر

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

**قام بالتحويل لهذا الكتاب**

# كلمه مهمة:

**هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.**
**وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.**

**مع تحيات:**

**فريق (متميزون)**

**انضم الى الجروب**

**انضم الى القناة**

# الزيني بركات

# جمـــال الغيطـــــــــاني

# تقديم

الغيطاني ونقد الرواية العربية..

إن كان الشعر يوازي التاريخ، ولا يتقاطع معه إلا في الإبداع الشعري الكبير، فإن الراوية لها وضع مختلف، فهي جنس أدبي يحكم التاريخ ولادته ومساره وتطوره، وهي جنس يبني هويته الأدبية ويحتفظ بها بسبب علاقته الحميمة بالتاريخ، تحتضن الرواية زمانًا ومكانًا متميزين، وترسم أشكالًا من الصراع تدور فيهما، ويكون الصراع المرسوم، الذي ميَّزه المكان والزمان، مرآة لمجتمع محدد وصورة له، ومع أن مفهوم الجنس الروائي يحيل مباشرة إلى مفهوم المتخيل الروائي، فإن هذا المتخيل يكون فارغ المعنى إن لم يكن تجريدًا فنيًّا لتجربة اجتماعية تنتمي إلى مجتمع له تاريخ وهوية وثقافة. إن ارتباط الممارسة الروائية بتحولات مجتمع واضح الخصوصية هو الذي يقيم علاقة حميمة بين الرواية والتاريخ، ويجعل المعرفة الأدبية التي تنتجها الكتابة الروائية معرفة موضوعية تلتقي مع المعرفة التاريخية، وفي هذا اللقاء بين شكلين مختلفين من المعرفة تتجلى الكتابة الروائية كشكل متميّز من البحث التاريخي، يبحث فيه الروائي عن هويته وعن هوية المجتمع الذي ينتمي إليه. ويقوم البحث عن الهوية، الذاتية أو الجماعية، على مساءلة الحاضر والماضي، وعلى مقارنة الأزمنة المتعددة التي نسجت حاضرًا معينًا. والنص الروائي في تفتيشه عن هوية معينة يعقد حوارًا بين أزمنة مختلفة، ويكون شكلًا من كتابة التاريخ، يتضمن الخطاب التاريخي ويفيض عنه أيضًا.

«الزيني بركات» رواية جمال الغيطاني، نموذج للكتابة الروائية التي يتداخل فيها الأدب بالتاريخ إلى حدود الاندماج، لا بمعنى أن الغيطاني يكتب رواية يستعير موادها الثقافية من أحداث تاريخية فعلية، بل بمعنى أنه يكتب رواية تستند إلى وعي تاريخي كثيف، يبرهن أن الحاضر قائم في الماضي ولا ينفصل عنه، رغم اختلافهما، وأن الماضي يسكن الحاضر ويفعل في حركته، وإذا كان الوعي التاريخي الزائف يفصل الماضي عن الحاضر وينغلق في زمن وهمي مضى، فإن الغيطاني، في وعيه الكثيف، يشدُّ الماضي إلى الحاضر، ويجعل من الحاضر مقياسًا للأزمنة كلها، تتأمل «الزيني بركات» دلالة السلطة المستبدة في أزمنة مختلفة، وتنفذ إلى زمن القمع الجوهري، الذي يظل ثابتًا، وإن تغيرت الأزمنة، لكأن الرواية لا تتحدث عن قمع معين في زمن معين بقدر ما ترصد ذلك القمع النموذجي، أو القمع - المثال، الذي يمكن له أن يقع على مجتمعات مختلفة في أزمنة مختلفة، والذي يمكن له أيضًا أن يقع على مجتمعات ولّى زمنها وعلى مجتمعات لم تولد بعد.

ترسم رواية «الزيني بركات» السلطة المستبدة، التي تتوسل القمع نظرية وممارسة وترفعه إلى مقام الفلسفة الرسمية، ويقع خيارها على فترة تاريخية سلفت، لا لتبحث فيها عن حقائق جديدة، بل لتأخذ بها برهانًا على ما تقول، تذهب الرواية إلى الماضي ويكون الزمن الأخير مرآة لقمع في زمن حاضر، حيث القمع السلطوي يدمر الأفراد والمجتمع، ويدمر السلطة ذاتها وينقذ المتسلطين، والمجتمع المقموع

يحصد الهزيمة قبل التعرُّف عليها، وهزيمته قائمة أبدًا، وإن حجبها قناع واهن، والحرب مع عدو خارجي هي الاختبار التاريخي الذي يهتك القناع ويسقطه، فالقمع يستدعي الهزيمة الشاملة كما الوباء يستدعي موتًا طليقًا.

يسائل الغيطاني في روايته هزيمة حزيران الشهيرة أمام العدو الصهيوني في اللحظة التي يكتب فيها عن هزيمة أخرى وقعت لمصر الإسلامية في القرن السادس عشر الميلادي، يكتب عن هزيمة قديمة، ويومئ إلى هزيمة راهنة، ويوحد بين الهزيمتين في أسبابهما المتماثلة، لكأنه لا ينتقل بين حاضر وماض بقدر ما يتأمل تاريخًا مهزومًا نسجته وسائل سلطات غاشمة. تدور أحداث «الزيني بركات» في مطلع القرن العاشر الهجري، في الفترة الواقعة بين سنة 912هـ، أي قبل الاحتلال العثماني لمصر بعشر سنوات، وسنة 923، وقد مضى على الاحتلال العثماني لمصر سنة، تبدأ الرواية بزمن وتنتهي بزمن آخر، تفصل بينهما مسافة تنقل الهزيمة من وضع مستتر إلى وضع معلن، فكأن الجيش العثماني، أو الصهيوني يد ترفع الغطاء عن مجتمع مهزوم لا أكثر.

تنفتح الرواية على مشاهدات الرحالة البندقي «فياسكونتي جانتي» والمدينة تنتظر أخبار الحرب، وتسأل بحرقة: «لماذا لم تصل رائحة من الأخبار المفرحة، لم تدق البشائر»، وتنغلق الرواية والمدينة مكسورة وكسيرة بعد أن خسرت الحرب، ويكتب الرحالة البندقي: «في ترحالي الطويل، لم أر مدينة مكسورة كما أرى الآن» تبدأ الرواية بمشاهدات الرحالة في عام 922هـ، الموافق لعام 1517م، ومصر تعيش أيام الهزيمة، أو تكاد، وكتبت المشاهدات الأخيرة في عام 923، حيث الهزيمة شاملة والعثمانيون يسومون أهل مصر العسف والمذلة. وإذا كانت مشاهدات الرحالة البندقي تكون الإطار الشكلي للرواية، وتمنح الرواية موضوعية الوثيقة التاريخية، فإن مواد الرواية الأولية تعود إلى كتاب المؤرخ المصري: «مصر بن أحمد بن إياس»: «تاريخ مصر المشهور ببدائع الزهور في عجائب الدهور». وكتاب ابن إياس هذا تحدث عن شخصية حقيقية هي: الزيني بركات، وعن شخصيات حقيقية أخرى وردت أسماؤها في رواية الغيطاني، مثل: الشيخ أبوالسعود الجارحي، الذي نصر الزيني عندما توقع منه خيرًا في بدء صعوده، وهاجمه عندما لمس ظلمه بعد تمكنه من السلطة، وكذلك اسم: علي بن أبي الجود، الذي كان يشغل وظائف عدة من وظائف الدولة، آلت فيما بعد إلى خلفه: الزيني بركات، أخذ الغيطاني هذه الشخصيات وأعاد بناءها روائيًّا، واستفاد من مجموعة الوقائع والحوادث التي ذكرها ابن إياس، بعد أن غيرها بما يلائم البناء الروائي والخطاب الفكري الذي يبثُّه في هذا البناء، ومع أنَّ الغيطاني يأخذ بأسماء بشر حقيقيين عاشوا زمنًا محددًا، فإنه يكتب أولًا عن عناصر القمع الذي ساد ذاك الزمان، وكان البشر ضحايا له ورموزًا فيه.

يتكئ الغيطاني على المادة التاريخية في كتاب ابن إياس ويعيد كتابتها روائيًّا، تاركًا القارئ يتأمل هزيمتين وكتابين وكاتبين، ليكتشف الفرق بين منطق الروائي ومنطق المؤرخ، وأحادية المعنى في النص التاريخي وتعددية المعنى في النص الروائي، فيرى النص التاريخي في قراءته التقريرية والنص الروائي في قراءته الموحية.

لكن الفرق ينحسر عندما ينسى القارئ اختلاف المؤرخ عن الروائي ويتأمل طويلًا جدل القمع والهزيمة الذي يحتفظ بمصداقيته رغم اختلاف الأزمنة.

يتردد اسم «بركات بن موسى» في كتاب ابن إياس تسع مرات. يرد للمرة الأولى في أحداث شوال عام 908هـ، عندما «السلطان سلم علي بن أبي الجود إلى الحاج بركات بن موسى ليعاقبه ويستخلص منه الأموال([1]) ويتولى الزيني بعد ذلك حسبة القاهرة، ويخلع عنها، وعن غيرها من الوظائف، فإنه كان متحدثًا على ست عشرة جهة»، ولا يلبث أن يستعير وظائفه ليفقدها ولكن ليعود إليها لاحقًا، وقد زاد قوة ونفوذًا، واستمر هذا النفوذ حتى بعد احتلال العثمانيين لمصر، والزيني كما يذكره كتاب «بدائع الزهور» سياسي مراوغ وملتبس وغريب الأقدار، يشكو منه التجار لظلمه، ويقرر المماليك قتله، ويضربه تلاميذ الشيخ أبى السعود الجارحي حتى يكاد يهلك، ويوضع في السجن ويكاد يشنق على باب زويلة... لكن مكر الرجل كان يسعفه في العثور على منفذ، كي يتابع من جديد صعوده وقد زاد لمعانًا، يقول عنه ابن إياس: «فتضاعفت عظمة الزيني بركات إلى الغاية وصار في مقام نظام الملك، وهو المتصرف في أمور المملكة... وقد تضاعفت حرمته وتنافذت كلمته فوق ما كان واجتمع معه عدة وظائف سنية وصار هو المتصرف في جميع أمور المملكة ليس على يده يد»([2])، ولم تخدش هزيمة مصر أمام العثمانيين سلطات الزيني، فجعله السلطان سليم: «مدير المملكة وناظر الحسبة الشريفة وناظر الذخيرة الشريفة وناظر البيمارستان المنصوري وغير ذلك من الوظائف، فتزايدت عظمته واجتمعت الكلمة فيه وصار عزيز مصر في هذه الأيام، فتوجهت الناس إلى بابه لقضاء حوائجها وصار هو حاكم البلد». يكشف مسار الزيني عن سياسي لا أخلاقي يرفع المصلحة الذاتية إلى مقام الدين اليومي ويتخذ من إتقان الفساد وسيلة، وبما أن أعمال السياسي اليومية هي فلسفته الفعلية، فإن فلسفة الزيني تكون بالضرورة: فن ممارسة الفساد بشكل يبدو فيه الفاسد يمارس فضيلة كاملة، وما يثير الفضول إلى حدود الدهشة في حالة الزيني ليس هو ممارسة الفساد، بل القدرة على حجبه عن العيون أو ممارسته بإتقان رفيع يجعل العيون تراه وتخطئه في آن أو تراه وتنظر إليه بإعجاب، إنه «الفاسد المحبوب» الذي سيتحوَّل في رواية الغيطاني إلى «البصاص المحبوب» ونرى في الحالين تبدَّد الذكاء البشري في صناعة الشر، فسياسي ابن إياس، كما الزيني في رواية الغيطاني، يهدر الطاقة الإنسانية في صنع الخراب وحجبه.

يظهر الزيني في كتاب ابن إياس سياسيًّا يتقن المكر والخداع والنفاق، يمارس الرذائل ويبدو فاضلًا، ويكون محبوب السلطة والشعب معًا، بل تصل غوايته إلى المؤرخ ذاته فيغدق عليه ابن إياس صفات الفضيلة شعرًا، ويأخذ الغيطاني بشخصية الزيني ويحولها، ويحذف منها ويضيف إليها كي تبدو صورة نموذجية للفساد النموذجي. وسواء كان السياسي الفاسد مشغولًا بتكديس الثروات والألقاب والمناصب أو كان مأخوذًا بترسيم ذاته إلهًا على الأرض، فإنه في الحالين يغرق في ذاته وينغلق فيها ويعتبر ما هو خارجه نافلًا، أي يقوم بإلغاء مصالح المجموع

وأفكار المجموع وإراداته، يتسم الزيني في كتاب ابن إياس بذاتية طاغية ترى في المنفعة الذاتية مرجعًا للحقيقة، فتكون السياسة فن إنتاج الكذب وإخفائه، ويتميز الزيني في رواية الغيطاني بذاتية متسلطة ترى في السلطة مرجعًا للحقيقة، أو ترى في ذاتها مرجعًا للحقيقة لأنها رمز السلطة وصورتها المشخِّصة، وتكون السياسة - هنا - فن تدمير المجتمع باسم الدفاع عن مصلحته، يأخذ السياسي، في شكله الأول، صورة «الفاسد المحبوب» ويأخذ السياسي، في شكله الثاني، صورة «البصاص المحبوب» بين حدي القمع والفساد تدمر السلطة العقل في شكله العقلاني، وتأخذ بشكل من العقل يحيل السلطة إلى كارثة ووباء، إذ ينتهي معنى القانون والشريعة والعقد الاجتماعي، وتتجلى السلطة كآلة تنظم الجريمة الجماعية، وتنسج هلاك المجتمع، مع ذلك فبين السياسي الذي يكتب عنه المؤرخ وذاك الذي يخلقه الروائي فرق واختلاف يظهر الأول غارقًا في أنانيته وحسبانه الذاتي، ولا يرى خارج ذاته شيئًا، فإن التقى بالخارج عالجه بالكذب والخطاب التضليلي، بينما يظهر السياسي المستبد في رواية الغيطاني أكثر تعقيدًا وكثافة، فهو لا يطرح مسألة الأخلاق، وهي مسألة فردية أو مسألة تدور بين الأفراد، بل يطرح مسألة الدولة القامعة، وهي مسألة تمس المجتمع ومصيره، يغرق المستبد في ذاته أيضًا ويلغي الخارج الاجتماعي ملتمسًا أدوات توافق معنى الاستبداد، فيأخذ القمع موقع الكذب ويتم تدمير البشر بدلًا من تضليلهم. يبحث السياسي الأناني عن ربح محسوب ولا يعبأ بالوسيلة، في حين أن المستبد لا يحقق ربحه إلا إذا كان القمع وسيلة أولى، فاستمرار حياته رهن بإلغاء حياة كل من يرفض له قولًا أو إشارة، إن إلغاء الآخر كشرط لاستمرار المستبد يفرض وجود عنصرين متلازمين، يقول العنصر الأول: يستلزم وجود الجلاد وجود الضحية، وهذا ما يجعل من الموت عنصرًا داخليًّا في كل ممارسة مستبدة. ويقول العنصر الثاني: تقوم مملكة الاستبداد على الخوف الشامل، ترمي السلطة بالخوف على المجتمع، ويرتد عليها الخوف بدوره؛ لأنها ترى في المجتمع عدوًّا، ولهذا يكون السجن والمخبرون وأدوات التعذيب جزءًا عضويًّا من كل سلطة مستبدة. في الفرق القائم بين السياسي الفاسد والمستبد الشامل يعطي الغيطاني درسًا في تعامل الفنان مع المادة التاريخية، يأخذ ما يبدو جزئيًّا وخاصًّا في سطور التاريخ ويرفعه برؤيته الفنية إلى مقام الكلي والعام، فالفن الحقيقي يقفز فوق العارض ويتعامل مع الجوهري.

يكتب ابن إياس عن شخص أو عن مجموعة من الأشخاص، ويقفز الغيطاني فوق الأشخاص ليصل إلى قرار السلطة المستبدة، فلا يكون الأشخاص أكثر من مرايا تعكس ظلم السلطة ومأساة من يقع عليه ظلمها. يعكس المؤرخ الظلام في زمن محدد ويحكي الفنان عن دلالة الظلام في الأزمنة كلها، ويفرض هذا الاختلاف على الراوي أن يتعامل بشكل طليق مع مواد المؤرخ، يمزج الواقع بالتخييل، ويأخذ بكل وسيلة تتيح بناء المعنى الشامل، وبسبب هذا ينتقل الغيطاني من ابن إياس إلى المقريزي ويعيد صياغتهما معًا، فحادثة الشيخ والجارية التي نقرؤها في الصفحات الأولى من رواية الغيطاني، لا وجود لها في كتاب ابن إياس، وقد أخذها الغيطاني من كتاب السلوك «للمقريزي» وأدرجها في روايته ليكشف عن مكر الزيني وظلمه، يخضع اختيار المواد إلى الحركة الداخلية للعمل الفني، التي تأخذ

بشخصيات عرفها التاريخ فعلًا، والتي تخلق أيضًا شخصيات تخييلية، مثل شخصية كبير البصاصين «زكريا بن راضي» وشخصية الطالب المقهور «سعيد الجهيني» وشخصية «عمر بن العدوي» الطالب الأزهري الذي باع روحه للشيطان.

يكتب الغيطاني نصًّا في الحاضر ويهاجر إلى نص في زمن مضى، أي يقوم بهجرة خادعة؛ لأنه يقرأ النص القديم بوعي حديث، ولأنه يعيد كتابته بتقنية حديثة، تأخذ معناها من معنى الكتابة الروائية ككتابة حديثة يتفكك نص ابن إياس في كتابة الغيطاني ويُعاد تركيبه ويترهَّن في الممارسة الروائية، يصبح القديم مادة أولية، لا استقلال لها، تتحول إلى كتابة راهنة تستجيب لحاجات معنوية وأخلاقية وجمالية وسياسية يمليها الحاضر المعيش، يظهر الحاضر في الكتابة الروائية كجنس أدبي حديث، يرتبط بتصور للعالم حديث، قبل أن يظهر في الموضوع الذي تقاربه الكتابة، إن اختلاف شكل الوعي بين نص ابن إياس ونص الغيطاني، يجعل الأول مزيجًا من الوقائع والشخصيات والحكايات والقيم المعيارية، ويقدم النص الثاني كخطاب متسق بالغ الكثافة، يتضمن مضامين فلسفية، سياسية، جمالية اجتماعية، لغوية... ويتضمن معرفة موضوعية بعيدة عن الاجتهادات الذاتية المعيارية... ولهذا يمكن القول: إن شخصية الزيني، كما الشخصيات الأخرى، في كتاب ابن إياس، تساوي ذاتها فقط، وتعيش حياتها وتذهب، وتنتهي بانتهاء زمانها الذي وصفه المؤرخ، بينما تقف شخصيات الغيطاني كنماذج بشرية ذات حضور فعلي ومحتمل، يمكن العثور عليها في زمن مضى، ويمكن انتظارها في زمن لم يصل بعد.

يعترف الغيطاني بالنص القديم وبالزمن الذي أنتجه، لكنه اعتراف جوهره المفارقة؛ لأنه لا يعترف بالنص إلا ليرفضه رفضًا مزدوجًا، يرفضه أولًا بسبب اختلاف الزمن التاريخي، ويرفضه ثانيًا بسبب اختلاف التكنيك الكتابي بين زمن وآخر، ذلك أن تشابه النصوص أو اختلافها لا يتحددان بالموضوع الذي تعالجه بل بطبيعة التكنيك المستعمل في المعالجة، والذي ظهر في تاريخ محدد كأثر لتراكم المعرفة، وهذا يعني أن الغيطاني يتعامل مع نص ابن إياس بالاعتماد على المعرفة الراهنة، وهذه المعرفة التي تختلف كيفيًّا عن تلك التي كانت قائمة في زمن ابن إياس هي التي تشرح الفرق بين النص القديم والنص الحديث، يكتب ابن إياس عن حدث تاريخي ينتهي بهزيمة، ويكتب الغيطاني عن الممارسة الاستبدادية التي تنتج الهزيمة وإذا كان نص الغيطاني راهنًا ويفيض عن الحاضر ويرهن الماضي ويطرح أسئلة متجللة، فإن النص القديم جزء من تجربة تاريخية مضت، ومرآة لشكل مضى من الوعي والكتابة، ويخبر هذا الاختلاف أن الغيطاني يعيش في زمانه تمامًا، ويسحب النص القديم إلى فضاء الحاضر، ويعلن أن زمن النص القديم قد انتهى. وفي هذه الحدود فإن نص ابن إياس لا يوجد في رواية الغيطاني، إلا كعناصر متناثرة، تأخذ دلالتها من وضعها في البنية الشاملة للعمل الروائي، أي أن البنية الروائية التي أنتجها الغيطاني هي التي تحدد معنى ووظيفة العناصر المأخوذة من كتاب ابن إياس، وخارج هذه البنية تتحول العناصر إلى مجرد حكايات وحوادث متناثرة.

وقد تقود العلاقة القائمة بين النصين السابقين إلى مفهوم: «المعارضة»، كما لو كان الروائي المعاصر يعارض النص التاريخي القديم بنص روائي جديد، وهذا الحكم لا صحة له؛ لأن القبول به يعني اعتبار النص الأول مرجعًا للنص الثاني وحاكمًا له، الأمر الذي يلغي معنى الجنس الأدبي الروائي، ويضع تاريخ الكتابة في أجناسها المختلفة خارج تاريخ العلاقات الاجتماعية وتحولاتها، وحقيقة الأمر أن العلاقة بين النصين لا تقوم في حقل «المعارضة» أو في حقل المحاكاة الناقصة أو المشوهة، إنما تقوم في حقل التحويل المعرفي والأدبي، حيث تتفكك عناصر النص الأول وتندرج في بنية النص الثاني، الذي يمنع عنها كل استقلال ذاتي.

ويمكن لرواية الغيطاني في علاقتها بنص ابن إياس أن توحي للقارئ بوجود نصين في نص واحد، أو بتعايش كتابة قديمة مع كتابة جديدة في نص واحد، وهذه الفرضية كسابقتها قابلة للنقض والإلغاء؛ لأن العمل الروائي لا يتحدد بعناصره المختلفة بل بالمنظور الروائي الشامل الذي يصوغ العناصر جميعها في بنية متكاملة. وإذا كان سطح الرواية يوحي بشيء أو بأشياء تعود إلى تاريخ قديم، فإن علاقات الرواية الداخلية تكشف عن كتابة كاملة الحداثة، وهذا الواقع ينفي عن رواية الغيطاني صفة الرواية التاريخية حين يعرف جورج لوكاتش الرواية التاريخية يقول: «إنها رواية تثير الحاضر ويعيشها المعاصرون بوصفها تاريخهم السابق بالذات» ([3]) ورواية الغيطاني تثير الماضي، ويعيشها المعاصرون بوصفها تاريخهم الحاضر بالذات، وربما تاريخهم القادم أيضًا.

يعالج جمال الغيطاني روايته موضوع تدمير الإنسان في دولة القمع الشامل، وينتج في النهاية خطابًا متميزًا عن آلية القمع في دولة الاستبداد، تستعلن دولة القمع كنفي للعقل في شكله العقلاني ونقيض له، ترمي على الإنسان بالاغتراب وتمنع عنه السعادة والتفتح، وفي نفيها للعقل والإنسان تدوس على القيم الإنسانية وتدمر اللحظة الأخلاقية، ومثلما تكون السلطة يكون شكل الوصول إليها، ولهذا فإن الزيني بركات يتحدث ظاهريًّا بالفضيلة ويكون جوهره الكذب والخديعة ومطاردة البشر، وهو بذلك يمتثل إلى بنية السلطة المتوارثة، ويستجيب إلى قواعدها القائمة، قبل أن ينشر مهارته الشخصية، وهذه المهارة لا يكتب لها النجاح إلا إذا كانت إضافة نوعية إلى القدرات الظلامية المتجسدة في «علي بن أبي الجود» الذي سبقه، وفي «زكريا بن راضي» كبير البصاصين الذي يعمل معه، وفي دولة الظلم والظلام تفقد معايير العدالة والعقل والشريعة معناها؛ لأن المرجع الأعلى هو الشخص القائم، وعلى الرعية أن تطيع الأشخاص لا القوانين، وتصبح هذه الطاعة صحيحة عندما تكون عمياء ومطلقة، أي أن العلاقة لا تقوم بين أشخاص بل بين مراتب بشرية، مرتبة أولى ألوهية، أو قريبة منها، ومرتبة أخرى سائبة ولا كرامة لها.

تأخذ العلاقة بين القامع والمقموع شكل خطين متوازيين، فإن التقيا كان ثمن اللقاء موت المقموع أو فجيعته، ولعل هذا اللقاء الفاجع بين جنسين مختلفين من البشر هو أساس الفعل الروائي وحامل العلاقات الروائية يلتقى الزيني في بداية الرواية مع الشيخ الذى اشترى جارية بعد انتظار طويل، فتذهب الجارية ويقترب الشيخ من الموت والجنون، ويلتقي «زكريا بن راضي» مع شعبان غلام السلطان فيذوي

الأخير ويموت. وبعد لقاء سعيد الجهيني مع أدوات السلطة يخرج مهزومًا ومعطوبًا، بل إن اللحظة التاريخية العاثرة التي حققت لقاء بسلطة مستبدة ستفرض على هذا المجتمع هزيمة مأساوية، وإذا كان لقاء السلطة مع الإنسان الأعزل يفترض الهلاك، أو ما هو منه قريب، فإن الاقتراب أو التقرُّب من السلطة يؤدي إلى تَشَوُّه الطبيعة الإنسانية، وانتقالها من طبيعة أولى سوية إلى طبيعة ثانية خربة أو تحمل ملامح الخراب، فخادم كبير البصاصين مبروك لا وجود له إلا كقوة جسدية، أو كآلة تنفيذ الأوامر، نرى حركته الممتثلة ولا نرى وجهه، وعمر بن العدوي يكون مسار اقترابه من السلطة هو مسار تفككه واندثاره، والشيخ ريحان، الحالم بمجد سلطوي بائس، يتحول إلى مهرج يثير الشفقة.

إن علاقة القامع بالمقموع، والتي تأخذ شكل خطين متوازيين، تعكس نفسها في شكل اللقاء الفاجع بينهما، وتنعكس أولًا في صفات وملامح وسمات كل منهما فبينما يبدو القامع وجهًا في نسق تاريخي طويل، يظهر المقموع وجهًا هشًّا قابلًا للكسر وليس له جذور، يتجلى القامع ككيان ملتبس، فهو قناع ووجه في آن معًا، قناع سلطة تعطيه مسبقًا اللغة واللباس ومكان السير وطقوس الخروج والطعام والشراب، وهو وجه لأن الآلة السلطوية الأثيلة التي يعتمد عليها تسمح بتمييزه وتفريده، يمر في الشارع فتنظر إليه العيون، ويذهب إلى المسجد فيكون المتحدث الأول، ويغيب يومًا فيلاحظ الجميع غيابه في جدل الوجه والقناع. يرسم الغيطاني صورة الجلاد النموذجي في السلطة المستبدة النموذجية، يتابع الزيني عمل «علي بن أبى الجود» ويأخذ مهماته ومسئولياته وشكل عمله، فيكون قناعًا لسلطة تتجاوزه باستمرار، ويتابع تاريخًا سبقه، لكن قدرة الزيني على التسلل إلى موقع خطير في سلطة مسكونة بالشك والخوف والقلق تسمح له أن يمتلك وجهًا متميزًا، فهو «لا ينسى وجهًا عابرًا»، وله «عينان خلقتا لتنفذا في ضباب البلاد الشمالية»، ينظر فيرى «المخبأ من الآمال» ولعل شهادات الرحالة البندقي «فياسكونتي جانتي»، التي تبدأ الرواية وتنتهي بها، تصف أحوال مصر المهزومة والتي تنتظر الهزيمة، بقدر ما هي مرآة رهيفة نقرأ فيها سمات الزيني وصفاته ومسار صعوده وارتقائه. فشهادات الرحالة القادم إلى مصر، في مرات متعددة، تتطابق مع فترات صعود الزيني وتزايد ألقابه، إذ يتولى - كما نقرأ في الرواية - منصب حسبة القاهرة عام 912هـ، ويكسب منصب والي القاهرة عام 914هـ، ويجمع بين يديه ألقابًا عديدة عام 922هـ، وصولًا إلى عام 923هـ، حيث يستعيد من جديد منصب محتسب القاهرة في زمن الاحتلال العثماني. وفي هذه الشهادات نقرأ ملامح الرجل أيضًا، فالشهادة الأولى تصف ملامح الرجل الخارجية التي تبعث الخوف في النفوس، وتكشف الشهادة الثانية عن لا إنسانيته المطلقة، التي تحكم على الإنسان بـ«الموت رقصًا»، وتدلل الشهادة الثالثة على فن النفاق الذي يتقنه واتجاره بالدين، وتعلن الشهادة الأخيرة عن قدرة الزيني على التلاؤم مع الأزمنة كلها، يعطي الغيطاني شخصية الزيني كاملة في وحدة الوجه والقناع، في وجه سلطوي فاسد حفظ عن ظهر قلب دروس السلطة الماضية وتاريخها، فهو وجه السلطة وخبرتها المتراكمة في آن؛ ولهذا «لم يعمر رجل مثله في وظيفته مع أن الأوضاع هنا سريعة التقلب، وهناك من يتولى منصبًا في المساء ليخلع عنه في الصباح» كما تقول الرواية. تنتج هذه

الصفات نموذج الفاسد المستبد، الذي يوظف عقله كاملًا لصناعة الشر، فيكون النموذجي - الاستثنائي أو الاستثنائي في شره، الذي يتعلَّم منه كل باحث عن الشر. ولا شك أن خلق هذا النموذجي - الاستثنائي روائيًّا هو الذي فرض على الغيطاني تحوير الزيني كما كتب عنه ابن إياس، وبدون هذا التحوير / التحويل لما كان ممكنًا خلق شخصية تعيش زمانها وتفيض عنه، وتصبح مرآة لكل مستبد نبيه.

لقد عمل الغيطاني على نسج شخصيات نموذجية تعكس زمنًا مزدوجًا، تعكس زمانها وتعكس القمع أيًّا كان زمانه، ومثلما أنتج شخصية الزيني خلق شخصية زكريا بن راضي كبير البصاصين، الذي هو قناع لمؤسسة ووجه فاعل يطور المؤسسة القديمة، بحيث يمكن الحديث عن: ديوان البصاصين، نقابة البصاصين، علم البصاصة، البصاصة الصحيحة.. يتكشف الرجل - القناع في ذاكرة تحفظ تاريخ الظلام كله، فيكون ممثلًا لزمانه وممثلًا لكل من مارس مهنة البصاصة يومًا، ولهذا يذكر زكريا تاريخ أسلافه، يثني على من أجاد ويستفيد ممن أخطأ يذكر تعاليم الشهاب جعفر كبير البصاصين في زمن السلطان الأشرف قايتباي، ويستعيد حادثة «منذ مائتي عام حين أضاعت الخمر واحدًا من أعظم البصاصين»، ولا ينسى آثار بصاص مصر الأعظم الكازروني «في عهد الظاهر بيبرس... في ركونه الدءوب إلى تاريخ البصاصة يكون زكريا قناعًا لتاريخ سمح له بالوجود وبحذق الحركة، وبسبب هذا الركون ذاته يتحول إلى نموذج في ميدانه الخاص به، بل يحلم أن يرقى إلى مستوى النموذج، بالمعنى الأفلاطوني، فهو البصاص الكبير الذي يسيطر على أدوات عمله، ويرتقى العمل إلى مقام الفن الرفيع، يدخل كبير البصاصين إلى كهفه لا يفكر بالضحية بل بالأدوات التي تجعل الضحية ترى في «الشنق نعمة»، ولا يكترث بالإنسان بل باليوم «الذي يدرك فيه البصاص ما قيل على بعد آلاف القرى والبلاد»، ويدرك ما فكر به الإنسان ولم يقله، وما أراد أن يفكر به الإنسان وامتنع، وبقدر ما يتعرف البصاص بعالمه الهوسي المغلق، فإنه يتعرف أيضًا بالإشارات التي تخلق فضاءه، حيث الاندماج بالظلام والألفة مع الليل وعدد من الدفاتر «تختلف ألوانها وأحجامها وتلخّص الديار المصرية»، يسجل كل شاردة وواردة وحيث الكهوف والسجون الرطبة وضحايا منسية سقطت وجوهها لتعاقب السنين والعذاب، بل ينقسم الزمان إلى قسمين: قسم أول لاستنطاق الضحايا، وقسم ثان يبحث فيه البصاص عن أدوات جديدة لتدمير الضحية وهزيمتها. لهذا الملكوت المسكون بهوس أسود طليق ينتقل البصاص من مقام المخلوق إلى مقام الخالق، فهو «الوحيد في مصر العالم بحقيقة ما سيجيء»، والوحيد في عمله يقترب من وحدانية لا يعرفها البشر.

تعبر شخصية الزيني وزكريا وعلي بن أبي الجود، رغم مصيره البائس، عن حالات سلطوية في زمن محدد، لكنها تعبر قبل كل شيء عن نسق تاريخي من الممارسات السلطوية، نسق له كثافة وثقل، ولد وتبلور في عبق التاريخ، وأعطاه التاريخ كل مكره ودهائه.

وانتماء هذه الشخصيات إلى نسق قديم يقيم بينها علاقات تناظر وتشابه، يمنحها ثباتًا واستمرارًا، ويجعل تغييرها أمرًا يعود إلى التاريخ، ويتجاوز رغبات الأفراد. وفي مقابل النسق السلطوي الثابت في وضوحه والواضح في ثباته يقف بشر بلا نسق، بلا تنظيم وطقوس وقواعد، يأخذون لقب الشعب، العامة أو العوام، لا يشاركون في السلطة، ولا تعترف الأخيرة بهم، يراكمون الخوف وضياع الأمان؛ لأن دورهم أن يكونوا مطية للسلطة وموضوعًا لقمعها. تُمثِّل الرواية هذا الجمع المبهم من العوام في شخصيات متعددة، بعضها هامشي ولا وجه له، وبعضها وجه واضح، ووضوح الوجه لا يمنع عنه الهامشية ومحدودية الأثر. تظهر الشخصية الهامشية في امرأة حامل تبيع العجور ويشنقها علي بن أبي الجود على باب زويلة، وفي شخصية سماح ابنة الشيخ ريحان، الحلم الجميل الذي تعلَّق به سعيد الجهيني وتبخر، وفي المرأة الضالة التي قال بعضهم إنها تشهر بالزيني بركات وتلعنه، وشخصية منصور الطالب الأزهري وصديق سعيد الجهيني.. شخصيات لا دور لها ولا مكان، تأتي وتذهب فلا يشعر بها التاريخ، وليس لها فيه دور، ولا تحتاج إلى قناع لأنها لم تعثر على وجهها بعد.

ويقف سعيد الجهيني كمرآة صقيلة للشخصية التي تنتمي إلى العوام، يتوق إلى العلم والعمل والمعرفة والمجتمع العادل، لكن انتماءه إلى جمع مبهم لا نسق له يقوده إلى لا مكان، إلى خيبة ملتاعة وهزيمة متكاثرة. ينهزم حلمه في تغيير الواقع إذ يعقد آمالًا خاسرة على الزيني حتى يكتشف كذبه وخواء أحلامه، وينهزم حلمه في العيش مع المرأة التي يحبها، فيذوب حبًّا في سماح ثم تذهب إلى رجل من السلطة، ويحضر فرحها الزيني نفسه، وينهزم حلمه في التصدي للاحتلال العثماني، ويقف في النهاية حسيرًا يردد: «آه، أعطبوني، وهدموا حصوني». تبدو الشخصية الشعبية ميتة أو قريبة من الموت، لا موقع لها في دولة لا مواطن فيها، تعرف القمع ولا تعرف سبل الخلاص منه. شخصية مغتربة بالمعنى الوجودي، لا تملك ذاتها ولا قرارها، فتعيش القمع ولا تستطيع الفرار منه. ولذلك فإن سعيد الجهيني، رغم علمه وعمله، يصل إلى المكان الذي تجنّب طويلًا الوصول إليه. يهرب حياته كلها من الضياع وينتهي ضائعًا، ويتجنب مكر السلطة فيقع في شباكها، ويعيش القدر الذي صنعته وفرضته عليه، ويمكن للفقر التاريخي الذي يميز الشخصية الشعبية أن يشرح القدر البائس لـ«عمرو بن العدوي»، يأتي إلى المدينة حاملًا شوقًا لا انقطاع فيه إلى أمه، وعندما يقع في شباك السلطة يفقد ذاته وأمه معًا، يهرب من الفقر المادي وينتهي إلى فقر شامل، يموت في الحياة أو يقترب من الموت، لأن من يعاشر السلطة المستبدة يقترب من الموت ولا يدري.

وقد تبدو شخصية الشيخ «أبو السعود»، المدافع عن الحق والمناهض للسلطة، أمرًا مختلفًا، فهو الطيب، الصالح، الذي يجتمع بأصحابه في البيت الحرام، وهو الذي عرف لغة الهند ولهجة الأحباش وعالج أمور المسلمين في فارس وناقش علماء الأناضول، وهو الذي ألقى القبض على الزيني بركات، وطلب من تلاميذه أن يوسعوه ضربًا، وهو الذي يدعو إلى الجهاد ويطوف في الأرياف محرضًا ضد الاحتلال العثماني. إن تماسك الشيخ لا يعود إلى انتمائه إلى قضية الشعب والعدالة،

بل يعود إلى نسق له جذور ومرتبة ومهابة، هو نسق رجال الدين ودورهم التاريخي في المجتمع الإسلامي. ورجل الدين التقليدي يقود الشعب ولا ينتمي إليه بالضرورة؛ لأن علاقته به هي علاقة لا متجانسة، فالتاريخ أنتج الشيخ نسقًا، وهذا التاريخ ذاته منع عن الشعب أي استقلال سياسي - ذاتي. ولذلك يأخذ الشيخ في علاقته بالعامة الموقع الذي يحتله السلطان في علاقته بالمجتمع السياسي. إن علاقات اللاتكافؤ، التي أنتجها التاريخ، والتي تحكم علاقة السلطة بالشعب، تجعل من الأول جلادًا ومن الثاني ضحية. بل إن تأمل موقع الشعب في علاقته بالنسق السلطوي من ناحية، وبالنسق الذي ينتمي إليه الشيخ من ناحية ثانية، يكشف عن مجتمع مرتبي لا موقع للشعب فيه. يحتل السلطان في الحالة الأولى المركز الأعلى ويسكن الشعب في القاعدة، ويحتل الشيخ في الحالة الثانية المركز الأعلى ويكتفي الشعب بالصمت والامتثال. وإذا كان النسق السلطوي، وبسبب عمقه التاريخي، يجعل من البصاصين (علي بن أبي الجود، زكريا بن راضي، الزيني) أداة وصل بين السلطة والشعب وتعبيرًا عن مرتبية صارمة، فإن هذه المرتبية قائمة ضمنًا في العلاقة بين الشيخ وتابعيه، وهي لا تأخذ شكلها الحارق لاعتبارات عارضة جوهرها أن الشيخ لا يمتلك جهاز الدولة الإداري والسياسي، ولذلك ليس غريبًا أن يكون حضور السلطان في الرواية ومضيًّا، بل يكاد لا يرى، لأن العيون لا تراه بسبب عليائه وتعاليه اللذين يمنعانه عن العيون، وأن يأخذ الشيخ «أبو السعود» شكل الواقع والأسطورة، أو الحقيقة والرمز، فهو موجود وغير قابل للوجود في الوقت نفسه.

في هذه الحدود، تكون العلاقة بين شخصيات النسق السلطوي أو الشخصيات الشعبية علاقة تدمير ومطاردة، وهذه العلاقة تكون أساس الفعل الروائي، وهي مبثوثة في العلاقات الروائية جميعها، وقائمة في الحركات الثلاث الأساسية التي تحكم العمل الروائي وهي: تعيين الزيني مسئولًا عن حسبة القاهرة، وما يصاحب ذلك من تأييد ورفض، ومن ممارسات تكشف عن وجه وقناع المسئول الجديد، وتكشف أيضًا عن مواقع الشخصيات الأخرى، وهي تراقبه أو تتعامل معه، لكأن الزيني في فكره وعمله مرايا متعددة في آن، مرآة للمستبد الفاسد، للسلطة القاهرة، للإنسان المقهور الذي ينتظر فرجًا لا يأتي (سعيد الجهيني)، للبصاص الحالم بالنفاذ إلى العقل والقلب (زكريا بن راضي). وتستظهر الحركة الثانية في علاقة مزدوجة، لقاء الزيني بزكريا من ناحية، وتأمل سعيد الجهيني للزيني من ناحية ثانية. يكون اللقاء الأول صراعًا بين الأقوياء، ومرآة لميزان قوى بين شخصين متسلطين، وينتهي اللقاء بالمصالحة، وبتكامل النفوذ وتكافله، أما لقاء سعيد بالزيني فيكون مستحيلًا منذ البداية؛ لأن مرجعي الرجلين مختلفان، ولأن ميزان القوى يجعل الأول خاسرًا منذ البداية، وإذا كانت الحركة الروائية الأولى (تعيين الزيني) تعطي الفعل الروائي مركزًا، فإن الحركة الثانية تسمح بتطور الفعل الروائي وتصاعده وتحولاته، إذ يرفض كبير البصاصين المحتسب الجديد، إلى أن يكتشفه ويقترب منه شيئًا فشيئًا، بينما يبدأ سعيد الجهيني قريبًا من المسئول الجديد، ثم يلفه الشك ويكتشف حقيقة الزيني بركات حين يتساهل مع التجار ويحضر زواج سماح. والحركة الثالثة في الرواية هي: الهزيمة، حيث ينهزم المجتمع من جديد، ويتابع

الزيني سيرته الأولى، ويسقط سعيد في الصمت والضياع، فقد ضاع قبل أن تضيع بلاده.

تحتضن الحركة الروائية في عناصرها الثلاثة ثلاثة تناقضات لا متكافئة: التناقض بين الشعب والسلطة، وهو تناقض أساسي، والتناقض بين ممثلي السلطة، وهو تناقض جزئي لا يلبث أن يعثر على حلّه، وتناقض مفترض بين السلطة الداخلية والعدو الخارجي (السلطة العثمانية) ينتهي بالخسران لأن التناقض الأول يبدد الشعب والسلطة معًا. وفي التناقضات الثلاثة يبدو الشعب غائبًا، فهو في الأول ضحية، وفي الثاني لا وجود له، وفي الثالث أداة مشلولة الإرادة، تكتسح السلطة المكان كله، أما الشعب فينوس بين الصمت والانفصال، فإن ظهر الشعب كان ذلك في المناسبات التي تسمح بها السلطة (عقاب علي بن أبي الجود، مسألة الفوانيس، انتظار أخبار الحرب...). إن التهميش الشامل للشعب، كما عجزه المتواتر، هي التي تجعل من صوت الشيخ «أبو السعود» صوتًا منفردًا، يكون مع الشعب ولا يكون منه، لأنه يتكئ في فعله على هالة متوارثة، لها الاحترام والقداسة، إنه السلطان الآخر المحتمل، الذي مهما اقترب من الشعب، أو ابتعد عنه، ظلت بينهما مسافة ومرتبة، فله «أصحابه في البيت الحرام يتبادل معهم النظر كل عام»، وهو الذي «تبرق عيناه بفرحة لا تمت إلى هذا الزمن، تمرح روحه في كون يناجي الأولياء». في هذه الصفات لا يكون «أبو السعود»، في رفضه ودعوته للجهاد، جزءًا من الشعب وخيطًا في نسيجه، بل يكون ضميرًا واجب الوجود، أو مجاز صوت مقاوم تفرضه الإرادة قبل أن يفرضه العقل.

إن ديمومة الاستبداد، وهذا البحث المتعثر عن عالم الحرية، يجعلان رواية الغيطاني تنفتح على الأسى في سطورها الأولى، وتنغلق على الأسى في سطورها الأخيرة، إذ نقرأ في الصفحة الأولى: «أرى المدينة مريضًا يوشك على البكاء»، ونقرأ في الصفحة الأخيرة: «ابتعد النداء الخافت في هواء شاحب». وهذا الأسى الذي لا بداية له ولا نهاية يتجسد ويصبح كيانًا عاديًّا في شخص الجهيني، الذي يبدأ حركته بشواغل الظلم والعدالة ثم يناجي الكون شاردًا في إيقاع حزين إذ تغترب الروح عن أشواقها وتبتعد عن هموم زمن فاسد وتفتح ذراعيها لزمن الموت الذي يحرر الجسد والروح معًا.

وقد تكون شخصية الجهيني مدخلًا لسؤال عن معنى الزمن، وهل الزمان فضاء لتحقيق المعقولات والانتقال من الظلمة إلى النور أم أنه زمن سديمي تعيد فيه الأشياء سيرتها الأولى وإن اختلف المظهر؟ وهل يسير الشعب في التاريخ من هزيمة إلى نصر أم أن تاريخه هو تاريخ هزائمه المتعاقبة؟ وسؤال الزمن في رواية الغيطاني له وجوه متعددة، الوجه الأول فيه هو زمن المادة التاريخية في شكله التعاقبي، فزمن الحدث هو القرن العاشر الهجري، يمتد من 912 هـ إلى 923هـ، زمن خطي يحكي ارتفاع مستبد وهزيمة بلد، يؤرخ لبداية ويصل إلى نهاية ويصف ما بينهما، إنه زمن الرواية التاريخية في شكله التسلسلي، حيث للظواهر شروق وغروب، لكن هذا الزمن الخطي يأخذ شكلًا جديدًا في الكتابة الروائية، أو أنه يستحيل إلى زمن جديد بسبب هذه الكتابة، فالغيطاني، كما قلنا، لا يتعامل مع ابن

إياس إلا لينفيه ويتجاوزه، وفي هذا التجاوز الذي جوهره التحويل الروائي، تفقد المادة التاريخية الأولية زمنها عندما تفقد استقلالها الذاتي، أي عندما تحوِّلها الكتابة الروائية إلى مادة جديدة ذات زمن جديد هو: الكتابة الروائية، وهو زمن صادر عن تمازج الواقعي والمتخيل، زمن كثيف يربط الأحداث بتاريخ معين (القرن العاشر الهجري) ويحررها من كل تاريخ في الوقت نفسه، زمن تفرضه الكتابة الروائية التي لا تروي الحوادث المتعاقبة، بل تتأمل وضع الإنسان في الحوادث المتعاقبة، وتصوغ الحوادث لتوقظ العقل وتدفعه إلى التأمل، ولهذا يبدأ الغيطاني مشهد مدينة تنتظر أخبار الهزيمة (922هـ)، مسكونة بالتوتر والقلق والتشاؤم العميق. وبعد هذا المشهد الذي يختلس من القارئ راحته يعود الروائي إلى بداية الأحداث في شوال 912هـ، ويسرد تاريخ سلطة وشعب في حقبة معينة، إلى أن يصل إلى الهزيمة، لكأن الغيطاني يبدأ روايته بسؤال مأساوي، ثم يكتب عن مسلسل من المآسي ليجيب عن السؤال الأول. ينطلق من نقطة ويعود إليها، بعد أن ندخل إلى عالم من الحكايات والمراسيم والمؤامرات والنداءات (بنية مجتمع وسلطة) ونقرأ شهادات الرحالة البندقي. إن تعامل الغيطاني مع الزمن وتقسيمه الرواية إلى تسعة أقسام (سرادقات) والاتكاء على مذكرات الرحالة البندقي لا يسعى إلى التشويق أو التعمية وإثارة الفضول إنما يتوافق مع تقنية روائية تهدف إلى إنتاج خطاب نموذجي عن السلطة المستبدة، أي تطمح إلى إنتاج معرفة روائية تلتقي في موضوعيتها مع المعرفة التاريخية وتتجاوزها. وفي إنتاج هذا الخطاب الذي يحتضن أزمنة متعددة تكمن القيمة الكبرى لرواية الغيطاني، فهي لا تعكس زمنًا وتنقضي بانقضائه، إنما تظل رواية عن زمن ورواية عن كل الأزمنة الفاسدة.

إن المعرفة الموضوعية التي تنتجها بشكل نموذجي رواية جمال الغيطاني تجعل منها رواية بلا زمن، أي تجعل منها رواية تحتضن جملة من الأزمنة وتظل طليقة؛ لأن موضوعية المعرفة تتمرد على الزمان والمكان. ويمكن لقارئ رواية الزيني بركات أن يجد فيها زمنًا خطيًّا ومستقيمًا، يتجلى في الصعود الذي لا يقاوم للزيني، وفى تصالح الأخير مع كبير البصاصين، وفي ارتقاء وتطور وسائل البصاصة واضطهاد البشر. كل شيء يبدأ من نقطة ويسير ليبلغ أخرى. كما يمكن للقارئ أن يتأمل زمنًا دائريًّا يدور حول نفسه إلى ما لا نهاية، حيث يترنح الظلم ويسقط (علي بن أبي الجود)، ويأتى مكانه شيء يشبه العدل، لا يلبث أن يستقيم ويستوي ليصبح ظلمًا يتجاوز ما سبقه (مسار الزيني)، بل يمكن للقارئ أن يظن أن الهزيمة حصدت معها الظلم وهزمته، لكن الظالم لا يلبث أن يقف ويسير مع مناصبه القديمة.

وإذا تركنا داخل الرواية إلى خارجها، يمكن أن نعثر على زمان أو أكثر، زمن الكاتب (بداية السبعينيات)، وزمن الوعي الروائي، الذي هو زمن حديث، وزمن القراءة التي تنظر إلى صفحة من تاريخ بعيد. لكن هذه الأزمنة كلها، خارجية كانت أو داخلية، تمتثل إلى زمن - أساس هو: زمن موضوعية المعرفة الروائية، الذي لا ينفصل عن زمن الكتابة الروائية، حيث تكون موضوعية المعرفة أثرًا له ونتيجة، وهذه المعرفة الروائية هي التي تسمح للقارئ، وبسبب موضوعيتها، أن يقرأ الحديث الذي مضى، وأن يقرأ الحاضر ويرهن الحكاية الماضية، وأن ينظر إلى

المستقبل ويتوقع ما هو ممكن الحدوث، فترهين رواية الغيطاني جزء داخلي فيها وأثر للتقنية الرهيفة التي صاغت الرواية ولقد ساهمت المادة التي اتكأ عليها الغيطاني، واللغة التي أخذ بها، والتقسيم الداخلي الذي اعتمده في الكتابة، في إنتاج موضوعية المعرفة الروائية فهذه العناصر كلها أنتجت أثرًا تبعيديًّا، فبدت الرواية وثيقة تاريخية، أو وثيقة عن زمن تاريخي نموذجي جوهره القمع والهزيمة، واستخدام مذكرات الرحالة البندقي، التي وضعها الغيطاني خارج السرادقات، أنتجت، من حيث هي علاقات فنية داخلية، أثر التبعيد وضاعفته، فظهر القول الروائي، كما لو كان أثرًا لقول مزدوج، قول السارد الذي يسرد تفاصيل الحدث، وقول الرحالة الذي يسند القول الأول ويؤكده. وبهذا المعنى لم يكن الغيطاني يبحث عن تقنية مجانية غايتها الإبهار والتعمية، إنما كان يفتش عن التقنية التي تجعل قوله واضحًا، يصلح لزمانه، ولكل زمان كان منه قريبًا.

إذا كان سؤال زمن الخطاب الروائي في مستوياته المتعددة، قد عثر على إنارة نسبية في معنى موضوعية المعرفة الروائية، فإن هذه المعرفة الأدبية تطرح سؤالًا حول علاقة رواية الغيطاني بالمواد التاريخية التي اتكأت عليها؛ لأن رواية الزيني بركات لم تستخلص «عبرة» من واقعة تاريخية جرت، إنما أنتجت معرفة خاصة بها، من حيث هي رواية. ويستحضر هذا السؤال من جديد الفرق بين منطق الكتابة التاريخية ومنطق الكتابة الروائية تتمحور الأولى حول الوقائع والمجريات والسياق والتحليل وتعطي للخصائص والمزايا الإنسانية دورًا هامشيًّا، في حين تقلب الكتابة الروائية الأمر، وتجعل من الإنسان في عالميه الداخلي والخارجي، مبتدأ الرواية ومنتهاها، إذ إن الرواية لا تكتشف الواقع إلا في اكتشافها للإنسان، وفي استقصائها لتحولاته وتغيراته في زمن محدد تاريخيًّا، أو في زمن يمتثل إلى التاريخ ويتمرد عليه في آن.

نقرأ عن ابن إياس: «وشهد مؤرخنا ابن إياس، حوادث الفتح العثماني لمصر،.....، وشهد القسم الأخير من المأساة عند دخولهم القاهرة، وما ارتكبوه فيها من رائع السفك والتقتيل والتخريب، ودوّن لنا عنها في تاريخه.... وإن كان بيانه لم يسبغ عليها ما يجب من دقة وقوة. فهو يترك لنا عن هذه الحوادث الشهيرة الحاسمة في تاريخ مصر وتاريخ الإسلام سجلًّا يوميًّا مسهبًا، يستند إلى تحقيق المعاصرة والمشاهدة. ونراه يحمل على السفاكين والظلمة، في عبارات شديدة، وأحيانًا مؤثرة ويغتبط لمصرعهم...» ([4]) يسجل ابن إياس مناظرة مؤثرة متتالية وقعت في أيام متتالية، ويأخذه الانفعال فيرفع الكتابة إلى مستوى الندب والرجم والتحريض. ولكنه في الحالات كلها يتعامل مع الحادث بمنطق خارجي، فيرسم الأفعال ولا يفتش عن أسبابها، ويتعاطف مع المذبوح ولا يقرأ وجهه أو روحه. أما في رواية الغيطاني فإن الوقائع تسكن في قلوب البشر وعيونهم، بل تقرأ الوقائع في القلوب والعيون، لأن الرواية لا تكون رواية إلا إذا كان الإنسان محورها، وكانت مرآة لمسار الإنسان وقدره. ولهذا فإن تقسيمات الرواية لا توازي تقسيمات الحوادث التاريخية بل تكون مرايا تعكس مصائر البشر، وفي المصائر هذه يستظهر التاريخ في الأحزان الفردية والمآسي الجماعية، يبيّن السرادق(*)([5]) الأول ما جرى لعلي بن

أبي الجود، ويحكي الثاني شروق نجم الزيني بركات، ويعود الثالث إلى علي من جديد، وتتحدث «السرادقات» التالية عن سعيد الجهيني وعمرو بن عدوي والشيخ «أبو السعود» وزكريا بن راضي... يحكي كل سرادق عن الإنسان كما يصوغ الوقائع، وعن الوقائع كما تصوغ الإنسان، ويظل الإنسان في الحالين بؤرة الحدث، ينطلق منه الفعل ويعود الفعل إليه، من أجل انتقال جديد يحوّل الفعل والإنسان معًا، أو يحول منظور الإنسان إلى فعل جديد. إن الانطلاق من الإنسان، بالمعنى الروائي، انطلاق من جملة القيم والمعايير والمشاعر والانفعالات التي تكوّن الإنسان. وما قراءة شخصيات رواية الغيطاني بدءًا بالزيني وصولًا إلى «أبو السعود» ومرورًا بما بينهما إلا قراءة لمشاعر الإنسان في أحوالها المختلفة: المراوغة، المكر، الشك، الخوف، الإحباط، القلق، الأسى، الفرح، الكآبة، الإيمان، التمرد، الخضوع...

انطلاقًا من هذا، يستعيد الغيطاني قصصًا قديمة ليقرأ فيها الإنسان في أحواله المتعددة، فتكون القصص قناعًا لشيء يتجاوزها باستمرار، أي تكون أقنعة بلا زمن، لأن الزمن الوحيد هو زمن القيم الإنسانية، في مستوى ارتقائها وفي مدى تطامنها وسقوطها؛ ولهذا فإن الغيطاني لا ينطلق من وثيقة ابن إياس، بل من معنى الشخصية الإنسانية كما يمكن أن يتجلّى روائيًّا في وثيقة تاريخية. إن مفهوم الشخصية، كما مفهوم الرواية، يختلس من وثيقة ابن إياس زمنها التاريخي المفترض، ويجعلها مادة بلا زمن يعيد صياغتها وعي ينتمي إلى الزمن الحديث. فمفهوم الشخصية الإنسانية حديث في دلالته ومعناه، إذ الإنسان حر ويحتكم إلى عقله، يصوغ ذاته ويصوغ العالم، قادر على الخلق والاكتشاف، وقادر على المغامرة وإنتاج المفاجآت والتمرد على العوالم القائمة. وربما يكون في التخيل الروائي صورة لإنسانية الإنسان ونزوعه إلى عوالم بديلة ومحتملة، حيث الواقع المعيش لا يقرره السلطان ولا يخضع لتعاليم جاهزة. بل يمكن للفعل الإنساني الطليق أن يطرق باب المجهول، فإن لم يفلح الفعل استند إلى خيال الإنسان، حيث الخيال يصوغ ما شاد من العوالم. في إدخال مقولة الإنسان المتعدد الأبعاد إلى وثيقة ابن إياس تتكسر الوثيقة القديمة، وتظهر كتابة جديدة عنوانها: الكتابة الروائية.

وقد يبدو ظاهريًّا أن جمال الغيطاني قد توقف طويلًا أمام معنى الإنسان وهو يقرأ كتاب ابن إياس، مع أن الاحتكام إلى المفاهيم النظرية يظهر أن الغيطاني قد توقف طويلًا أمام معنى الرواية أولًا، وعن فهمه العميق لمعنى العمل الروائي صدر معنى الإنسان في الرواية، حيث لا وجود للإنسان إلا في شرط تاريخي متميز، وحيث لا وجود له إلا في مواجهة آخر يقف أمامه ويمنعه من الوصول إلى ما يرغب في الوصول إليه؛ فالإنسان في الرواية، وكما تظهر رواية الغيطاني، لا وجود له إلا كسيرورة، ككيان متحول، يصل إلى ما ينشد الوصول إليه أحيانًا، ويصل إلى حيث لا يريد غالبًا. وهذا الحال، هو الذي يعطي مكانًا للمستقبل - في معناه المركب أو البسيط – في العمل الروائي، فبدون التناقض يتلاشى معنى الزمان، ويصبح المستقبل لا مكان له. إن تأكيد وحدة الإنسان والزمن في العمل الروائي يميز الكتابة الحديثة من الكتابة التقليدية؛ فالكتابة الأخيرة والتي يمكن أن تجد في كتابات

المنفلوطي مثالًا عليها، وفي كتابات عربية تدعي الانتماء إلى الجنس الروائي، تدور غالبًا في عالم القيم المجردة، أما الكتابة الحديثة فتذهب إلى التاريخ، كي تشتق منه معنى القيم والإنسان. وهذه العودة الواعية إلى التاريخ، في معناه الكثيف تجعل رواية الغيطاني قائمة في زماننا بقدر ما هي قائمة في أي زمن آخر.

تكشف رواية الغيطاني عن الإنسان في تاريخه وعن التاريخ في الإنسان الذي ينتمي إليه. يتكشف التاريخ سياسيًّا في: احتجاب السلطان، بينه وبين القاع الاجتماعي وسيط وتوسط، مراسيم السلطة، لغة السلطة، شكل الوصول إلى السلطة وشكل فقدان السلطة... ويتكشف أيديولوجيًّا في معاني: الطالب، الأزهر، رجل الدين ما معنى العصمة والخطأ، الحق والقانون، الشريعة والدستور... بل يمكن لهذا التاريخ أن يغطي ملامحه الاقتصادية في احتكار الحاكم للتجارة، سلطة، التجار، مستوى الفلاحين، شكل تسعير الغذاء والعقوبات الاقتصادية... مع ذلك؛ فإن مستوى هذا التاريخ يظهر عاريًا في مفهوم: العوام، وغياب التمثيل الشعبي، وانمحاء الاستقلال السياسي - الذاتي لجموع المضطهدين. كما يكمل هذا التاريخ صورته في معنى الحق والقانون، إذ تكون السلطة هي الحق ورغبات أدواتها هي القانون. في شروط كهذه يكون البشر وجوهًا وأقنعة، وجوهًا لا أسماء وأقنعة لا تحتاج إلى أسماء، لأن اسمها الكبير هو تاريخها الذي يخلق الوجوه والأقنعة.

يحول الغيطاني، إذن، الحكاية التاريخية إلى رواية اعتمادًا على جدل الإنسان والتاريخ، ويستكمل هذا التحويل اعتمادًا على اللغة، فالنص القديم يتكون، غالبًا، في لغة أحادية البعد، لغة رتيبة مرجعها القاموس، أو مرجعها أيديولوجيا، فقيرة تاريخيًّا تختصر الواقع إلى قواعد البلاغة، وعلى خلاف ذلك، تكون اللغة الروائية متعددة المستويات؛ لأنها تحاول أن تقول تفاصيل الواقع اليومي قبل أن تستجيب إلى المخزون اللغوي الجاهز وتعكس اللغة الروائية في ذلك العناصر الأيديولوجية المتعددة التي تحكم بناء العمل الروائي وإذا كانت اللغة التقليدية تعكس أيديولوجية فقيرة تاريخيًّا، قوامها الإيمان باللغة ولغة الإيمان، فإن اللغة الروائية لا تحقق ذاتها إلا بانفتاحها على الواقع والتاريخ والإنسان والمتخيل، الأمر الذي يجعلها تعكس عناصر أيديولوجية مختلفة، وترفض بالتالي أية لغة رتيبة وجاهزة، ويتضمن عمل الغيطاني عناصر أيديولوجية متعددة (أيديولوجيات) يمتزج فيها الوطني بالسياسي المدافع عن الحرية، والتأملي بالفلسفي والجمالي بالتاريخي، والوثائقي باليومي المتنوع الذي يفيض عن كل توثيق. وهذه العناصر المختلفة تنتج مستويات لغوية مختلفة. تبدو الرواية في شكلها الخارجي حكاية قديمة عن جلادين وضحايا في فترة من تاريخ مصر مضت وانقضت، بينما تبدو في شكلها الداخلي سردًا لمصائر بشرية، محددة الملامح والسمات والأشواق. وقد تبدو اللغة في شكل الرواية الخارجي تقليدية، أو تذكر بالأسلوب التقليدي. وتؤكد تقليديتها لغة الرسائل والنداءات ومطالع «السرادقات» لكن الانتقال إلى الشكل الداخلي يكشف عن لغة أخرى يفرض الفعل الروائي لقاء الإنسان بنفسه وبالآخرين، ويفرض لغة الجلاد ولغة الضحية، واللغة اليومية المرتجلة ولغة الطقوس الدينية ويعطي للمكان، في أشكاله المختلفة، اللغة التي تصفه ليلًا ونهارًا، وترسمه من بعد أن تقترب منه

وتلتقط التفاصيل. إن انفتاح الفعل الروائي على المكان والزمان يحرر الكتابة من سلطة اللغة الجاهزة والوحدانية اللغوية الصماء، ويسمح بلغة تستجيب إلى الموضوع الذي تكتبه ولا تُكْره الموضوع على الخضوع إلى مفرداتها الجاهزة، لغة حية ومشخصة وطليقة، يعاد تشكيلها، لغة لا مركز لها من حيث هي لغة، لأن مركزها الحقيقي الموضوع الذي تكتبه، والذي يستعيد اللغة ويركبها فنيًّا، ولهذا السبب نعثر في رواية الغيطاني على شيء يمكن أن يُدعى: التهجين اللغوي، فبين لغة الرسائل واللغة التي تصف القلق الداخلي لـ«عمرو بن العدوي» مسافة، وبين لغة شهادة الرحالة البندقي واللغة التي تصف ليل السجون اختلاف، أي أن رواية الغيطاني تحمل عدة لغات في لغة واحدة.

ينهض الخطاب الداخلي لرواية الغيطاني على تناقض الاستبداد والحرية، وهذا التناقض يولد المجالات المتعددة التي ينعكس فيها بأفعال مختلفة وبلغات مختلفة، مما يجعل اللغة مهما كان موضوعها، تستجيب للخطاب الداخلي. وفي هذه الحدود أعطى الغيطاني نثرًا جميلًا متألقًا في أكثر من مكان، تاركًا الكتابة عفوية تفرض سطورها، بدون أن تخضع دائمًا إلى قواعد النحو والبلاغة، وفي هذه الحدود أيضًا رفض الغيطاني الوثيقة القديمة برفض لغتها الأحادية البعد.

لكن السؤال الأكبر الذي تطرحه رواية الغيطاني هو سؤال: الشكل الروائي، أو الشكل الروائي لرواية عربية. فعمل الغيطاني رواية عربية ومساهمة في نظرية الرواية العربية. ولعل الغيطاني من الأصوات الروائية العربية النادرة التي اقترحت إجابة نظرية على سؤال الرواية العربية، التي لا تزال تبحث من خلال العثار والإصابة عن شكل متميز يجعلها مرتبطة بالسلسلة الثقافية العربية، بعيدًا عن الغربة والاغتراب والاستيراد الهجين. إن موضوع القمع الذي تناوله الغيطاني في الزيني بركات ليس جديدًا في الرواية العربية، فقد عالجه قبله: صنع الله إبراهيم ونجيب محفوظ وحنا مينة وغيرهم لكن الجديد الأصيل الذي جاء به الغيطاني هو الشكل، الذي يستعيد تاريخًا ثقافيًّا - سياسيًّا ويرهنه بوعي جديد، يدرك معنى الرواية وعلاقة الرواية بالتاريخ، ويدرك أولًا أن الكتابة الروائية جنسٌ أدبيٌّ يتعامل مع التاريخ. ولعل محاولة الغيطاني تستعيد وتتجاوز محاولة روائية أخرى، كانت رائدة ومبدعة في منظورها ولم تجد من يتابعها، هي محاولة محمد المويلحي في «حديث عيسى بن هشام»، التي طرحت دلالة الهوية الوطنية في الكتابة الروائية، وعلاقة الثقافة الروائية بالمخزون الثقافي - اللغوي العربي.

لقد جاء الجنس الروائي، كما جاءت أجناس أدبية أخرى، وافدًا إلى البلدان العربية. وليس في استقبال ثقافة مغايرة في بلد معين ما يُضير، بسبب كونية الثقافة والحوار اللا متكافئ بين الثقافات الكونية، لكن هذا الاستقبال لا يستقيم إلا عندما يصبح العنصر الثقافي الوافد جزءًا داخليًّا من ثقافة وطنية، أى عندما يتم تحويله بأدوات ثقافية وطنية، تميزه وتسحبه من التاريخ الذي جاء منه إلى تاريخ متميز لبلد يتميز في ثقافته وتاريخه. ولقد أدرك جمال الغيطاني أن الإبداع الأدبي لا يوجد إلا متميزًا ومقدمة التميز المبدع وعي المسافة القائمة بين الأزمنة التاريخية المختلفة للمجتمعات الإنسانية المختلفة، ووعي الأسباب التي أنتجت في بلد معين جنسًا أدبيًّا

محددًا ومنعت إنتاجه، في الزمن ذاته، في بلد آخر، وفي بحثه عن الشكل الفني في «الزيني بركات» كان الغيطاني يتكئ على ثقافته الوطنية الواسعة ليعبر عن أمرين، أولهما: معنى الخصوصية الثقافية العربية، وغنى هذه الثقافة وتنوعها، وثانيهما: معنى الكتابة الروائية، التي لا يمكن اختصارها إلى حكاية ذات عقدة وبداية ونهاية، ولا إلى تكنيك مجرد أو هياكل صامتة يمكن ملؤها بكلام عربي، وتكون الرواية في هذا الوعي علاقة ثقافية في ثقافة متعددة العناصر ومعروفة التاريخ، ولم يكن في هذا يسقط في أحكام معيارية تنطلق من جوهر مجرد (الجوهر العربي) يبحث عن جمالية عربية خالصة، إنما كان يعلن عن موضوعية التاريخ التي تميز الشعوب في تميز ثقافاتها، وكان أيضًا يرمم العلاقة بين الإرسال والاستقبال الفنيين، فيخاطب القارئ بلغة يعرفها، ويتقدم إليه بقيم ثقافية وجمالية يألفها، ويحاوره حول معنى تاريخ جاء منه وينتسب إليه، ويظهر هذا كله أن ما يدعى بـ: تأصيل الرواية العربية يتحدد في لحظة الكتابة بقدر ما يتحدد في لحظة القراءة، ويتعلق بشكل الإنتاج الأدبي الذي يفضي إلى شكل من الاستهلاك الأدبي، فاستراتيجية الإرسال تفعل في استراتيجية الاستقبال وتنفعل بها.

وقد يظهر للبعض أن الغيطاني ينغلق في منظور منغلق، وأنه يستولد الرواية من تاريخ لا رواية فيه، وهذا الحكم لا معنى له، لأن الغيطاني لا يتابع رواية عربية سابقة ومزعومة، فكل جهده ترهين المخزون الثقافي العربي في كتابة حديثة، ووعي التاريخ مبتدأ الحداثة وخبرها. ولهذا السبب لا مكان لصفة «السلفية الأدبية» في التعامل مع رواية الزيني بركات، فهي رواية تسعى إلى ترميم الثقافة الأدبية العربية، وإلى تجاوز الانقطاع الثقافي - الأدبي بين الحاضر والماضي، والذي يجعل الرواية العربية، أحيانًا، جنسًا أدبيًّا استشراقيًّا، تكتبه نخبة كاتبة لنخبة قارئة. بل إن عودة الغيطاني إلى التاريخ تسعفه في التعامل مع الكتابة الروائية كعلاقة ثقافية – اجتماعية شاملة، أو ممارسة ثقافية بين ممارسات ثقافية أخرى فهو يميز الموضوع والتكنيك واللغة، ويعرف أنه يتوجه إلى قارئ له تاريخ معقد الخصوصية.

يقرأ الغيطاني الماضي الثقافي العربي بوعي راهن، وينقل هذا الماضي من حال الصمت والعطالة إلى حال النطق والحركة، أي يجعل من ثقافة الماضي، بعد تحويلها، ثقافة حاضرة، وثقافة من أجل الحاضر. وهو بذلك يعيد ترتيب علاقات السلسلة الأدبية، وتكون الثقافة الأدبية العربية هي المقامة، الشعر، أدب الرحلات،... تصبح الرواية عنصرًا داخليًّا في هذه الثقافة، بل يمكن لهذه الرواية، الباحثة عن هويتها، أن تسمح بقراءة جديدة للعناصر الأدبية التي تكون تقليديًّا السلسلة الأدبية العربية، وربما تكون الإشارة إلى الواقع العربي، الذي عرف الاستعمار والتبعية، مدخلًا لرؤية جديدة لعمل الغيطاني.. ففي ركون صاحب الزيني بركات إلى شكل روائي عربي رفض عقلاني للآخر الأوروبي (رفض قائم على المعرفة) وتمسك بهوية وطنية - ثقافية مهددة، وتتعرض، بلا انقطاع إلى الغزو والاجتياح.

إن ربط الممارسة الأدبية، في شروط العسف والتبعية، بالمخزون الثقافي العربي، يؤصل الرواية ويجعلها جزءًا من الهوية الوطنية، ومرآة للذاكرة التاريخية التي لم يفتتها الوعي الاستشراقي، ومعنى هذا أن مسئولية الكاتب الوطني تستعلن في موقف سياسي وفي بحث جمالي ولغوي، إذ إن رفض الواقع المسيطر يستلزم رفض المعايير الأدبية والجمالية المسيطرة فيه، والمساهمة في البحث عن بديل سياسي وأدبي وجمالي. وما ركون الغيطاني إلى تاريخه إلا شوقًا إلى تحرر شامل - أقرب إلى الحلم - من آخر مستعمر، يفرض على العربي سياسته وتكنيكه الأدبي أيضًا.

يثير عمل الغيطاني سؤالًا، ليس بالضرورة، آخر الأسئلة، وهو: العمل الروائي كشكل من البحث المعرفي، يستدعي دراسة الموضوع الذي تقاربه الرواية، أو يستدعي تشريح الرواية وهي تقارب موضوعًا معينًا. ففي عمل الغيطاني يتجلى بلا خفاء الاجتهاد الطليق والبحث الصادق والتقاط التفاصيل الدقيقة، وتقصي العناصر الضرورية للعمل، من معرفة عصر معين بلباسه ولغته وأطعمته وشكل البناء فيه، وبمعرفة أشكال البشر فيه الذين يمر عليهم التاريخ ويتركون عليه بصمات قليلة. وربما يكون الشوق إلى إنتاج المعرفة مساويًا للشوق إلى توزيعها، لأن الرواية، كشكل معرفي، أداة إعلام وإيصال. والبحث عن شكل روائي جديد، في هذا المدار، بحث عن أداة موائمة تنشر القول الذي يطمح الروائي إلى نشره، وبحث عن أداة تجبر الواقع على أن يسفر عن وجهه ويتخفف من أقنعته المتعددة. وهذا البحث، مهما كانت آفاقه وأهدافه، هو بحث في الأدب أول؛ لأن الوقوف أمام شكل جديد نقد للأشكال الأدبية القائمة، لكأن الغيطاني لم يهاجر إلى أفق روائي آخر ومختلف إلا لأنه عرف الأشكال الأدبية القائمة ولم يرض عنها. فعاد إلى ما تقادم وأخذ من الأدب الشعبي سرادقه، وتأمل حضارة مجتمعه وهو يتأمل نصوصها القديمة والجديدة، كي يقدم لنا عملاً أدبيًا أصيلًا ومنظورًا جديدًا للعملية الأدبية. وفي كل هذا يكون الغيطاني، في روايته التي نقدمها، مرآة للأديب المبدع الذي يكتب من أجل تغيير الوجود.

فيصـــل درَّاج

لكلِّ أَوَّل آخر ولكلِّ بداية نهاية

رجب 922 هـ

أغسطس إلى سبتمبر 1517م (مقتطف «2» من مشاهدات الرحالة البندقي فياسكونتي جانتي الذي زار القاهرة أكثر من مرة في القرن السادس عشر الميلادي أثناء طوافه بالعالم.. تسجل هذه المشاهدات أحوال القاهرة.. خلال شهر أغسطس 1517 ميلادية، الموافق رجب 922هـ).

تضطرب أحوال الديار المصرية هذه الأيام، وجه القاهرة غريب عني، ليس ما عرفته في رحلاتي السابقة، أحاديث الناس تغيرت، أعرف لغة البلاد ولهجاتها، أرى وجه المدينة مريضًا يوشك على البكاء، امرأة مذعورة تخشى اغتصابها آخر الليل، حتى السماء نحيلة زرقاء، صفاؤها به كدر، مغطاة بضباب قادم من بلاد بعيدة، أذكر قرى الهند الصغيرة إذ يدركها الوباء، يثقل هواؤها بالرطوبة، الليلة، تنتظر البيوت أمرًا قد يأتي غدًا أو بعد غد، أصغي إلى وقع حوافر تصطدم بحجارة الطريق، تبعد، تتأى، أطل من مشربية البيت محاذرًا أن يراني أحد، أطل والظلام يلف البيوت، لا أرى مئذنة جامع السلطان الغوري الجديد، لم تمض سنوات على بنائه، لم أره عندما جئت هنا آخر مرة قبل رحيلي الطويل إلى الشرق، سمعت باستعدادات تجري لبنائه، تشييد القبة الضخمة المواجهة له، أطل برأسي قليلًا، أخاف انفتاق الظلام عن وجوه درك قساة القلوب، إذ يجدونني إفرنجيًّا، يدفعون بي إلى الموت بلا محاكمة، لا استجواب، لا سؤال، من أنا، من أين جئت!! لن تتاح الفرصة لأخبرهم، لأقنعهم، إننى أعرف الوالي الأمير «كرتباي» معرفة شخصية، بل إنني أصغيت مرتين إلى متولي حسبة القاهرة، الزيني بركات بن موسى، إنه صاحب مناصب عديدة أيضًا، ومسئول عن حفظ الأمن والنظام، لو رآني فسيتذكرني، أعرف أنه لا ينسى وجهًا عابرًا رآه مرة واحدة، حتى لو مضى على رؤيته لصاحبه عشرة أعوام، على أية حال سأبقي الليلة، بالتأكيد لن أنجو من العسس، المنسر، المماليك، بيوت المدينة كلها مغلقة، مرعوشة تود لو توارت، تفيء إلى الأمان المرجو، شموع بيتي مطفأة، أخشى تراقص الضوء في أحداق العيون المتلصصة، قبيل العصر مشيت من الحسينية، في صدري نفس الحنين الذي يجيئني كلما نزلت بلدًا، كلما عدت إلى مدينة زرتها من قبل، أقضي أيامًا قبل اتصالي بمعارفي من أهلها، أجوبها من أعلى إلى أسفل، أسعى وراء أخبار من أعرفهم، أرثي الذين ذهبوا. أرى اليوم الذي فارق فيه الواحد منهم دنيانا، أسأل نفسي، أين كنت عندئذ؟؟ في أي مدينة؟؟ ألقى البعض صدفة، أفتح ذراعي على عادة أهل البلاد، أقبل كتفه ويقبل كتفي، أتراجع لأتأمله، أعود لأحتضنه من جديد، أذكر أنه لم يتغير إن كان متقدمًا في السن، إن الصحة تطل من عينيه، يغمغم بحمد الله ويشكره يحلف أيمانًا مغلظة ليصحبني إلى داره فأمضي، نجلس في غرفة الضيافة، تفتح نوافذها المزخرفة على حديقة صغيرة بها ريحان وفل، تتوسطها نافورة صغيرة، أرضيتها مرصعة بالرخام الملون الجميل، لا تطلق النافورة مياهها إلا عند مجيء ضيف، لكن اليوم طال تجوالي، لم ألق واحدًا من أصحابي القدامى، ربما تغيروا، سمعت من العامة أن كثيرًا من أعيان الناس والمشايخ، نقلوا الثمين الغالي من ثيابهم وحوائجهم إلى الأماكن البعيدة المجهولة، رحَّلوا عيالهم من الأرياف، هجروا بيوتهم وسكنوا المزارات وفساقي الموتى، سمعت بكثرة الإشاعات، كل إنسان يقول ما يحلو له، أي شخص يدخل فيما يعنيه وما لا يعنيه، وطالب البعض بضرورة تدخل الأمير طومانباي نائب الغيبة لإسكات الألسنة، قال البعض هذا مستحيل؛ فانقطاع الأخبار معناه أن حدثًا فظيعًا لا نجرؤ على التفكير فيه وقع، صاح البعض، وهل يقع فعلًا ما لا نجرؤ على الظن به؟ لا يمكن، جيش السلطان من فرسان الإسلام وحماته، كل فارس منهم مقوَّم بألف من العثمانلية وكما

غلبهم الأشرف قايتباي؛ فلا بد من هزيمتهم على يد الغوري، يقول آخر، إذا صح هذا فلماذا لم تصل رائحة من الأخبار المفرحة، لم تدق البشائر، ولا الطبلخاناه، كيف نصدق أن شيئًا لم يقع، لم يحدث، حتى الأمور هنا مضطربة، في المقهى عدل رجل وضع عمامته، سأل، هل رأى أحدكم الزيني بركات بن موسى منذ أول أمس؟ نزل صمت معبق بحذر، أسندت وعاء الفخار الساخن، لم أشرب إلا رشفة من الحلبة، ما الذي جرى للزيني بركات بن موسى؟ إذا لم يجر، فأي إشاعات تتردد حوله؟ نظر إلي صاحب السؤال، خمنت أنه ربما يعمل في خدم جامع، يتاجر في الكتب القديمة، ربما طالب يدرس العلم في الأزهر، لهجته، أسلوبه، يوحيان بمهنة من هذه، كلما رأيت رجلًا لا أعرفه، سألت نفسي، أي مهنة يعمل؟؟ في أي مكان أقام؟ الصين، الهند، أو صحارى الحجاز، طال سكوته، قال أحد الحضور، فعلًا لم نره منذ ثلاثة أيام، قال آخر... بل خمسة، كل منهم يقطب جبهته، يحاول التذكر، حتى أنا قلت لنفسي، فعلًا لم أر الزيني خلال الأيام التي قضيتها هنا، الزيني يراه أهل القاهرة يوميًّا، ولو مرة واحدة، تدق الطبلخاناه أمامه، يمشي السعاة في ركابه، الزيني دائم التفتيش على أسعار البضائع، يتعقب أوكار الفساد، مشي الناس في الطرقات، له قواعد لا بد من مراعاتها، الالتزام بها، أحيانًا يمنع النساء من ارتداء أزياء معينة، ربما منعهن من الخروج إلى الطرقات لتزايد عبث المماليك في بعض الفترات، آخر زياراتي لمصر، رأيت الزيني بركات قويًّا عفيًّا، لا أدري كيف صارت به الحال؟ ثلاث سنوات تغير الإنسان حقًّا، رأيت الزيني ينزل بنفسه، يناقش باعة الحلوى، والأجبان، والبيض، يقف وقتًا طويلًا مع الفلاحات بائعات الدجاج والإوز والأرانب والبط، يسعر الأصناف بنفسه، يجرس المخالفين في المدينة، أعرف رضاء الناس عنه، حبهم له، أذكر ما كتبت عنه بعد لقائي الأول به، رأيت رجالًا كثيرين، بربرًا وهنودًا وإيطاليين وحكامًا من بلاد الغال والحبشة وأقصى شمال الدنيا، لكنني لم أر مثل بريق عينيه. لمعانهما، خلال الحديث تضيقان، حدقتي قط في سواد ليلي، عيناه خلقتا لتنفذا في ضباب البلاد الشمالية، في ظلامها، عبر صمتها المطبق، لا يرى الوجه والملامح، إنما ينفذ إلى قاع الجمجمة، إلى ضلوع الصدر، يكشف المخبأ من الآمال، حقيقة المشاعر، في ملامحه ذكاء براق، إغماضة عينيه فيها رقة وطيبة تدني الروح منه، في نفس الوقت تبعث الرهبة، سألني عن بلاد رحلت إليها، كيف أقمت فيها؟؟ كيف تعاملت مع أهلها؟؟ حرية النساء في بلاد الفرنجة؟؟ استفسر عن العدل في الرعية، وطرق البريد في الهند، وذكر أسماء مشايخ في جدة ومكة، وأعيان من دمشق، قلت إنني لم أذهب إلى جدة لكنني زرت مكة، وأقمت في دمشق، كتب لي أسماء وعدته بالسؤال عن أصحابها، وقتها سمعت حادثة طريفة فصل فيها الزيني بنفسه، حدث أن أرسلت جارية رومية بيضاء إليه تستغيث به، قيل إنها لم تتجاوز الخامسة عشرة، اشتراها من سوق الجواري رجل كبير السن، يعمل في استقطار ماء الورد، ضخم الجثة، نهم، كثير الأكل، كثير النكاح، ومنذ شرائه الجارية الرومية البكر الحسناء، تفرغ لها تمامًا، هجر معمله، لم يعد يخرج من بيته، لا يمضي إلى الصلاة، بل يأتيها كابن العشرين في أوقات متعددة ومختلفة من النهار ومن الليل، حتي زعموا - وأظنه تشنيع من العامة - أن صواتها يعلو خارج البيت، فيسمعه المارة بوضوح، يبدأ حادًّا، يسمع

جري أقدام، يسود صمت لا يستمر كثيرًا حتى يعود بعد قليل من جديد، شهد الجيران بهذا ورقّوا لها، تساءلوا فيما بينهم متى تنام البنت إذ إن صوتها لا يهدأ ليلًا ولا نهارًا، قالها الرجال بحسد، لم ترتفع عيونهم عن باب البيت الذي لم يفتح أسبوعًا كاملًا، وصار الشبان يرقبون المشربيات، وإذ تعلو صرخات البنت، يتضاحكون ويتغامزون، ويشد بعضهم شعر بعض، وقال سقَّاء يحمل الماء إلى البيت - استدعاه الزيني إلى الشهادة - إنه سمع بأذنيه صراخ الجارية في الحرملك، قال إنه رآها مرة تطل من نافذة المشربية المطلة على فناء البيت الداخلي، منفوشة الشعر، خرج يهز رأسه متعجبًا مما رأى، المهم أنها عندما استغاثت بالزيني بركات، أرسلت له خادمًا صغيرًا، قام الزيني لفوره، شاور العلماء في الأمر، تباحث معهم، وأفتى شيخهم بصحة ما ينوي الزيني القيام به، هنا توجه الزيني إلى بيت الرجل - اسمه العطار فيما أذكر - كبس البيت، هاج الرجل وصار يزعق غاضبًا، ما للمحتسب وما للناس في بيوتهم، قبض عليه الزيني: أمر ببطحه أرضًا، كشفوه فقيل إنهم روعوا لمنظره، وأقسم شيخ الحنفي أنه لم ير شيئًا كهذا في حياته من قبل، قال الزيني: البنت تصغرك بأربعين سنة، أليس حرامًا أن تؤذيها... وبهذا أيضًا؟ ضربه خمسين عصا، ثم أمره بإعتاقها، وفعلًا أعتقها الرجل مرغمًا، لكنه لم ينس ما فعله الزيني به، أصيب بحسرة كبيرة على فراقة البنت، بدأ يظهر في الحارات زائغ العينين، ممزق الثياب، ريقه يسيل، يبحث عن شيء مجهول ضائع، لا يذكرها باسمها، إنما ينادي شيئًا يرفض الإفصاح عنه، كلما ظهر في مكان صاح عليه العامة، ضربوه على موضع عورته، ضحكوا وسخروا منه، بينما تدور عيناه، تبحثان عن الأمر العزيز المفتقد، وسمعت ممن أثق به، أن الشيخ العطار هذا لم يقرب امرأة في حياته قبل البنت، لم يتزوج، طوال حياته، يعول أمه وأخواته، وعندما تزوجت صغرى شقيقاته أصبح وحيدًا، بدأ يقتصد ثمن هذه الجارية لمدة أعوام عديدة، جارية معينة رسم صورتها وهيئتها في ذهنه بعناية، بيضاء كطبق الفضة، نهداها كرتان من الملبن، لهما ملمس الحرير، حلم بها سنوات حتى عثر عليها، لم تطل فرحته بها، أخذوها منه، انتزعوها انتزاعًا، فيا فرحة ما تمت كما يقول عامة مصر، اختلف الناس حول تصرف الزيني بركات، أكد جمع منهم صحة ما قام به، خاصة أن البنت أرسلت تستغيث به لاقترابها من الهلاك، ورأى فريق آخر، أنه تدخل في أخص أمور الناس، وأن أحدًا من الخلق لا يأمن على بيته، أو عياله بعد الآن، خاصة بعد تردد إشاعة كبيرة تنفي استغاثة البنت بالزيني بركات، إنما استطاع الزيني معرفة الأمر بفضل طرق عجيبة تمكنه من الاطلاع على أدق ما يجرى في البيوت والزوايا، قيل أيضًا إن العطار مظلوم وليس عنيفًا، وتساءل الرجال هل توجد امرأة تكره هيئة رجل كهيئة العطار، البنت فعلًا لعوب وكرهته، استغاثت بالزيني بركات لتهرب منه لسبب خفي عندها، وبقي شعور خفي بالرهبة في أعماق الناس، تعجبوا لمهارة المحتسب، قدرته على النفاذ إلى أدق الأمور التي تخص البيوت، وهذا ما لم يتفق لغيره قط، قيل بوجود فرقة خاصة من أشداء البصاصين تتبعه شخصيًّا، لا يعرف من رجالها مخلوق، أين يعيشون، كيف يعملون، هذا أمر خفي لا يدري به إنسان، وهذه لا علاقة بفرقة بصاصي السلطنة التي يرأسها رجل عتي معروف، المهم، سمعت حادثة العطار بعد وقوعها بسنة، رأيته بعيني وهو يلف الحواري،

يقف بين الحين والحين، يزعق في الفراغ منهالًا بالسباب والشتائم على شخص لا يذكر اسمه أبدًا، وقيل إنه يصنع تماثيل صغيرة من الورق يحرقها يوميًّا قبل نومه، ويتلو عليها تعاويذ خاصة، وظل على حاله حتى كان من أمره ما كان، وما سنذكره في حينه، أعود إلى الرجال في دكان الشاي، تساءلوا فعلًا عن السر في اختفاء الزيني، تعجب كل منهم كيف فاته الأمر، اختفاء الزيني حدث غير عادي، إنها الأيام المضطربة التي ينسى فيها الإنسان نفسه، ألم يذكر أحد المشايخ الصالحين في خطبة الجمعة الماضية؟ آن أوان الريح التي تهب قبل القيامة ستكنس كل شيء، ريح يرسلها الله عز وجل، يمانية ألين من الحرير وأطيب من نفحة المسك فلا تدع أحدًا في قلبه مثقال ذرة من الإيمان بوجود الخالق، أو الحق أو العدل، تبعد الأب عن بنيه، والأخ عن أخيه، ويبقى الناس مائة عام لا يعرفون دينًا أو ديانة، وهم شرار خلق الله، وعلى هؤلاء تقوم الساعة، تباكى الرجال في المسجد، وصار كل منهم يعانق صاحبه، وعندما خرج البعض إلى الخلاء، خيل إليهم أنهم يشمون رائحة طيبة، فيها نفحة المسك، جهروا وأعلنوا، زمن الهلاك آتٍ لا ريب فيه، فزعوا وهلعوا، وهكذا، فمثل هذه الأيام، ينسى فيها المرء أمورًا جسامًا لا يتكرر حدوثها، كأن يمضي يوم بأكمله، لا يظهر الزيني بركات ابن موسى في طرقات القاهرة، ولا ينتبه أحد، قال الطالب الأزهري – كما ظننت - أعرف أن الزيني اختفى في مكان لا يعلمه إلا القلائل جدًّا...

سكت ليوحي، أو يبدو واحدًا من هؤلاء القلة. قال الحضور:

- أين يا سعيد؟

- إنه يرسل الأتباع إلى بلاد مصر يستنفر مشايخ العربان لإرسال رجالهم إلى القاهرة..

اتسعت آذانهم، رأيت الزيني بعيني عقلي، يجلس في مكان خفي، تنبئه الأيام بأحداث جسام، نواب يدخلون ويخرجون، يرسلهم إلى شتى البلاد، والمعاقل البعيدة للعربان في الصحراء.

تساءل أحدهم:

- كيف تبقى البلاد بلا محتسب والدنيا في حرب؟؟

- عندما كان الزيني يسافر لمدة أسبوع، بمجرد أن يخطو خارج القاهرة ترتفع الأسعار، يفعل كل إنسان ما يحلو له، فما بالك وقد اختفى الآن؟

قال سعيد:

- أبدًا.. عين الزيني ترقب الناس كلهم رغم ابتعاده.. ولا تنسوا الشهاب زكريا..

صمتوا، في العيون رجاء أخرس، خوف موغل في الأعماق، في الطريق على مهل أليم مضى طابور من سجناء الفلاحين مربوطين من أعناقهم بسلاسل حديدية، يبدو أنهم متجهون إلى سجن من السجون، أخرج طفل لسانه مرات عديدة، دق طبل بعيد، ربما يغادر الفلاحون عالمنا بعد قليل، مشيت قربهم، عيونهم زائغة، يتمنون

لو احتووا كل ما يمر بهم، نفس ما رأيته في طنجة، طابور رجال يعبرون أسوار المدينة البيضاء مشدودين إلى بعضهم البعض برباط الهلاك الأبدي، في العيون نفس النظرة، هذا الرجل المسوق إلى الإعدام في تلك الجزيرة الصغيرة بالمحيط الهندي، يرجو من الناس إعادة النظر في أمره، أن يلحقه طائر رخ فيطير به، العينان تقولان المعنى نفسه، أن يعلم الإنسان أنه بعد خطوات، بعد مسافة زمنية معينة، لن يفتح عينيه أبدًا، تضيع منه المعالم والأشياء ربما أموت بعد لحظة، أجهل هذا، لكن أن أعرف تمامًا، أعلم بمفارقتي الدنيا في لحظة معينة، هذا ما يطبع الوجوه بنفس ما رأيته، نظرة الخروج إلى عالم آخر نجهله، ما من منقذ، ما من مُنْجٍ ما من معجزة مأمولة، أرى الرجال الماضين إلى الموت، أذكر خروجي من بلد إلى بلد، رحيلي الدائم، أذكر من سبقوني، رجال خرجوا من البندقية، مبتدئين رحلة ربما امتدت ثلاثين عامًا، ربما مات الإنسان في بلد تبعد آلاف الفراسخ، مشيت وفي نفسي خوف، كل ما أراه يجسد رعبًا، القاهرة مسوقة إلى مصير لا يفصح عن نفسه، القاهرة منفية عن بيتها، مشيت حذرًا، بالأمس نزل المماليك من القلعة، توجهوا إلى خان الخليلي وكادوا يحرقونه عن آخره، ضبطوا تاجرًا روميًّا - ورومي تعني التركي العثمانلى - يجمع الأخبار، يراسل ابن عثمان بأحوال الخلق، عندما أمسكوه كاد العامة يمزقونه، غير أن بعض البصاصين التابعين لزكريا بن راضي كبيرهم ونائب الزيني تحفظوا عليه، وأبقوا على روحه حتى يتم استجوابه ويظهر زملاؤه الآخرون، وسمعت من يقول بإعدام الوالي كرتباي في جب القلعة سرًّا، ولم يتأيد هذا، وأرتج الناس عندما سرت أقاويل بوصول رسول إلى القاهرة قادم من الشام، جاء عبر دروب التيه في الصحراء، طلع إلى القلعة واجتمع بنائب الغيبة، ونقل إليه أخبارًا مفزعة، مؤداها أن جيش السلطان هزم في مكان قرب حلب، ولم تعرف التفاصيل، يقولون: أمتع اللحظات التي يذكرها الرحالة فيما بعد، لحظات تتغير فيها الأمور والأحوال، معاينة وقوع الأحداث الكبيرة، رصد آثارها على الوجوه والبيوت والمدن، أقول بعد سنوات، بعد مشاهدتي بداية حرب، وقوع طاعون، شهدت بعيني ما جرى، ما حدث، عند الغروب تابعت الطريق، أيدٍ ضخمة خفية تسحب الناس وتلقيهم داخل البيوت، أشم هواء لم أعرفه إلا في «حيدر اباد» بالهند عندما فاجأها وباء عفيّ أفنى وأهلك، بقيت محاصرًا بطاعون جلف سنة كاملة، أولد في كل يوم مرات عدة، أرى القاهرة الآن رجلًا معصوب العينين، مطروحًا فوق ظهره، ينتظر قدرًا خفيًّا، أشعر بأنفاس الرجال داخل البيوت، تتقارب رءوسهم الآن، يتهامسون الآن، يتهامسون بما سمعوه من أخبار، النداءات مجهولة، الوقت يمضي ولا يمضي، لا يمكنني الطلوع إلى الطابق الأعلى لأرقب مواضع النجوم، ربما يقترب الفجر، غير أنني حتى الآن لم أسمع ديكًا واحدًا يصيح.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

# السرادق الأول

مـــا جـــرى لعلـــي بـــن أبـــي الجـــود وبداية ظهور الزيني بركات بن موسى

(شوال 912هـ)

أول النـــهـــار:

وفيه تغرق البيوت في نعاس طري، تتأخر الشمس في الوصول إلى حواري الحسينية، الباطنية، الجمالية، والعطوف، بينما ترى واضحة من فوق أسوار وأبراج قلعة الجبل، جماعة المماليك التي تخترق شارع حدرة البقرة لم يخرجوا من القلعة، خرجوا من بيت الأمير قاني باي الرماح أمير الخيل السلطانية، عبروا الخليج، نزلوا على مهل إلى باب اللوق، أشرعوا سيوفهم في وجه النهار المقبل، السقاءون الذين قابلوهم قرب باب اللوق، أول من يستيقظ في المدينة، يحملون الماء من النيل إلى البيوت، يجهلون مقصد الفرسان، تنثر حوافر خيولهم دوامات ترابية صغيرة، تسرع خطوات الجمال متثاقلة بقرب المياه البنية اللون، يخفت همس السائقين، يبقى في أذهانهم انطباع خفيف كأثر ضربة المجداف في مياه ترعة هادئة، ينسل المماليك أول النهار، تبدو البيوت، أيام ما بعد عيد الفطر، دائمًا يركب الخمول هذه الأيام التي تعقب الأعياد.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

علي بن أبي الجود، لا يصحو إلا بعد مضي ثلاث ساعات من النهار، دائمًا ينام متأخرًا، بعد عودته كل ليلة من القلعة، يجيء نوابه، يراجع معهم ما تم من أعمال خلال اليوم المنقضي، قرب الفجر يصرفهم، يخلو إلى نفسه مقدار ساعة، ثم يمضي إلى إحدى زوجاته الأربع، أو جواريه السبع والستين، منذ شهر اكتمل عددهن سبعًا وستين، بعد مجيء واحدة حبشية، وأخرى رومية، علي بن أبي الجود لا يخطئ طريقه إلى من اختارها لقضاء ليلته، يخطرها قبل مجيئه بساعات وعندما يدخل إليها ينفذ إلى أنفه عطر، رائحة ثياب ممتزجة بعبير أنثى، كل درجة يعلوها فوق السلالم القصيرة، التي تنتهي بها هذه الطرقات فجأة تبعده شيئًا فشيئًا عن ضجيج النهار الراحل، ما استمع إليه، ما أضافه إلى سجلاته ودفاتره، ما بلغه من شائعات، أحاديث تتردد عنه هو بالذات، ما يردده الأمراء والعوام على السواء، الليلة عندما دخل إلى حجرة «سالمة» امرأته الثالثة، بدأت تخلع عنه ثيابه، عباءة زركش سوداء حفت بالقصب والذهب، عمامته الصفراء الكبيرة الملتفة بشاش لونه أبيض، مثلها لا يرتديها إلا الأمراء مقدمو الألوف، سمح لعلي بن أبي الجود بارتدائها منذ سنة، ينحني بها أمام السلطان، يجالس الأعيان، يشق بها في المواكب ومعروف «لم تخلق العمائم الكبار لأي إنسان» لا يجرؤ أي شخص على لبسها في حضرة من له المقام ورفعة الشأن، منظر العمامة فوق رأسه يوغر قلوب الحساد، يوقظ النميمة، يحرك الدسيسة، علي بن أبي الجود لا يبالي، يتعمد التجول بها، وتحسسها، وإبرازها،

وإمالتها إلى الخلف، وإلى قدام، بالذات في أوقات حديثه إلى الأمراء الكبار، حذره بعض الأصحاب، ألا يزهو أو يختال بعمامته في حضرتهم، لكنه لا يعنيه أمرهم، يحرص جدًّا على معرفة كلامهم عنه، تعليقاتهم عليه، وإذا ما وجد فيها ما يستحق نقله إلى السلطان طلع لفوره إلى القلعة، يضيف ويبدل في الكلام، بحيث يغير خاطر السلطان على قائله، ولا يخفي ما فعل، بل يتجاهر به، يفيض في الحديث، كيف أصغى السلطان إليه، كيف ربت كتفه وعطف عليه، الليلة فيما يبدو أخطأ نواب علي بن أبي الجود، لم يذكروا له وقوع أي حدث غير عادي، فيما بعد، زعم البعض أنهم عرفوا ما دار، بالذات في بيت الأمير قاني باي أمير الخيل السلطانية، ولمح العامة، بل أوضحوا وصرحوا إلى زكريا بن راضي أحد نواب علي بن أبي الجود، وكبير بصاصي السلطنة، أنه لم ينقل ما يعلمه إلى علي بن أبي الجود، هذا ما جعله ينام راضيًا ملتصقًا بزوجته الثالثة سالمة، سالمة أيقظتها حركة غير معهودة، أقدام تسرع، أبواب تفتح، صيحات بعض الحريم الخافتة، الأصوات تصل إلى هنا متسلخة، غير واضحة، تختلط وتضيع معالمها، ساقية ترفع مياهًا، تدور وتصر أخشابها القديمة، أمطار تلمس أرضًا جافة، قارب يتأرجح، حوافر تعدو، تعدو، ماذا يجري بالضبط، إيقاظه قبل الأوان صعب، «سيدي علي» «سيدي علي» يتقلب، أوانٍ تسقط، يصرخ طفل، تسقط كتلة خشب، تتسابق دقات قلبها، تصغي، وقع أمر، ما هو؟؟ لا تدري فجأة، يتدفق دمها مذعورًا في عروق أرجفها رعب، لم تشعر باستيقاظه المفاجيء، - إصغائه - جفاف ريقه، أما الباب فدفعته قدم محاطة بحذاء فرسان المماليك الجلدي الأسود، الذي يغطي قصبة الساق ويلم السروال.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

من بوابة الأمير قاني باي الرماح أمير الخيل السلطانية، خرج منادٍ غليظ الصوت، يعرفه الناس، في اللحظة نفسها خرج منادٍ آخر من بيته القريب من قصر الأمير قوصون الدوادار، قرب حارة بيرجوان، يتجه إلى العطوف، إلى الحسينية، إلى حارة الروم الجوانية، هواء خفيف عذب يحمل إلى الآذان دقات طبل وأصوات منادين آخرين، نداءات توقظ النيام، تفك تلامس الجفون، عمال الحمامات يخرجون، عمال المستوقدات المجاورة، باعة لبن، باعة فول. يتوقفون، تصغي الآذان، النساء يصحن مناديات بعضهن البعض، بائعة بليلة تزعق في حارة الميضة التي فتحت بوابتها منذ قليل، فجأة لا تنادي المرأة على البليلة، إنما تنقل الخبر بصوتها المرتفع، الرءوس تطل من الأبواب الصغيرة في الحجرات الصغيرة داخل الربوع الضخمة، أطفال صغار، أطراف جلابيبهم بين أسنانهم، يسرعون إلى أين بالضبط؟ لا أحد يدري، تلوَّت زغرودة في الهواء أطلقتها امرأة من إحدى الطيقان المرتفعة جدًّا، جاوبتها أخرى، ثم زغاريد، نساء حافيات خرجن من العطوف، الجودرية، السكرية، يحملن أطفالهن فوق أكتافهن، يصفقن، يواجهن النهار الجديد بفرحة وليدة.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

## سعيد الجهيني:

من داخل رواق الصعايدة في جامع الأزهر يصغي سعيد الجهيني إلى ضجة الخلق، نافذة الرواق العلوية تطل على مدخل الباطنية، تتدافع الأصوات إليه، أخيرًا... أمسكوا علي بن أبي الجود، رسموا عليه، بالأمس قبيل المغيب رأت الجموع موكبه، هل جرؤ واحد على الظن وقتها أن نفس الطرقات ستشهده مشهرًا مجرسًا فوق حمار أزعر، لا ذيل له، الناس تسد الشارع كالجراد المنتشر، في القلوب غل رأى الفرصة فانفجر، سعيد يراه الآن بعيني عقله، ها هو يمتطي حصانًا عليه كنبوش مذهب، يمر أمام بيوت المشايخ أو الأمراء، تتقدمه طبول قوية تفوق في ضجتها طبلخاناه تدق أمام أى أمير. ها هو يمشي في الطرقات مترجلًا، يحفه حرسه الأشداء، عندما أقنع السلطان بفرض ضريبة على الملح، ألحق الضرر بالمسلمين، ملح الطعام عز وجوده. علي بن أبي الجود يمشي لا يجرؤ إنسان على رفع عينيه في وجهه، عمامته تذهل الأبصار، لم تمض ساعات، ها هو يركب حمارًا بالمقلوب مبهدل آخر بهدلة، يلطمه الصغير والكبير، النساء يبصقن عليه، الرواق خال تمامًا، كلهم خرجوا، في الهواء رائحة رطوبة، وخبز جاف مكوم في أركان الحجرة المستطيلة الطويلة قاتمة الجدران، أدخل قدميه في النعل القديم، لا بد من طلوعه إلى مولاه الشيخ «أبو السعود»، يمضي إليه في كوم الجارح، يتبادل معه الحديث، يصغي إلى رأيه فيما جرى وما حدث، صحن الجامع الكبير يشغي بالمجاورين وطلبة العلم، فعلًا، لا بد من مضيه إلى مولاه «أبو السعود»، لكنه الآن يجلس بجوار العمود الرخامي الكبير القريب من باب زاوية العميان، يمس الأرض الصلبة بعود قش، سعيد يرقب ما تجيء به الأيام بحذر، لا يخفي أبدًا فرحته بزوال هذا الظل الثقيل، لكن ماذا تأتي به الأيام؟؟ بل ماذا يخبئ اليوم نفسه؟ ربما انتهى الأمر بفتنة بين الأمراء تروح فيها رقاب، تسيل دماء أبرياء لا حول لهم ولا شأن، تغلق أبواب وطيقان، تشعل حرائق في البيوت، تهدم مساجد وزوايا، من يدري؟ ربما جاء من هو أعتى وأقسى؟ هنا ضرب سعيد عود القش فانقصم، نفض يديه، عزل علي بن أبي الجود فيه رحمة بالعباد، ضج الناس وهاجوا، سعيد يسمع الآن ما قاله أحد المجاورين هنا منذ ثلاثة أشهر، مال عليه عمرو بن العدوي، أخبره بما يضمره، ضاق بما يأتيه علي ابن أبي الجود في حق الخلق، المظالم المستجدة في كل يوم، عمرو يعلم تمامًا ما يفعله الظالم، يخلو إلى نفسه ساعتين في كل ليلة، يفكر في طرق جديدة للمظالم، يختلق فنونًا جديدة لتعذيب ضحاياه، بل قيل بين الناس أنه أوصى زكريا بن راضي عليه سخط الله وغضبه بالبحث عن طرق جديدة، لإنطاق الضحايا والمساجين، أساليب لا يحلم بها إنسان، قال عمرو إنه قبض على امرأة حامل، فقيرة لا ظهر لها، ضربها بين يديه بالمقارع، أحرق أطرافها بالقطران حتى رمت ما في رحمها ولدًا ذكرًا في ستة أشهر، لم يكتف علي بن أبي الجود بهذا بل شنقها عند باب زويلة، لماذا، هل تدري يا سعيد لماذا؟ لأن رجال زكريا ضبطوها تبيع قفة بها ثمار العجور، وكما تعلم فهو يحتكر بيع العجور، مال عمرو هامسًا: «نويت قتله»، ارتجف سعيد، نظر في عتمة المغيب إلى عيني صاحبه البراقتين، جف ريقه، أطرق وعاود النظر إلى صاحبه، كرر عمرو «سأقتله لأريح الخلق منه» في تلك الليلة عينها بصق الشيخ أبوالسعود ومضمض فمه بماء عذب، أصغى

سعيد إلى صمت وديع يترقرق كماء الورد في أنحاء الزاوية، حمد الشيخ ربه لإصغاء سعيد إلى عمرو بن العدوي صامتًا.

«هل أتجنبه يا مولانا؟»

«لا، لم أقصد هذا، إنما الحذر واجب، من يريد قتل إنسان كعلي بن أبي الجود لا يعلن نيته..».

في الرواق راح سعيد يرقب صاحبه، ساعة الدرس ينظر إليه خلسة، يحاول العثور في تصرفاته على ما يؤكد تلميحات الشيخ «أبو السعود»، إذ يتحدث إليه، ينتقي ألفاظه لا يتطرق إلى نقد أمير أو كبير، يراه سعيد متجهًا إلى البيت القائم قرب المقطم، يخلو إلى زكريا بن راضي، لا، ليس زكريا نفسه، إنما أحد نوابه، طالب علم فقير مثله لا يجالس زكريا الذي ترتعد لذكره النفوس، عمرو ينقل ما قيل، تجيء الأيام التالية برجال غرباء، يسألون خفية عن سعيد، يتبعه بعض المستصنعين لزكريا، يجهلهم لكنهم يعرفونه، يرصدون خطوات قدميه، الحارات التي يطؤها، ضحكاته، لحظات شقائه الخفي، فرحه وبهجته، في لحظة معينة، لحظة يجيئون فيها كمصيبة، رعد أول الشتاء يفاجئ أهل مدينة آمنة، يمد أحدهم يده، يلمس كتفه، يلفظ لفظًا واحدًا، يساق إلى سجن زكريا بن راضي، ينوعون له العذاب تنويعًا، يلقونه في سجن كبير، العرقانة، الجب، المقشرة، تنسل أيامه، ينسى خبره، يفنى ذكره، يضيع أثره، سعيد يبدو مهمومًا يسمع بشنق عبد، قطع يد سارق، إشهار امرأة ضبطت تسرق رغيفًا، تقطع يدها اليسرى، أو اليمنى إذا وجدوا اليسرى مقطوعة من قبل، يضطرب قلبه كفرخ صغير ابتل ريشه، لماذا يحدث هذا كله، لماذا؟؟ تعلو الأسئلة وتنزل كعصا نقرزان، حلقات غليظة في سلسلة حديدية ساخنة تلهب منه العصب، تسل النخاع، تجفف ماء الحياة يود لو يزعق من فوق مئذنة الأشرف قايتباي بالأزهر، يوقظ بيوت العامة الفقراء، منازل الأمراء، توخز عينيه أسوار قلعة الجبل، يرفع يديه، يطلق آذانًا طويلًا لا رجعة فيه، يسب كل ظالم أثيم، يرى بعينيه زكريا بن راضي مخوزقًا بجوار باب الوزير، سعيد لا يود أن يمضي بين الناس إلا زاعقًا، راجفًا محذرًا من أمور تأتي، في كوم الجارح يهدئه الشيخ «أبو السعود»، الصالح، الطيب المنجب، النجيب، العارف بالأصول والفروع، دار ولف الدنيا، أقام زمنًا بالحجاز واليمن، عرف لغة الهند، ولهجة الأحباش، عالج أمور المسلمين في فارس، وناقش علماء الأناضول، رأى بعينه مياه المحيط الأعظم عند حدود الدنيا الغربية، يصغي سعيد إليه، تغيب عنه لحظة دائمًا يتوهمها، لحظة يضع فيها أحد المستصنعين البصاصين يده فوق كتفه، يضحك كاشفًا صفين من أسنان صفراء.

«تسمح معانا»

الآن، علي بن أبي الجود نفسه مشكوك في الحديد، لتعرف البهجة طريقها إليه، بعد ذهابه إلى مولاه سيمضي إلى الشيخ ريحان، يبادله الحديث، حتمًا سيقول الشيخ ريحان، إنه علم الخبر قبل أيام، ربما تمادى ومال على أذنه هامسًا: قوصون وقاني باي لم يتحركا إلا بعد استشارته، سعيد سيداري ابتسامة، وينتظر، ربما تبدو سماح

ابنة الشيخ ريحان، عسى أن يسمع ضحكتها، حفيف ثوبها، ربما تدخل على أبيها فتداري وجهها، لكن الشيخ ريحان يدعوها، سعيد ليس غريبًا، وهو ابن جهينة، ولو تأخر ميلاده سنوات لأمضينا وقتًا في اللهو، في اللعب، ربما أسعده الحظ بقدر معقول، يشم رائحة طعام هي طاهيته، يأكل منه، يرتعش قلبه، ترفرف روحه، يعود إلى الرواق، يخلو إلى نفسه طوال الليل، يقتات اللحظة، يعيشها ألف مرة. الآن تثور ضجة بين المجاورين، يؤكد أحدهم استحالة مجيء إنسان يشغل وظائف علي ابن أبي الجود كلها، وكالة بيت المال، التحدث عن جهات الشرقية، ثم الحسبة وهي أجل وظائفه، إلى جانب مهمته الأصلية التي لم يعد يمارسها تقريبًا في أعوامه الأخيرة، بمقدار بشمقدار السلطان، كان يحمل نعل السلطان في أوقات الصلاة، وظيفة ليست غريبة عليه، من قبل عمل بشمقدارًا صغيرًا للأمير طومانباي، وعندما علا نجمه وبرق، سطع فأله، وبلغ سعده، تبرأ من البشمقدارية مع أنها الأصل.

«من إذن؟؟»

الأسماء كثيرة.. لكنها لن تخرج عمن نعرفهم... الأمير ملماي.. طغلق.. ططق.. قشتمر..

«آه.. عد غنماتك يا جحا..»

«لكن.. مستحيل أن يشغل أمير واحد كل الوظائف..»

«من مدة والتدبير عمال لإزالة علي.. فهل يطرده السلطان ليأتي آخر يستبد بالأمر كله؟؟«

من إذن.. من القادم؟؟

كل يحاول النفاذ إلى ما يجيء به الغيب، تدبر أمور، في القلعة يدور همس فوق الحشايا، في الحجرات المغلقة داخل بيوت الأمراء، والقضاة، علي ابن أبي الجود ينتظر مكبلًا في قبو مظلم نتن الرائحة، يرى أيامه وهمًا، حلمًا ضاع، اندثر.

«ربما جاءنا من لا يخطر ببالنا قط..»

«عد أغنامك يا جحا.. قلت لك.. يا جحا عد أغنامك».

الدروس معطلة. لن يطول الأمر، ليس معقولًا بقاء هذه الوظائف شاغرة، أشعة الشمس الراحلة تفرش صحن الجامع، خبز الجراية مرصوص منذ الصباح يجف ليحفظ زمنًا، طنين الحديث لا ينتهي، سعيد يري عمرو بن العدوى، نحلة حائمة ضلت طريقها إلى جحرها، من حلقة إلى أخرى ينتقل، يصغي، يشارك في الأحاديث، يغضب وقت الغضب، يفرح لحظات الفرح، يلقي رأيًا يبدو عارضًا، قيل صدفة، لكنه يدفع الحديث في اتجاه تشتهيه سفن زكريا، لا يقترب من الشوام والطلبة الأفغان، أو المغاربة، لا يهمه أمرهم، دائمًا بعيدون عما يجري، في المساء ينقل عمرو ما يراه وما يسمعه، لكن هذا المساء بالذات، إلى من يمضي؟؟ من يصغي إليه، يبتسم سعيد إذ يجول السؤال بذهنه، هل تبقى آذان زكريا وعيونه مفتوحة كالعادة؟؟ هل يجد الوقت ليصغي؟؟ هو أو نوابه؟؟ ربما يفكر الآن فيما يجب

عمله بعد ذهاب ولي نعمته علي بن أبي الجود، علي هو الذي أقره كبيرًا لبصاصي السلطنة ونائبًا له، لمن يمضي الليلة عمرو بن العدوى؟؟ سعيد يقرض شفته السفلى، كيف يعذب عمرو يوم القيامة؟؟ ربما أطاح رقبة بكلمة، يسفك حياة أسرة بوريقة، يقطع الأمل من قلب أب عجوز ينتظر عودة ابنه الفقيه ليؤم المصلين في القرية، آه لو يمضي سعيد الآن، يمسكه من عنقه، ينفذ إلى أعماقه المكنونة، بنظرة حادة كسكين تغوص بين لوحي كتف، صمت في صحن المسجد، سعيد الآن حذر، كلماته تخرج بحساب، فراش عمرو وكيس جرايته لا يبعدان عنه إلا بمقدار ثلاثة مجاورين يتمددون فيما بينهما، لو تقلب في الليل، لو خرج يتوضأ قبيل الفجر، عيناه تقعان عليه لا محالة، ربما يخطئ مولاه، لكن معاذ الله، لا يظن السوء بإنسان، يستدير متمهلًا، رائحة الحصير القديم، الرحبة خارج المسجد تفيض بالمارة، حمير مربوطة إلى جدار قريب، صوت المنادي لا يمل تكرار الخبر، إمساك الظالم الطاغي المتجبر، علي بن أبي الجود، الحوطة على موجوده، على حواصله وأمواله، على حريمه وجواريه، ترسيمه في جب القلعة حتى يتكشف أمره، امرأة تلقي درهمًا إلى المنادى، حلاوة البشارة والنقوط، بهجة تمتد إلى روح سعيد، بطيئة كسريان ماء في شقوق ضيقة، يرى سماح، آه لو تصحبه الآن، ترقب الناس معه، يسمع وقع أقدامها، لا يعرف صاحب الخطى، لكنه يثق عند جلوسه إلى الشيخ ريحان أنها هي، وهي بالذات، فرحة الناس تدفئه، لو فاض درهم عن حاجته لأعطاه للمنادي، ينحل خيط مر انعقد في لعابه من قبل، يذوب متلاشيًا، من داخل الباطنية خرج صبيان يعملون في مصبغة خضر شيخ الصباغين، صبغوا وجوههم بأحمر وأخضر، يرقصون يغنون..؟

احزن.. احزن.. يا حسود..

شالوا علي بن أبي الجود.

(مَرسُوم شَريف)

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ).

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ).

أما بعد.

الحمد لله الذي هدانا إلى كشف أشرارنا، والاهتداء إلى خيارنا، لما فيه راحة العباد واستقرار الأمن والنظام في البلاد، فمن بعد ترسيمنا على الباغي بن أبي الجود، وإقامتنا دونه الحدود، رأينا ملء وظائفه ومراتبه، وحتى نحفظ العدل، ونطلب منه المزيد، فكل منا عليه رقيب عتيد، رأينا توزيع هذه الوظائف على أرباب المعرفة والعلوم، والأمر بهذا حمل إن لم تتوزعه الأكف ثقل على الرقاب، وبدأنا بوظيفة الحسبة لأنها تمس أحوال الناس ومعاشهم، ولا يمكن تركها شاغرة، وبعد الاطلاع على أحوال الناس، ومعرفة أي الخلق منهم يريحهم ويجنبهم الصعاب.

وبعد قراءة التواريخ الماضية، واستيحاء العبر، والوصول إلى حقيقة المبتدأ والخبر. وبعد طول تفكير وتدبير.

قــررنا:

يتولى بركات بن موسى، حسبة القاهرة، لما تبين لنا بعد ما قدمناه، ما فيه من فضل وعفة، وأمانة وعلو همة، وقوة وصرامة، ووفور هيبة، وعدم محاباة أهل الدنيا وأرباب الجاه، ومراعاة الدين، كما أنه لا يفرق في الحق بين الرفيع والحقير، لهذا أنعمنا عليه بلقب «الزيني» يقرن باسمه بقية عمره.

وقد أوصيناه بالنظر في المكاييل والموازين، والتحذير من الغش في طعام أو شراب، وأن يتعرف الأسعار، وأن يستعلم ويستقصي الأخبار، ما يتردد على أفواه الناس، في كل درب أو حارة، كل بيت أو سوق، بدون علم أهله، وأن يعين له نوابًا ينظرون أمور المسلمين، بشرط أن يكونوا أمناء مؤمنين مأمونين، وألا يمكن أحدًا من العطارين، من بيع غرائب العقاقير، وأن يمنع المتحيلين على أكل أموال الناس بالباطل، وأن يتصدى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمنع عن الفسق، والنظر في أمر فقراء المكاتب، والعالمات والمغنيات من النساء، ولا يمكن منهم أحدًا، ولا يستتيب عليهم إلا من عرفت أمانته، وأثرت صيانته، وأن يكونوا من أهل العفة والأمانة والنزاهة ممن بعدوا عن المطامع، ونأوا عن السوء، وأن يقصد بقوله وفعله وجه الله تعالى، وابتغاء مرضاته، فلا يبالى باحتسابه بغض الناس له، وسخطهم عليه، أو رضاءهم عنه، وأن يكون مواظبًا على سنن الرسول، من قص الشارب، ونتف الإبط، وحلق العانة، وتقليم الأظافر، ونظافة الثياب والتعطر بالمسك، هذا ما رأيناه، وبه أمرنا، وسلام على أشرف الخلق، سيد المرسلين، محمد بن عبدالله، .

«قلـعــة الجـبـــل»

ثامن شوال

زكريـا بــن رَاضــــي:

في أي وقت أو مكان، هل حال أمر بينه وبين فهم ما يجري، النفاذ إلى الأحداث، الصغير منها والكبير، الآن بالذات يحاول تلمس الأسباب، ما يجري الآن يحيره، أول الليل، نزل إلى السجن الصغير المدفون تحت البيت، تقدمه المشاعلي مبروك، لا يذهبان إلى السجن إلا نادرًا، مرات قليلة خطا فوق الممر المعتم الضيق، في نهايته تجاويف صغيرة في الجدران الرطبة المبللة اللزجة، تضيق الفجوة بقامة الإنسان، السجين يضطر إلى إحناء ظهره عند الوقوف حتى لا يصطدم رأسه بالسقف غير المستوى، لا يمكنه تلفت أو تقلب أو قعود، أو النوم متمددًا لضيق المكان وبسبب المياه التي يرشها مبروك الأخرس عدة مرات كل نهار، يحافظ على منسوب ارتفاعها فوق الأرضية اللزجة المبللة، زكريا لا يلقي المحابيس هنا، يبقى في الطرف الآخر للبيت، يجيء مبروك، يفك قيود المحبوس المطلوب، يعصب

عينيه بمنديل، يدفعه بحربة قصيرة في ضلوعه، في النهاية يقف أمام زكريا، يبقى السكون بلا خدش فيتزايد رعب السجين، لا يدري من أين تجيئه الضربة، وبعد لحظات تطول أو تقصر يمد زكريا فجأة يده، يلمس كتف السجين، غالبًا ما يلمسها برفق، على مهل، بتأن، كثيرون لم يحتملوا المفاجأة والمباغتة الخفية اللينة كبطن الأفعى، يسقطون مغشيًّا عليهم، ترفع العصابة عن العينين، في البداية تترقرق ابتسامة هادئة، نار قرب انطفاؤها، يمضي وقت، ترتفع صرخات زعيق وآلام، تصر عجلات الساقية التي تبدأ في رفع المياه في البئر العميقة، أحيانًا يأمر زكريا بقرع الطبلخاناة، خاصة في الليل، في السكون الغويط، يسمع من بعيد، يدرك القلائل جدًّا، أشد المقربين إلى زكريا والعاملين معه، يدركون ما يحويه قرع الطبلخاناة الآتي من سفح المقطم، الليلة يمر زكريا بنفسه في السجن المعتم الرطب، قبل ذهاب النهار طلب من مبروك إخلاء التجاويف من كافة السجناء، جميعهم لا يدري أحد بوجودهم، لم يصدر مرسوم بإمساكهم، زكريا لا يدري ما تحمله الساعات الآتية، لا يأمن أبدًا مهما استقرت الأحوال، عندما يرى الكل رسوخ الأمن وعمق جذوره في جوف الزمن، لا يخطئ زكريا تقدير أضيق الثغرات وأتفه الاحتمالات، من يدري؟؟ ربما أرسل أمير إلى السلطان يخبره بأمر المحابيس هنا، منهم من نسيه زكريا لطول المدة ربما جاء مماليك الغوري، الجلبان أو القرانصة، تسلقوا الأسوار، نفذوا من الأبواب والممرات والحجب، أمسكوه، بهدلوه، ثم يفتشون عن السجن، سوف يبحثون عن شعبان، شعبان بعينه، من أشهر اختفى لم يدر به مخلوق، شعبان غلام السلطان المقرب، المفضل على غيره، جليسه في خلواته، أنيسه في سهراته، يقعد إلى يمينه دائمًا في نفس مكان الأمير الدوادار، وأمير السلاح وأمير أخور وكبار رجال السيف والكتاب، شعبان فلقة قمر، هلال فضة مولود، شفتاه حبتا ياقوت، عينا هر، فمه مسك وطيب، خده ألين من حرير، يده في طراوة العجين، لا يتجاوز العشرين، عندما قرر زكريا اختطافه لم يأمره أحد بذلك، لم يوزه أمير، لم يدفعه وزير، أي مخلوق، قرر أن يصل إلى جوهر الصلة بين شعبان والغوري، سؤال محير ألهب مرقده، أحرق ما بين جفنيه، هل يهوى السلطان الغلمان، هل يؤثرهم على النساء؟؟ أمر كهذا لا يغيب عن زكريا أبدًا، إذن لا بد من الوصول إلى الحقيقة، خاصة والقرائن تؤيد ما يحوم من ظنون، منذ توليه أمور السلطنة لم يسمع أنه أزال بكارة أو أضاف إلى مشترياته جديدًا، فيما عدا عشر جوارٍ وصلن إليه هدية من ملك البندقية عندما أرسل قاصده إلى القاهرة من أشهر، زكريا يعرفهن، لديه أسماؤهن، أوصافهن ويعلم من مصادره أن السلطان لم يقربهن، وأنهن يتقلبن متحرقات، ولولا أن الرجال المسموح بدخولهم إليهن طواشية لأتين من الفعال ما تتندر به أجيال وركبان، أيضًا لم يتزوج الغوري إلا اثنتين، إذن، هل توجد صلة بين السلطان وشعبان؟؟ ولن يجيب عن السؤال إلا شعبان بشخصه راح مبروك يرقب مرات طلوعه ونزوله ثلاثة أشهر كاملة، حتى ألم بعاداته، حفظ المواقع التي يتردد عليها، انحناءات طريقه، عدد البيوت على جانبيه، مواقع الخلاء فيه، وفي لحظة معينة خلت السماء من القمر، من ضوء النجوم، كمن عدد من الرجال الملثمين على جانبي المدق الرملي الموصل إلى أول طريق القلعة، وفي الليلة نفسها وصل مقر زكريا، تأمل شفتيه، تعجب من خلقته، من رقته، مد يده

وتحسس نعومة بشرته، استرسال شعره، دهش لنصاعة أسنانه، طيب رائحته، رهافة لسانه، أمثل هذا يخلق بين جنس الرجال، خلع ثياب الغلام قطعة قطعة، الولد لا يدري غائب عن وعيه، صرف زكريا رجاله. مال فجأة وقبل الغلام، قال لنفسه: وقع القبلة بعد صحوه أحسن، وفعلًا رأى في الصباح تورد الوجه المليح، ورد سقاه الندى، أبدى كربًا، ورأى الغلام هادئًا واثقًا، تحدث إليه، لم يفصح عن غرضه مباشرة، لم يكشف قصده، استمع إلى وصف بلاد رآها شعبان، تساءل بعدها، أحقًّا لم يتجاوز العشرين، شعبان رأى الصين، زار فارس، ورقص في جبال الأناضول، عالم بلغة الفرنجة، يتقن لهجات البربر، أهالي الجبال في بلاد المغرب، كيف ألم بكل هذا، متى اتسع العمر القصير، كأن زكريا يجالس شيخًا خبر الدنيا وأمسك باطن أسرارها، الثغر العذب ينشد أرق الشعر وأعذبه، خلاصة الحكم والمقولات، متى استمع إلى هذا؟؟ كيف لا يسأل عما يراد به، لحظات عديدة أيقن فيها زكريا بوجود أسماء أخرى عديدة للغلام، شعبان واحد منها، ثلاثة أشهر مضت كاد زكريا ينسى الهدف الأصلي، يضل عن الوصول إلى حقيقة ما بين السلطان وبين شعبان، في البداية حام ودار، أنكر شعبان، في ثنايا الأحاديث والكلام يلقي زكريا بخبيث السؤال، بيدي الغلام تجاهلًا، مرت الأيام، وصبر زكريا ينفد كحبات الرمال من بين الأصابع، في ليلة ضاق به الأمر، نزل إلى القبو، أوثق الغلام، عراه، قبله في شفتيه، رأى انسحاب الدم من الوجه المليح، من أذنيه، تحسس العنق الناعم الأملس، زام شعبان وعض يد زكريا، طرحه أرضًا، أفسد الأرض البكر، عبر مضايق مجهولة لم ينفذ منها إنسان، وقف عند حافة لم يطلع عليها ذكر، لم ينظر في وجه الغلام، غادره كدرًا متضايقًا حزينًا، لماذا؟؟ لا يدري، ليس السبب فشله في الوصول إلى حقيقة العلاقة، بعد ثلاثة أيام نزل القبو، رأى وجهًا بدلته قسوة تقاس بعشرات الأعوام، في البدء ظن أن الغلام أبدل، أين ملاحة الوجه، روقان أول العمر، ناداه، لم يجب شعبان، لم يفه حرفًا، زال زهاء الشباب، انكسر غصن الوردة، نسي الغلام بلادًا زارها، قرى رآها، ثلوجًا بيضاء تفنن في الحديث عنها، أي لغز يحير زكريا، غادر القبو مسرعًا، عاد إليه مرات خلسة، روعه ما رآه وأفزعه، نحل الغلام وكاد يفنى، لو امتد الوقت، لو في الزمن فسحة، متسع، ربما توصل إلى سر ما حدث، يضع يده على بدايات الأشياء، ربما توصل إلى حقيقة الأمر بين السلطان وغلامه شعبان، لكنه الليلة محسور، الغيظ يهريه، للأسف، يقرر خنق شعبان ودفنه حيًّا، بنفسه راقب الخنق، مبروك وحده قام بالعملية، ضربات معوله الصماء عالقة في أذن زكريا، الليل وغرابة الأمر ورحيل الفتى يكسبها رنينًا قاتمًا مخيفًا، لكن، لا بد من تنفيذ ما أمر به، ربما جاءوا واختطفوا شعبان حيًّا، يطلعون به إلى السلطان، يا مولانا هذا غلامك الحبيب وجدناه عند زكريا بن راضي كبير البصاصين، ونائب على بن أبي الجود، يا مولانا خانك زكريا فاختطف أحب الناس إليك. فسق في أقرب الخلق منك، بدله وغيره. أنهى أوله وآخره، كبير بصاصيك الذي جئت به يومًا، كدت تظهر ضعفك أمامه، طلبت منه بقلب كليم، أن يطلق رجاله، عيونه، بحثًا عن شعبان، حبيبه وصفيه، زكريا هذا... هنا لا بد من هلاك عظيم، فناء أكيد، لن يوسط، لن يخوزق، الشنق وقتئذ نعمة لا ترتجى، الموت خنقًا أمنية صعبة، أما السم الزعاف فجنة لا ينالها أمثاله، سيأمر السلطان بشيه حيًّا

على نار بطيئة، من قبل شوى ثلاثة رجال على السفود - قيل مجرد القول إنهم شوهدوا في صحبة الغلام مرات لم ينتظر ليستقصي، من هم؟؟ من أي جنس؟؟ ما الذي يجمع ثلاثة من العامة بشعبان، زكريا نفسه لا يعلم، لم يخبره الغلام عنهم، سبب اجتماعهم به، عمومًا، إذا مرت الأمور بسلام، الليلة، غدًا أو بعد غد، سيطلق بعض الأتباع من عتاة البصاصين وأشدهم بأسًا وقدرة على الاختفاء ليحاولوا الوصول إلى أصل هؤلاء الثلاثة، جمع ما تيسر من معلومات عن الغلام، من يدري؟؟ ربما عرف عنه وهو ميت ما لم يعرفه قبل موته، ربما كشف الأمر عن أمور لا تخطر ببال عاقل، النيران لا تهب إلا من مستصغر الشرر، فعلًا، ليس من الأمان بقاء شعبان حيًّا، وغيره من المساجين، أي شخص يبقى هنا، حتى حقير الهيئة، مبتور الأصل فاقد النسب، أو مجهول الهوية من صغار المنسر والحرامية، سيعلو شأنه وقتئذٍ، يطلق العامة والخاصة التشنيعات المهولة، يحطون في حقه كل قبيح، زكريا يحبس خلق الله، زكريا لديه سجن تحت بيته، ترى كم من الأرواح أزهق؟؟ أي الطرق سلك في تعذيب أجساد خلقها الله، وقتها يقوم الكارهون، الأمراء، أولاد الناس، مساتير الناس، مشايخ الطرق، طلبة الأزهر والمجاورون، سيرون في المحابيس، كل من أمسكهم زكريا مساكين، أرواحهم بريئة، لم تجن ذنبًا، لم يتآمر أصحابها، لم يسرق بعضهم، لم يقل سبابًا في طريق عام ضد أمير أو كبير، الآن، يفتش السجن بنفسه، يتناول المشعل من مبروك، ينبش تجاويف السجن بعينيه، عطن ونتن يتصاعد إلى أنفه، العفن لزج، لكن صبرًا، ما قام به يدفع بالرضا إلى روحه، لتخلو التجاويف من الآهات والتأوهات والأنات ليالي معدودات، لن تتردد أسئلة المتحشرجين إذ يسأل بعضهم البعض عن أسمائهم، عن قراهم وبلادهم، الأسباب التي جاءوا من أجلها، زكريا عندما رأى المحابيس تعجب، رأى وجوهًا لا يذكر أصحابها، كأنهم جاءوا بدون علمه، نسيهم لتعاقب السنين وكثرة المشاغل، الآن، اطمأن زكريا، يخرج إلى الهواء الطري الآتي من أعالي المقطم، يمكنه أن يخلو إلى نفسه، مبروك يدرك تمامًا ما يريده أستاذه، يبتعد مندمجًا بالظلام، يتحسس زكريا مقبض خنجره القصير مسموم النصل، يقطع الفناء المتسع بخطوات ثابتة، لعباءته حفيف، ضحكة ناعمة كخيط حرير، كشرنقة فراشة، تجيء من أعلى، بعضهن يتسامرن في الحرملك، لن يخلو الليلة إلى أي منهن، لن يرى ابنه يس، يدفع جزءًا في جدار، يغلقه، يطلع سلالم ضيقة تؤدي إلى أعلى طوابق مبنى الديوان المجاور لمبنى البيت، الناظر من بعيد، حاد البصر، يمكنه رؤية نقطة ضوء تتسرب الآن من ثقوب المشربية، لكن مهما أوتي المرء من دهاء، مهما انكشف عنه الحجاب، لا يمكنه أبدًا تخمين ما يضمه الطابق العلوي، زكريا لا يجيء إليه إلا أوقات الاضطراب، تقلقل الأمور، تغير الأحوال السريع المصحوب بارتجاف الزمان، انهيار القوائم، تحلل الأسباب، قبل بداية العمل يتكئ إلى حشية لينة تحجز عن ظهره برودة الجدار المكسو برخام أحمر ملون بأسود، يغمض عينيه، ما معنى الذي جرى؟؟ حيرته الآن أشد حدة من اللحظة التي جاءه فيها الخبر، حوله تشهق الجدران تسند طوابق خشبية مقسمة إلى مربعات وخانات، كل منها يضم عددًا من الدفاتر، تختلف ألوانها وأحجامها، هنا تتلخص الديار المصرية، دائمًا يقول زكريا لأعوانه المقربين، عندما أود الذهاب إلى أي بلدة في مصر لا

أبتعد عن بيتي، أجيء إلى هنا، لكل بلدة قسم، كل قرية، أي كوم أو عزبة، أي إقطاع في بر مصر من أدناها إلى أقصاها، كل دفتر يحوي أوصاف المكان، ما اشتهر به، ثم أهم الأشخاص فيه، كافة ما يتوافر عنهم، القسم الخاص بالقاهرة يحوي حاراتها وخططها وجوامعها، رجالها وشيوخها ونساءها وغلمانها وجواريها وبيوت الخطأ فيها وشرطتها وعسسها وفقهاءها وحماماتها وأسواقها وخاناتها وطوائفها ومغنياتها وملاهيها، وأسماء الأروام المقيمين والقادمين والراحلين والإفرنج العابرين، ومن يتصل بهم، يتردد عليهم من المصريين، كل أمر كبير أو صغير هنا، أما الأمراء وأعيان الناس ومشاهير الخلق فكل ما يتعلق بهم، أمزجتهم وعاداتهم، مشاربهم، أهواؤهم، ما مر بهم من أفراح وأتراح كله هنا، يقول زكريا متباهيًا، هذا القسم في الديوان مفخرة للسلطان وغرة في جبين السلطنة المصرية، لم يحدث قط أن أعد شيء كهذا في تاريخ أي بصاص مصري أو إفرنجي، وبإذن الله العليم القريب سيجيء يوم يصبح لكل إنسان قسم خاص به، يلخصه منذ آهة الميلاد حتى رعشة الموت، الآن، يبحث بين الدفاتر، بالضبط هذا ما يريده، دفتر أحمر مجلد بقماش، هنا يرقد المباشرون وأرباب الوظائف أصحاب الطوائف الصغيرة، وفي آخره ملحق يتضمن من يظن وصولهم إلى مناصب يومًا، نوعيتها، لا يذكر ما دون عن بركات بن موسى، شهاب الحلبي ناظر الديوان أضاف اسمه منذ عامين تقريبًا، لم يطلب زكريا صفحته للإطلاع عليها، لا يدري هل أضاف شهاب الحلبي معلومات جديدة عنه؟؟ الآن يتأخر الوقت، الليل يوغل حتى العظام، لولا سرية الأمر لأرسل في طلب شهاب الحلبي ليجمع كل ما تناثر من معلومات حول الزيني، لكن لكي يرسل إليه، لا بد من اجتياز حارات مسكوكة ودروب مغلقة ويتجنب عسس وعيون زكريا نفسه، ربما يثير استدعاء شهاب الآن ظنون البعض، لا داعي لحضوره، لا داعي، زكريا يضيق، بوغت بإعلان الخبر، لم يستبق كافة رجاله في الديوان، ولم ينفذ ما اقترحه منذ فترة بخصوص تيسير سبل الاتصال بينه وبين نوابه ورجاله وأعوانه، لا بد من مراعاة هذا بسرعة وتنفيذ من الغد، لولا حرصه على معرفة كل ما يضمه الديوان، طريقة ترتيب الدفاتر والتقارير والأوراق لتاه الآن، لا يدع أحدًا من نوابه يستأثر بأمر ما حتى لو كان صغيرًا تافه الشأن، لا بد من إلمامه بكل ظروف العمل، طرقه ومصاعبه، حتى لا يلعب به أحد رجاله، يخدعه، لكن ما أحوجه الآن إلى شهاب الحلبي بالذات، شهاب الحلبي لا يكلف روحه عناء البحث، لديه ذاكرة عجيبة، يعرف آلاف الأشخاص، ما يخصهم، لا ينسى أمرًا قط ولو مرت سنون، يذكر ما تبودل من أوراق وتقارير، ما أضيف من معلومات وسطور، في أي سنة من السنين، الآن يقلب الدفتر، يمسك بالشريط الملون الذي يفصل الصفحات عن بعضها، حرف الألف لا يعنيه، غير مهم، ربما مات بعض أصحاب هذه الأسماء، بعضهم يجب نقله إلى دفاتر طبقات أخرى لتغير أوضاعهم، أو اختلالها، آه مثلًا هذا، أحمد بن عمر خادم مسجد سيدى سويدان، أصبح إمامًا للمسجد يقرأ فيه الحديث والقرآن ويؤم المصلين، تزوج امرأة حبشية، يشاع عنه هواه بالحبشيات، مع هذا ما زال لقبه واسمه في طائفة الخدام، كل حريمه هنا. واحدة فلاحة من أوسيم، أم أولاده، منهم طالب أزهري، لا يجب تنبيه شهاب الحلبي، ربما قيل وما أهمية هذا؟؟ أبدًا، أبدًا، كل شاردة وواردة يجب تقييدها، رصدها ربما جاء منها ما لا

يدري مخلوق، ها هي. الباء، حرف الباء. بالضبط بركات، بركات بن موسى، أعلى الصفحة، أقصى الركن الأيسر كلمة واحدة، حروف خمسة لا غير، المداد أسود، الخط رفيع.

«بـــركـــات»

لو نظر جاهل إلى الورقة لظن خُلوَّها من أي حرف عدا الاسم، وما الذي يعنيه لفظ واحد في صفحة بيضاء، ناصعة تلمع تحت ضوء الشموع المعلقة إلى الجدران المبطنة بالخشب والرخام والرفوف المزدحمة بالدفاتر، زكريا يمسح الورقة بقالب صغير شفاف لا يعرف تركيبه إلا قلة، شيئًا فشيئًا تبدو ملامح الحروف، تتكشف الكلمات، يد خفية تخطها، زكريا يمر بالقالب مرات، نفخ الهواء حوله، فقط أربعة سطور، أربعة فقط، يستعيذ بالله العلي القدير، ملهم البشر، كاشف الأسرار، عالم الغيوب ما لهذا الرجل لا يأتي من ناحيته إلا الحيرة؟؟ كل ما خطه شهاب الحلبي أربعة سطور. (بركات بن موسى، له مقدرة الاطلاع على النجوم، أمه اسمها عنقا).

زكريا يطبق الدفتر، أي شخص من سفلة الخلق، من طلبة الأزهر المشاغبين، أي غانية، أي بائع جبن مقلي، أو سنبوسك، لا يقل المكتوب بخصوصه عن نصف ورقة، وهذا الإنسان يساوي سطورًا أربعة يتيمة، يغمض عينيه، ليل ساكت لا يكشف سرًّا ولا خبرًا، يعرف أن القوم يسهرون الآن، يهمسون، يحطون آراءهم في المحتسب الجديد، وما ينتظرونه منه، آه لو يجيء يوم يدرك فيه البصاص ما قيل على بعد آلاف القرى والبلاد، لا يبعد أمر على الله.

لولا ثقة زكريا فيما نقل إليه بعد الغروب ما صدقه الآن، أكثر من مصدر، أكثر من بصاص، كل بصاص يجهل الآخر، نقلوا إليه أخبار سعي بركات بن موسى لحصوله على منصب الحسبة، ذهابه اليومي إلى الأمير قاني باي، طلوعه إليه، بقاءه عنده، حديثه إليه، ثم ثلاثة آلاف دينار كاملة سلمها إلى الأمير قاني باي ليلة الثامن والعشرين من رمضان المعظم بعد العشاء. ثلاثة آلاف دينار يشتري بها بركات منصب الحسبة حتمًا إلى الأمير طغاز، أصابعه تقبض على حافتي الدفتر، ها هو أول الليل يسمع ما يحيره، ما يجعله ينطق لفظًا يكرهه «لماذا؟؟»، لكن هل يعقل هذا؟ من أي طينة خلق بركات هذا، هل جاء المسيح الدجال متنكرًا، هل نفذ إلى العالم ولم يدر به زكريا، كيف، كيف؟. بعد إصدار المرسوم السلطاني الشريف، بعد الثناء على بركات بن موســى، بعد الإنعام عليه بلقب الزيني مدى الحياة، بعد دفع بركات ثلاثة آلاف دينـار ليشتري المنصب، بعد طواف المنادي نهارًا بأكمله، بعد هذا كله يطلع من بيته في بركة الرطلي، يشق دروبًا جانبية، لا طبلخاناة تتقدمه، لا دق كوسات بلا ضجيج، أول ركوب به، يطلع متخفيًا إلى القلعة، ينبطــح أمام الأمراء جميعًا، يبكي، دموع حقيقية، لا شك في ملوحة طعمها، ينطق ما يجعل زكريــا يروح ويجيء حتى الآن، لا يمضي لرؤيــة ابنه الوحيد، أي من حريمه، يثقل الليل فوقه، لا يعنيه إعدام علي بن أبي الجود لا يهمه الآن استمرار السلطان الغورى أو خلعه وتولية أسفل الخلق مكانه، كـل همه الوصــول إلى تفسير لما جرى من الزيني بركات بن موسى، في القلعة، وأمام من؟ أمام الدولة كلها، ما لو سمعه إنسان لضرب الأكف عجبًا ودهشة. في ساقه خدر، طابور نمل رفيع يسري

تحت جلـده، يعقـد يديه وراء ظهـره، ربـما لم يدفـع ثلاثة آلاف. لكن أبدًا، لا أحد برفقــة زكـريا الآن، يهز رأسه بقوة أبدًا، أبدًا، يثق من صحة عيون بصاصيه المتخصصــين في أمور قــاني باي، يعلم تمامًا دخول ألف دينار إلى خزائــن الأمير قاني باي يوم استلامه البرطيل من بركـات بن موسى، لم تصله إيرادات من أي جهة أخرى، أما الألفان المتبقيان من الآلاف الثلاثــة فطـلعـا إلى القلعــة، آه لو يتخـذ السـلطان رأيًا الليلــة لاستقر زكريــا، لكنه أمر الزيني بالانصــراف حتى يرى من أمره ما يكون، زكريا يمسك الدفتر، يفتح الصفحة من جديد.

«بــركـــات»

من الليلة سيتولى زكريا بنفسه أمر بركات بن موسى، ليضيف شهاب الحلبي ما يروق له من معلومات إلى سطوره الأربعة التي لا تبل ريقًا، لا تشفي غليلًا، يميل زكريا إلى دولاب صغير يتناول منه دفترًا مجلدًا بحرير أخضر، الليل حوله أخرس معصوب العينين، يخرج من جيبه لفافة أوراق، ما وصله من القلعة، كل ما دار في قاعة البيسارية، بركات بن موسى قبل رخامها، بللها بدمعة، لم يحدث هذا في تاريخ سلطان من السلاطين، منذ الآن. كل ما يمس هذا الزيني من قريب أو بعيد سيقرؤه بنفسه، ينقله هو، عيناه ستتوليان أمره كلما جاءت الفرصة وسنحت، من تجويف ضيق مغطى بستارة صغيرة، يتناول وعاء من فخار، يغمس قلمًا خشبيًّا رفيع السن في إناء ملون.

«الصفحة الأولى»

عاشر شوال عام 912هـ

على مرأى من الأمراء في حضور جمع عظيم، طلب الزيني بركات بصوت خدشه التأثر، أن يعفيه مولاه من وظيفة الحسبة، قال بصوت مرتجف «الحسبة يا مولاي ولاية يؤتمن صاحبها على أحوال العباد، وحاشا لله أن أجد في نفسي القدرة على هذا، أنا عبد فقير لا أطيق وصايتي على إنسان، أتمنى انقضاء عمري في أمن وسلام، بعيدًا عن أمور الحكم والحكام، ما أريده رقدة آمنة، لا يقلقني فيها سب إنسان، أو سخط مظلوم غفلت عنه ولم أنصفه من ظالمه.

كوم الجَارح:

عددهم كثير، غير أن هدوء البيت لم يخدشه صوت عال، فوق حشية قديمة مغطاة ببقايا سجادة لم يفن الزمن زَهْوَ ألوانها، يجلس مولانا الشيخ «أبو السعود»، يطيل الإصغاء، يعرفهم كلهم، بعضهم حفظ القرآن على يديه عندما قضى من عمره زمنًا مجاورًا لعمود رخامي في مسجد سيدي سويدان، أو مسجد سيدي إسماعيل الإمبابي، يدرس الفقه والأصول، يفسر المتن، يشرح الأحاديث والآيات البينات، يقص التواريخ، ها هم يوغلون في سِني العمر الأخيرة، يعرف الإنسان عند مروره بها أنه لن يعيش أكثر مما عاش، أكبر شيوخ الطوائف سنًّا ومقامًا، من الحدادين، القصابين، المرخمين، البنائين، الشعراء، مشايخ حارات، أعيان وأولاد ناس، يجيء

سعيد بطبق كبير مليء بالبلح المجفف المغسول، يسنده أمامهم يميل الشيخ رضوان كبير الفحامين وأكثر الموجودين تقدمًا في العمر.

«لن يقنعه... لن يقنعه...»

تبقى الكلمات معلقة في فراغ البيت، ينسل هدوء عذب رقراق كسرب عصافير على علو شاهق، في اللحظات نفسها تختنق طرقات الحارة بزحام كبير، تموت الأصوات كلها خارج جدران البيت، تنفذ رائحة لا تنتمي إلى جنس نبات أو عطر معروف، ائتلاف الريحان بماء الورد المحفوف بروح السوسن، يتمهل كل منهم في تفكيره، يغمق الهواء، يميل إلى لون الرماد، يملأ الصدور خشوعًا ورهبة، تتدحرج حبات المسبحة، اصطدامها يسمع بوضوح، إيقاع تفكير الشيخ «أبو السعود»، يقلب ما يسمعه، ما يراه فوق الوجوه.

«لم نسمع برجل مثله... ونحن ما نرضى إلا به...»

ابتسامة خفيفة، ذرات نور تنفذ من ثقوب مشربية ضيقة العيون، خاطفة كبرق بين غمام.

«أعرفتموه؟؟»

يقول الشيخ القصبي شيخ حارة زويلة..

«رفضه للمنصب خير تعريف به يا مولانا..»

سعيد لا يقول لفظًا، ليدع الضيوف يتحدثون، أول الليل في مجيئه المعتاد إلى الشيخ، تحدث إليه بألفاظ أكثر عددًا مما قاله جميع هؤلاء، آخر النهار لا يزوره إلا سعيد بعد انتهاء دروس الأزهر، يجيء المريدون في الصباح، يقرءون القرآن والأحاديث، بعضهم ينظف أركان البيت، يقدم إلى الشيخ غذاءه من اللبن الرائب والخبز الساخن الطري، أقصى آمالهم كلمة من الشيخ إلى واحد منهم فيها رضا، سعيد لا يتحرج أمام مولاه من إبداء ضيق أو غضب، ما يخشى التصريح أو التلميح به بين الجموع في الأسواق أو أروقة الأزهر، يقول هنا، حتى لو رأى فيه أي إنسان من الحاضرين تحديد عمر الشيخ، في التجاعيد آثار عشرات السنين، ربما تجاوز المائة، الصوت والقامة يحويان صلابة جذوع النخيل، يكره الانطواء، يعرف سعيد أي وجد يبهجه إذ يسمع صوت الرعد، يقول، هذا حس الدنيا، صوت الكون، لا يفهمه ويفسره إلا العليم الرحيم، لم يره إنسان لحظات إصغائه إلى صوت الرعد، فرحته بنزول النقطة، أول دمعة تنزل من السماء كل شتاء، سعيد كل سنة يسمع الرعد في الرواق، في المقهى، في الطريق، في لحظات تساؤله الغامض عما تفعله سماح في لحظة بعينها؟ يتوقف، يعلم تمامًا أن الشيخ يصغي، يقف في منتصف الفناء تمامًا، تبرق عيناه بفرحة لا تمت إلى هذا الزمن، تمرح روحه في كون آخر، يناجي الأولياء، يذكر بالأسى ما جرى من أحوال في كربلاء، يترحم على آل البيت الذين لا يتسرب إليهم البلى والفناء، أول همسات المطر يتلقاها عاري الرأس بلا عمامة، ممدود الكفين، الآن.. توغل برودة، ينفذ الليل إلى السماء واثقًا أسود الجبين، يميل الشيخ البهجوري كبير المرخمين..

«لم يحدث يا مولانا أن رجلًا معَمَّمًا أو غير معمم أيًّا كان مقامه أو رتبته، عرض عليه منصب ورفض، الناس كلهم، المجاورون وأصحاب الطوائف، منذ سماعهم الخبر ولا اسم على لسانهم إلا الزيني بركات.. الزيني بركات.»

«ومن نشر الخبر يا ولدي؟»

الشتاء ساهي الوجه، بارد النظرات، عفي البرودة، حقيقة، لا إجابة جاهزة عند أي واحد من الحاضرين، لا يدري سعيد كيف تسرب الخبر من البيسارية في القلعة، ربما خدم القلعة. ربما بعض المماليك، كل واحد من المتحلقين حول الشيخ سمع الخبر بصيغة تختلف، العامة في الحسينية يؤكدون، لم يخفض الزيني رأسًا، لم يحن هامة أمام السلطان، لم يرتجف أو يهب، قال أمام الأمراء أجمعين، لا أقبل الحسبة لأنني لا أريد رؤية الظلم وأسكت عنه، أمام الناس في الجودرية وحارة الروم الجوانية والباطنية فنفوا طلوعه إلى القلعة نفيًا تامًّا، قالوا إنه أرسل إلى السلطان مكتوبًا يعتذر فيه بأدب وحسم عن ولاية الحسبة؛ لأن الزمن دب فيه الفساد وكثر ظلم العباد، وصار الخير والعدل في أبعد واد، هذا يخالف طبيعته، ينافي شخصيته، المسئولية كبيرة ولن يساعده مخلوق، بل سيطلب منه السلطان فرض مكوس جديدة على المسلمين. الزيني بركات بن موسى لن يقبل هذا أبدًا، وقيل في بولاق، والحمامات العامة، خاصة حمامات النساء، إنه وقف أمام السلطان كزينة الرجال، وأشجع ما يكون عليه الفرسان، دفعه في صدره دفعًا هينًا حازمًا وهذا لم يقع من قبل، ولم يفعله أي إنسان، قال ستأمرني بظلم الرعية وأنا لن أنفذ هذا لأني أخاف نسبة الظلم إليَّ، كيف أقابل خالقي يوم الحساب؟؟

- «الحق يا مولانا، لا ندري كيف تسرب الخبر لكن مثل هذه الأمور لا يطول احتجابها». عينا الشيخ نبعتا صفاء، من يصلح إذن للمنصب غيره؟ من ينشر العدل بين الناس إلا رجل مثله؟ يخشى الله ليس تصنعًا أو زيفًا، إنما يجهر بهذا أمام السلطان نفسه، وعلى مرأى ومسمع من أعتى الأمراء وأشدهم بأسًا، وأقواهم شوكة، قال البعض إنهم رأوه يدخل قصر الأمير قاني باي ولم يطلع حتى الآن، السلطان نفسه لم يصل إلى حل قاطع، سعيد يرى الآن الجامع الأزهر، عمرو بن العدوى ينتقل بين الطلبة والمجاورين، يخرج إلى المقاهي القريبة، دكاكين الحلوى والمشبك، يتسمع رأي الناس، ما يدور بينهم، آه لو اقترب سعيد من هذا الزيني، لم يره أبدًا في حياته، كلما ظن خلو الزمن من الجرأة، تنفي الأيام انعدام المروءة، دائمًا يصغي الشيخ «أبو السعود» إليه، روايته لما يجري في المدينة من فظائع، ما من رجل شنق وراح على نفسه ظلمًا إلا وسعيد يحفظ اسمه، يخوزق فلاح لسرقته ثمرة خيار، توسط امرأة لعنت مملوكًا فاسقًا اختطف ابنتها البكر، في اليوم نفسه يجيء سعيد إلى مولاه، يذكر الضحية، يتساءل ملومًا مقهورًا، كيف يجري هذا؟ كيف يمضي الإنسان بأرخص الأثمان لا دية له؟ لا قوم يطلبون أثره، تترقرق الشفتان الرقيقتان بطيف ابتسامة كعبير النعناع، أحيانًا يهمس، «الطف بنا يا مولانا فيما جرت به المقادير...» حدقتا عينيه انطبع فيهما المهول من الأمور، الطواف عبر بلاد الله، وصوله أطراف الدنيا، عبوره صحاري لا حرث فيها ولا نسل، اعتلاؤه جبالًا تضرب قممها في شاهق السماء، نزوله إلى قرى فقيرة في ربوع الشام،

صحراء الحجاز، نجد، حضرموت، وديان اليمن، سعيد لم ير في حياته الجليد، أحيانًا يتساقط البَرَدُ من سماء القاهرة، لا يحدث هذا إلا نادرًا، يطرق كالحجارة لكنه غير الجليد، في الساحات البيضاء الشاسعة التي تشع دخانًا يتجمد في الفراغ، يمتد صمت يرعش الخوف في قرارة النفوس، الفراغ والزمن بلا آخر، بلا آفاق، لا نهائي، غير محسوس، لا يفنى، عندما رأى بحارًا يعلو موجها كالجبال، حيث اليابسة حلم ما زال بعيدًا ووهمًا ضنينًا، هنا تتجمع قوى غريبة في أعماقه، يطلق صيحة في وجه اللانهائي، اللامحدود، زعقة تبلغ جبال قاف، تحدث الزلزلة، تجمد المحيط.

«حي.. الله حي.. موجود».

أصحابه كثيرون، يطلقون الصيحة نفسها في أماكن عدة، يلقاهم مرة واحدة في كل عام إذ يصل إلى البيت الحرام، يتبادلون الجد، يتناقلون ما رأوه، ما قاموا به من أجل نشر راية الإسلام، التذكير بأهل البيت، بطراوة دم الحسين الذي لم تجففه أزمنة وعصور، في الكعبة يرثون من لم يجئ، من ذهب إلى أبد لا يدركه حي، بعد الحج، انتهاء الطواف واللقاء، يولي كل منهم مقصده ناحية جهة من جهات الأرض، لا يتمدد الجسد ليلتين متعاقبتين فوق مكان واحد، «الله موجود» ممدودة تعبر الزمن، تلين اليابسة، منذ أعوام جاء الشيخ «أبو السعود»، رجع إلى بلدته التي لامست رأسه أرضها، إلى مصر، من وقتها لا يروح، لا يجيء، يعيش في كوم الجارح، يفد إليه الدراويش الطوافون، أرباب الطرق، في أي ساعة من ليل أو نهار، لا يرجع طارق أو قاصد إلا بعد رؤيته الشيخ والإفضاء إليه بمن جاء من أجله، أوقات الصلاة حائل وحيد يمنع الحديث إليه، أحيانًا يقطع تأملاته، عبوره أزمانًا سحيقة البعد، يصغي إلى صاحب حاجة، يشير عليه إما تلميحًا أو تصريحًا، مرة أخرى يود سعيد لو يشارك المشايخ أحاديثهم، لو جاءه الليلة عمرو بن العدوى، يسأله رأيه، يحاول التحرش بفكره، هنا يزعق سعيد، لن يذهب عينًا، لن يخشى أذنًا تتسمع، أو تقريرًا يرفع عنه، لن يخشى زكريا بن راضي نفسه الذى يكفي اسمه وصيته لبث الرعب في أوصال البلاد كلها...

يقول الشيخ القصبي:

«والله يا مولانا إن لم يولوا علينا الزيني فلا خير فينا..».

يقول شيخ الفحامين:

«أنا والله لم أسمع به في حياتي.. لا أعرفه يا إخوان ولم أره..».

يميل مولانا إلى الأمام، يكف الشيخ القصبي..

وكيف اختاره السلطان وهو لا ينتمي إلى أصحاب الوظائف الكبيرة.. مجهول للناس؟؟

يلقى الشيخ سؤالًا يثير به أسئلة.

«وما أدرانا يا مولانا.. ربما غفل عمن يعرفهم من أشرار وفجرة.. وهداه الله إلى الزيني بركات..».

«لن يقنعه بولاية الحسبة إلا أنت.. أنت يا مولانا والبركة فيك..»

يميل الشيخ «أبو السعود» هامسًا..

«اللهم وَلِّ علينا خيارنا ولا تولِّ علينا شرارنا..».

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

الأربعَاء.. عاشر شوال

عندما سمعت بذهاب الزيني بركات إلى الجامع الأزهر، ليخطب في الخلق، قلت والله لا تفوتني رؤية وجهه أبدًا، ظننت أنني الوحيد، وعندما ذهبت لم أجد لقدمي مكانًا وكأنه يوم الحشر.. قلت لنفسي.. من أين جاء هؤلاء؟؟

يميل الصفدي بائع العطور في الحمزاوي، أحسن من يستقطر الزيت من السوسن، يُلخص ويركز روح السوسن، يبسط يده فوق صدره.

أنا شفته..

إليه ينظرون..،

«يا سلام على التقوى.. يا سلام على الصلاح.. كل ما قاله لا يصدر إلا عن رجل ابن رجل، مثله لم يخلق لينحني أمام جبروت أو سلطان..»

محمود اللبان يسأل..

«أهو أسمر قصير.. سمعتهم يقولون إنه أسمر اللون، كبير اللحية؟؟»

«أبدًا وجهه كأي وجه منا..»

يضحك المعلم مرشدي،

«فأل الله ولا فألك.. أقصد أنه يشبه خلقتك أنت.. خلقتك العكرة..»

يعود جادًّا..

«رأيته يركب بغلة المحتسب في الطريق فلم أحكم.. أهو قصير أم طويل؟ لم أره فوق منبر الأزهر..»

هنا يقول عمرو بن العدوي، وحبات مسبحته تتدافع بسرعة..

«قلت إن الروح لا تكرهه يا معلم..»

«أي والله يا شيخ عمرو..».

جاء صبي المعلم الصفدي يحمل صينية مثقلة بأكواب الخروب، يمسك عمرو كوز الفخار بأصابعه، تتسرب رائحة المشروب إلى برودة الهواء، من عادات الصفدي شرب التمر هندي، والخروب والليمون في قرارة أيام الشتاء، يقول: هذا يفتح

دروب القلب، يشرح الصدر، شفتا عمرو تتمتمان بأدعية قبيل شربه، تظل نظراته فوق الوجوه لحظات، تتراجع بسرعة منطوية تحت جفنيه المسدلين، لا يتكلم كثيرًا إنما يصغي، مع أمثالهم لا يخشى هفوة تشي به، كل آرائهم تجيء على ألسنتهم بدون حرج، لا يضطر إلى إلقاء جملة تبدو عارضة، مستترة، الغرض منها توجيه الحديث في طريق بعينه، برودة الخروب تنفذ إلى أطراف جسمه، مر النهار صعبًا، ليلة أمس لم ينم الخلق، الدكاكين لم تغلق لحظة، أصحابها يجلسون أمامها، الأمراء أغلقوا بيوتهم، دقوا الطبلخاناة وقتًا أطول من المعتاد بعد العشاء حتى ارتجت المدينة، بينما تجيء الأخبار وتروح كموج البحر الكبير يلمس صخر اليابسة ثم يرتد عنه، «الزيني نزل من القلعة» «الزيني يطلع الآن إلى قاعة الدهيشة بالقلعة»، «أبدًا.. الزيني لم يغادر بيت الأمير قاني باي»، في الفجر طارت الأخبار، أرسل الشيخ «أبو السعود» في طلب الزيني بركات، مجاور أزهري من مجاوري الأزهر الشبان سعى إليه، صحبه إلى كوم الجارح، حيث اختلى الزيني بركات بالشيخ «أبو السعود»، عمرو لم يهدأ، لن تفوته شاردة أو واردة، لا تمر عليه نظرة ذات معنى إلا يدركها، ضحكة غريبة الإيقاع لا بد أن يرصدها، أي نكتة يقولها واحد من الخبثاء، هؤلاء الذين لا هم لهم ولا شاغل في مثل هذه الأحوال إلا القعاد على أرضية الأسبلة، وأمام دكاكين المشبك، والسنبوسك، يضحكون، يسخرون، عمرو يعلم أنه ليس بمفرده، هناك من يرقب الخلق معه، يرقبه هو أيضًا، يرفع عنه التقارير إلى مقدم بصاصي القاهرة، عندما أخبره المقدم نفسه بهذا تقلب على جمر، تساءل كثيرًا.. من هم؟؟ حاول الاستدلال على واحد منهم، ظن الظنون لم يستطع فآثر صرف الفكرة، لكنها تغيب، تحوم دومًا، لو رفع أحدهم حادثة وقعت على مرأى من عمرو، ولم يبلغ عنها، هنا يتعرض للمساءلة، يتهم بالغفلة، مجاملته البعض على حساب الآخر، ليس أمينًا فيما ينقله، ما يسمعه، يزعق مقدم البصاصين، يستدعيه، يقابله بنفسه «أنتم لا تعرفون ما ألاقيه بسبب غفلتكم، السلطان ينزعج انزعاجًا شديدًا، لا ينام ليلة بأكملها لمجرد واقعة مرت على واحد من رجاله، ألستم عيونه، ألستم آذانه؟؟ إذا عميت عين، طرشت أذن، كيف يعرف أحوال الخلق إذن؟؟ كيف يعدل في الرعية، حادثة صغيرة تمر عليك تبدو لعيني المهمل غير ذات أهمية، لكنك لا تدري، لا تعلم ما يتسبب من ورائها؟ في زمن سالف الذكر السلطان أشرف قايتباي تآمر عليه بعض الكبار، هل تدري كيف تآمروا؟ كأنما يخافون عيون السلطان، كبير البصاصين وقتئذ بلغ حدًّا من الدقة والقدرة على استبصار الأمور ما جعله يكشف كل مخامرة أو مؤامرة على السلطان، كيف استمر السلطان قايتباي، كيف عاش زمنًا طويلًا فوق عرشه؟ ثلاثون سنة كاملة، بمهارة بصاصيه، يقظتهم، همتهم، لجأ الأمراء إلى حيلة جديدة، يخرج الواحد منهم إلى خارج القاهرة، كأنه يتمشى، يستنشق الهواء عند برك الرطلي، في بولاق، بين أشجار الأزبكية، في نفس الوقت، وقت متفق عليه من قبل، يبدأ الأمير المشي من اتجاه الطريق المقابل، يلمح الواحد منهما صاحبه، يزعق عليه، يصيحان كأنهما لم يريا بعضهما منذ زمن طويل، ويتبادلان حديثًا موجزًا مختصرًا سريعًا جدًّا يتفقان فيه على عظائم الأمور، ثم يفترقان، من يخامره الظن، من يشك هنا؟؟ من تراود عقله أدنى فكرة أو شك؟؟ ولكن الأمر لم يمر عند الشهاب

جعفر بن عبدالجواد، أذكى من تولى منصب كبير البصاصين في تاريخ الملوك والسلاطين، لا يفوقه إلا الشهاب زكريا بن راضي، أدرك المرحوم جعفر بواسطة عجوز تبلغ الثمانين، هكذا ظاهرها، لكنها في الحقيقة امرأة لم تتجاوز الأربعين، جعفر أول من استحدث ضم العجائز إلى البصاصين وتعليمهن الشحاذة ثم جلوسهن في الطرقات العامة، بجوار الأسبلة، بجوار المقابر، أمام البيوت يطلبن حسنة أو صدقة، لكنهن يرصدن الشاردة والواردة، المهم.. أدركت هذه البصاصة ما يتم كل يومين أمامها، طريقة اللقاء بين الأميرين، كل منهما يلقى الآخر فيصيح عليه: «لم أرك منذ زمن...» قيل وعلم هذا عند ربي كاشف الغيوب، إن المرأة البصاصة كانت عمياء، أدركت الأمور كلها عن طريق أذنيها، من هذه الواقعة الصغيرة كشف المتآمرون، كبسهم الشهاب جعفر في الليلة السابقة على شروعهم في الركوب على الأشرف قايتباي، رحمه الله، اقرءوا التواريخ يا ناس، أنتم عيون العدل، أنتم العدل نفسه، كيف تهملون، كيف تدعون أمرًا يفوتكم... كيف؟؟».

قام المعلم الصفدي..

«نحمدك يا رب، جرت الأمور كما نشتهي..»

يبحث الشيخ القصبي عن عصاه..

الليلة في الحمام إن شاء الله.. نغطس في الماء الساخن، نتطهر حتى نلقى المحتسب الجديد أطهارًا أبرارًا.. عند مروره علينا..

محمود اللبان..

«أنت تبغي استرداد عافيتك.. وطرد الرطوبة».

تترقرق الضحكات، تهتز اللحى، يميل الليل بسواده، يحوي النهار المولي، يودعون بعضهم بعضًا..

«ربما جئت.. عندي شوق إلى المغطس..»

«المغطس.. والمكبساتي يا شيخ عمرو..»

يضحك عمرو ضحكًا سريعًا، ترتعش أصابع يديه مرة واحدة، أصغى إلى مقدم بصاصي القاهرة، تحدث إليه معنفًا عندما فاته نقل حوار دار بين ثلاثة من مهاجري الشوام، من لحظتها أدرك أنه تحت رقيب عنيد، أحد هؤلاء، المعلم الصفدي، اللبان، ربما الشيخ القصبي نفسه، ما عليه، لن يشغل عقله بهم، لماذا يتساءل أيهم يراقبه؟؟ سيدعوه المقدم، يسأله: لماذا فكر في الوقت الفلاني بمن يراقبه؟؟ لن يشغل نفسه بهذا، يا سلام، تتغير الأحوال دائمًا، وتتغير معاملة المقدم، عندما أرسلوا إليه أول مرة، مشى بعدها في الطرقات والارتياح يغزوه، أطرى المقدم صلاحه، كم من أزهريين فسدوا، أخبره أنه يعرف حاله كله، يعرف أنه لا يعيش إلا على جراية الأزهر، لا يصله درهم من بلدته، بل هو في أشد الحاجة إلى دراهم يرسلها إلى أمه العجوز، يومها أخبره المقدم باسم أمه وهو أمر ينساه عمرو أحيانًا ولم يذكره

مخلوق، ليس هذا فقط، بل أخبره المقدم عن عمرها، هي نفسها لا تدري في أي عام جاءت إلى الدنيا، ارتج على عمرو، أصغى، كيف يضربها زوجها الذي اقترنت به بعد وفاة والد عمرو؟؟ تعيش الآن في تكعيبة بوصٍ، لو جرفتها مياه النيل أو الأمطار لماتت غرقًا، ربما تموت عريًا وبردًا، عمرو تغيب عنه أخبار أمه بالأشهر، قال المقدم إنه سيوافيه بأحوالها كل أسبوع مرة، ليطمئن، يمكن موافاته بأدق أخبارها يوميًّا، لكنه لا يرغب أن يشغل باله، أخبره المقدم بعدد المرات التى قرأ فيها القرآن، كل صباح، في عز البرد، يذهب إلى بيت كبير من التجار، يتلو الآيات البينات، يرسل إليه الرجل طبقًا به قطعة جبن حالوم وفول مدمس ملء قبضة اليد، وكوز من لبن الماعز، ونصف درهم.

«تلاوة القرآن يا عمرو في بيوت الأعيان لا تليق بمجاور أزهري، إنها صناعة الفقهاء العمي، أنا شخصيًّا لا أرضاها لك، لا أرتاح إلى هذا، يقلقني جدًّا.. صدقني يا عمرو يضايقني وأنت طالب أزهري، ربما أصبحت في يوم ما، وهذا يصح بإذن الواحد الأحد الفرد الصمد.. ربما صرت قاضيًا كبيرًا، تفصل في أمور هؤلاء الذين يرسلون لبن الماعز والفول المدمس لتفطر، لتسد جوعك، بإذن الله سوف نساعدك نحن في أن تصبح قاضيًا.. رئيس ديوان.. شخصًا له هيبة ومكانة، إنما دعنا في حالك الآن.. هل ترتاح إلى هذا.. لا.. لا أظنك ترضى.. لا.. لا لا يا عمرو اعتبرني أنا شقيقًا لك. لا تخف عني أمرًا.. حتى مشاكلك الخاصة، الخاصة جدًّا.. بح لي بها وأنا.. أنا وحدي أساعدك في حلها.. ثق بي.. ثق بي أرجوك..»

بجوار عمود الرخام الثالث من يمين الجدار القديم في الأزهر، يقول الأزهريون إن ثمة طلسمًا مدفونًا تحته يمنع العصافير والثعابين والعقارب من الجامع، قعد أوقاتًا طويلة، يناجي أمه العجوز، أمه تقلع جذور الفجل والبطاطا من غيطان بنها، والبلاد المجاورة، توقد الأفران، تنقل الحطب، تحزم البوص، تحش النجيل، لم تعرف راحة، لم تغمض عينيها ليلة على هناء شحيح، من مدة عرف بسفر شيخ زاوية العميان إلى بنها، جهز زوادته وبغلته وعزم أمره، عمرو وقتها لا يملك درهمًا، الشيخ سيمضي إلى البلدة التي تعيش فيها أمه، سيعرف الناس، وتعلم أمه بمجيء رجل من مصر، من الأزهر بالذات، ابنها لم يرسل معه حتى حفنة سكر أو قماشًا أسود تلف فيه جسمها عامًا كاملًا، ربما تظنه ميتًا، دهسته خيل المماليك، راح في وباء، ليلة بطولها لم ينم عمرو، يضيق به الحال، حجر هائل كجبل المقطم يزحف إليه وئيدًا. دار على أصحابه في الرواق، يجلس إلى الواحد منهم، خوض في أحاديث قريبة وبعيدة، يضحك مع الضاحكين، إذ يهم بالسؤال، ينعقد لسانه، يرتج صوته، تخونه الحروف والألفاظ، يقول هذا لا يصح، سأمضي إلى آخر، يعبر صحن المسجد، لن يدور لن يلف، لكنه يجلس فينعقد العرق فوق جبهته، يختلط عليه الأمر، تخونه الألفاظ، تشنق المعاني على لسانه يدهمه الخجل، هذا الوقت، يذكره الآن بمرارة وحزن كعفار يهب من الجبل يعكر يومًا صافيًا، لم يعرف وقتئذ واحدًا من المعلمين أو أصحاب المتاجر أو رواد الحمامات الذين يجلس إليهم الآن، يستمع ما يقولون وينقله، وقتها كان خجولًا، حييًّا، لم يجرؤ على اقتراض دراهم يرسل بها لقضاء حاجة أمه، حمل جرايته من الخبز الجاف، في النهار، يقف المجاورون أمام

الأزهر يبيعون جراياتهم، أو يستبدلون بها الغموس، خرج إلى الطرقات بعيدًا عن الجامع، بادله أحد المارة رغيفين بقطعة جبن قديمة، في المغربلين والصنادقية، والعطارين، والفحامين، وأهالي الجودرية وسوق الشرابشيين والمارة في شارع الصليبة، والمتسكعين عند باب الوزير، كلهم هزوا رءوسهم، قالوا «على الله»، وكلما اقترب الليل يزحف سواده إلى القلب، رأى جبل الحجر أكثر قربًا منه، تعثر الهواء في صدره وكبا، فوق حجر قديم قرب جامع الحاكم عقد ساقيه، رفع يده، انساب صوته عاليًا بالآيات البينات، نزل البرد ونفذ إلى حشاه، يرى عيني أمه فتوشك عظامه أن تضيء بما يشتعل فيهما من هم، اقترب النهار، سمع صريرًا، أبواب الحارات تفتح، طلعت الشمس وفي يديه أحد عشر درهمًا، ألقاها إليه مارة مجهولون، لم يروا وجهه، لم يعرفهم هو، اشترى سكرًا، وحلاوة معقودة، وفي زاوية العميان شق فؤاده نصل ثقيل..

«الشيخ سافر في الفجر يا عمرو..»

ها هو مقدم البصاصين في القاهرة:

«عمرو.. لا أقبل هذا لك.. لا أرضاه لك..»

في البدء بدا رقيقًا، آه، يهز عمرو رأسه، لكل أول آخر، خجله من مخالفة الخلق، أين هو؟؟ ابتعاده عن الناس، أين ذوي؟؟ ما يخشاه الآن، غضب المقدم، بعد الهفوة الأولى عفا عنه، الثانية من يدري ماذا يجري؟؟ تنفصل الرأس عن الجسم، ما أسهل الأمر، ربما قتلوه بقية عمره حيًّا، يصير فضيحة متحركة تشير إليه الأصابع، يطرده المشايخ، الحمد لله فحتى الآن لم توجه إليه نظرة، لم يقل له أحد كلمة ذات معنى، ها هو النهار يولي، لحظات نزول الليل يحلو الكلام، تكثر الفضفضة، أمام دكاكين باعة الحلوى، الترزية، في زاوية سيدى الحلوجي جماعة من قصر الشوق يسهرون بعد صلاة العشاء، يفسرون الآيات، الأحلام التى طالعتهم في المنام، لا ينفذ غريب إليهم، لكن مجيء عمرو المتكرر إلى الزاوية، أداءه الصلاة، تأدبه عند إصغائه إليهم، طول صمته، هزة رأسه لا تنقطع بالموافقة على ما يقولونه من آراء، يطالعهم بمظهر تلميذ يحرص على الاستفادة من رجال خبروا الحياة ألموا بالعلوم، الأيام قربته منهم، لو تغيب ليلة يسألون عنه، المقدم يثني عليه دائمًا، يشيد به لنجاحه في النفاذ إلى هؤلاء، حديثهم خافت على غير عادتهم، توشك أذناه على سماع جديد، يخرج عن مألوف ما يرفعه، ربما يبلغ السلطان، يقترب عمرو من المقدم أكثر، يبدي رضاءه، يثني عليه، منذ فترة لم يره عمرو، يضن عليه بلقائه، تقاريره يتسلمها نائبه الحبشى، يتساءل عمرو، هل غضب عليه، هل يدبر له أمرًا؟؟ ها هو المعلم حليم الدين يمط شفتيه..

«والله يا مشايخ فرحة الناس لا تأخذني...»

يتمتم عمرو..

«أي والله.. أي والله..»

«الأيام علمتني الحذر، لم نر منه ما يسر أو يضر، فلم هذه البهجة كلها، ثم..»

تنظر إليه العيون..

«ما أتاه اليوم لا يعجبني..»

بسرعة تخرج كلمات عمرو..

«لماذا يا شيخ حليم الدين؟؟»

آه، لماذا التسرع؟؟ هل بدا في سؤاله ما يريب، أحدهم على وشك أن يسأل نفس السؤال، المفروض ألا يوجهه هو، ما زالت عنده خفة، لو الجمع كبير لسجلت عليه زلة من أحد الذين يعرفونه ولا يعرفهم هو، لكن، ما أدراه؟؟

ربما تتنصت الجدران، ربما يرقبه أحد، يقرأ ما تنطقه شفتاه بدون الحاجة إلى سماع حسه، يعلم بوجود هؤلاء البصاصين، ألم يقل مقدم البصاصين، «لدينا طرق لا تخطر على بال إنس أو جن نعرف بها الحقيقة، حتى لو همس بها. المرء وراء جبل قاف». آه.. لا بد من التزام الحذر، بهدوء ليرقب رد الفعل بينهم..

أول الليل الأربعَاء عاشر شوال:

أخيرًا ها هو مبروك، يحمل لفافة أوراق، طال ترقب زكريا لوصولها، في الصباح سلمه مبروك تقريرًا عاجلًا، أعده مقدم بصاصي القاهرة، يحوي حركة الزيني بركات، كيف انتقل من بيته أول الفجر بصحبة طالب أزهري إلى كوم الجارح، قضى مع الشيخ «أبو السعود» زمنًا خرج بعده من البيت، ومع أول مجيء الشمس إلى الحواري والدروب، طاف مناد جديد لم يسمعه الناس من قبل، قيل إنه أحد خدم الزيني، نقل إلى أهل المدينة ما عزم عليه الزيني بركات، من ذهاب إلى الأزهر الشريف، عنده كلام سيعلنه على الخلق، مناد جديد لا علم لزكريا به، صحيح من حق المحتسب إطلاق مناد خاص من عنده، ينقل إلى الناس رغباته وأحكامه، هذا ما تنص عليه الأصول، لكن الواقع يكذب هذا، يلغيه، جرت العادة منذ عصر الشهاب جعفر كبير بصاصي الأشراف قايتباي أن يتبع جميع المنادين لكبير البصاصين، ترسل إليه نصوص النداءات، طريقة نشر الحادثة أو الخبر قد ينتج عنها أمور جسام، بل إن كبير البصاصين ينبه بضرورة تحمس المنادين عند نقل خبر بعينه أو تصنع الحزن والفتور لحظات نشره، كلها عوامل تؤثر في الخلق، هناك مناطق وخطط في المدينة يجب ألا يطوف بها المنادون، كيف يظهر مناد لا يعرفه زكريا؟؟ كيف لا يراجع نص ما يقوله؟؟ ثم إن الزيني بركات لم يحتسب بعد، كيف يعطي لنفسه الحق في مخاطبة الناس بلا رقيب، بلا وسيط؟؟ هكذا يبدأ أيامه بإخلال الأمور، يعبث بالنظام، في بداية النهار كان زكريا مرهقًا، الليلة السابقة قضاها بعيدًا عن حريمه، عن وسيلة الجارية الصغيرة، لم يمض عليها أكثر من أربعة أيام في بيته، حاول النفاذ عبر الأيام، أي أحداث مقبلة؟؟ هذا الزيني لا يثير اطمئنانًا، منذ سماعه اسمه، ولا يجيء من ناحيته إلا عجائب الأمور، قبيل الفجر أرسل إلى مقدم بصاصي القاهرة يأمره بإعداد ثلاثة مطالب مفصلة، جمع أقصى ما يمكن من معلومات وبيانات عن الزيني بركات وإرسالها إليه أولًا بأول، ثانيًا: استنفار كافة بصاصي القاهرة لتلتقت عيونهم إلى كل صغيرة وكبيرة خلال تجمع الناس،

إصغاؤهم إلى ما يقوله الزيني، المطلب الثالث: أن يرتفع عدد التقارير التي ترسل إليه في مقره إلى أربعة وعشرين تقريرًا بواقع تقرير كل ساعة، على غير المعتاد، وهو إرسال تقرير في أوقات الصلوات الخمس، ثم تقرير مفصل بعد العشاء يتضمن أحوال القرى والبلاد، إن ما طرد بقايا النوم من عيني زكريا، ما جعله يأكل بسرعة، لا يفكر في وسيلة الشامية ابنة الستة عشر ربيعًا، ما جعله يهمل تهذيب لحيته، لا يشرب الحليب الطازج المحلى بالسكر، تساؤله الملح، ما الذي ينويه الزيني بركات؟؟ ما الذي سيقوله للعامة، بأي لسان يتحدث؟؟ هل هناك سابقة لما سيفعله؟؟ أبدًا، زكريا يعرف الأحداث والتواريخ القريبة، والبعيدة لم يتحدث محتسب في جمع من الناس أبدًا، بل لم يسبقه أي أمير، كبيرًا كان أو صغيرًا في هذه الفعلة، تحدث العظيم إلى العامة مباشرة يفقده هيبته، يضيع مهابة الحكم والحكام، يتطاول العامة على الكبار، إذا كان ناظر الحسبة يتكلم إليهم، لماذا لا يفعل مثله الأمراء؟؟ ألم ينبه أحد إلى هذا؟؟ أول النهار دخل زكريا إلى قاعة الثياب البديلة، غرفة طويلة، ضيقة، تحوي كل ما يخطر على بال من ثياب، عمائم سلطانية، وأخرى لا يرتديها إلا مقدم الألوف، سلاريات، معاطف فرو، سراويل شامية، جلاليب بدوية، فرجيات لمشايخ الأزهر، قفاطين، جلاليب رخيصة لبائعي حلوى، وجزارين، وتجار فاكهة، زكريا يعرف مقصده هنا، انتقى جبة بيضاء متسخة، عمامة خضراء صغيرة ملفوفة بشال أحمر، أمسك عصا من سعف النخيل، خرج من الباب الخلفي للبيت درويشًا من أتباع سيدي مرزوق تلميذ سيدي أحمد البدوي، مشى متمهلًا، يتوقف بين الحين والحين، يطلق صيحة قوية،.... الله حي.. الله حي مدد.. مشى على مهل يتبعه جيران الأخرس، أحد رجاله الأشداء، دائمًا يسافر معه يحميه من غوائل الطريق، ما تخبئه النفوس من حقد، ربما تجسد في خنجر ينسل محاولًا إيجاد الطريق إلى قلبه، برغم همه وحيرته، ابتهج كعادته إذ يلقي نفسه بين الناس، لا يعرفه أحد، حتى لو التقى به أقرب المقربين، مقدم البصاصين نفسه، لن يتبينه، أي واحد من هؤلاء في متناول يده، أليس هو عيون السلطان وآذانه؟؟ آلاف الرجال والنساء والأطفال يتبعونه، لا يعرف بعضهم البعض، ينقلون الهمسات والحركات من البيوت والربوع، من كل شبر في المدينة، إذا شذ شهيق إنسان عن البقية عرفه، نُمِيَ إليه بواسطتهم، لكنه عندما دخل الأزهر ارتاع فعلًا، لم يحدث أن رأى مثل هذه الجموع، انتابه غم، كيف يسكت السلطان، أيدرون العاقبة من تجمع كل هؤلاء؟؟ ما يجري خطأ فظيع. لا بد من تنبيه الكبار والسلطان نفسه، السكوت على الأمر ربما أدى إلى استفحاله، انتشاره، هذا ما لا يسمح به قط، هذه سابقة تنذر بعواقب لا يعرفها الجهلاء، ها هو زكريا الآن يفرد اللفافة التي أتاه بها مبروك.. تقارير مقدم بصاصي القاهرة، جمع فيها وأوجز وأوضح خلاصة ما تلقاه من عيون وأرصاد طوال اليوم.

فوق منبر الأزهر القديم وقف، المسجد يفيض بالخلق من كل لون وصنف زعقوا فارتجت الأعمدة، وكادت المآذن تميل، بدا وكأن كل قوة ستعجز عن إسكاتهم، لكن الزيني رفع يده اليمنى، مفرودة الأصابع (يده عادية، أصابعه خمس)، وكأن قوة سحرية تسيل منه، طاف الصمت مغلقًا أفواه الناس، قيل فيما بعد إنه أوتي مقدرة

على جعل الخلق يصمتون، ولو أراد أن يذرفوا الدموع لفعل، سرى صوته بين الناس هادئًا، قال ما معناه:

«أولًا» إنه لم يكن يقبل الحسبة أبدًا، لولا إطلاعه الأمراء على ما ترتضيه روحه لراحة العباد، ولولا الشيخ العارف بالأصول والفروع، الزاهد الناسك ولي الله «أبو السعود»، لما قبل أبدًا..

(هنا علا زعيق الناس، رددوا «ما نريد إلا أنت» «ما ينفع إلا أنت»، إلى غير هذا من النداءات التي تؤدي المعنى نفسه، وإن اختلفت الجمل والألفاظ، عادت يده تهتز بتؤدة فاستكان العامة وأصغوا).

«ثانيًا» أنه لا يخشى إلا الله، كيف يلقى ربه إذا ظُلِم مخلوق من قبل أحد نوابه وهو لا يدري؟ هذا ما لا يطيقه ولا يمكنه سماعه قط، من هنا، لو وقع ظلم على إنسان، فقير أو غني، ناء أو دان، عليه بالتوجه إلى نائبه إن لم يقتص من ظالمه بعد شرح قضيته وظهور العدل فيها.

«ثالثًا» لن يمكث في القاهرة، إنما سيلف الوجهين، فقد أضيفت إليه اليوم فقط نظارة حسبة الجيزة، سيدور ظاهرًا أحيانًا ومتخفيًا حينًا آخر، يطلع على أحوال الناس، أما بيته في القاهرة، فمفتوح أطراف الليل وآناء النهار لكل ذي حاجة، لا حاجب بينه وبين الناس، صغيرهم أو كبيرهم، على اختلاف مراتبهم، لو ظُلِم أحد من البشر فليقتص منه على مرأى من الجميع..

«رابعًا، وهذا خطير»

«في كل حارة، ودرب وقرية، وبلدة وأقطاع، ستكون له عيون يرصدون ويتعسسون المظالم أينما تقع، يبلغونه بها»

(بعد خروجه من الأزهر، شق طريقه راكبًا بغلة عالية بسرج متواضع، وكنبوش عادي، (أثار هذا رضاء الناس عنه، قالوا: انظروا، كيف العدل والحكام!)، استمر موكبه حتى وصل سوق الشرابشيين، قابلته المغنيات بالرقص ودق الشبابة والدفوف، وانطلقت له الزغاريد من الطيقان، بين يديه مشى ثلاثة من نوابه الجدد الذين لم يطلع على وجههم إنسان (جاري البحث عن أصولهم)، أحدهم يحمل سيفًا، وآخر يحمل ميزانًا، وصنجًا، والثالث يلوح بمصحف كبير يلثمه بين الحين والحين، خلف الموكب مشى عبدالعظيم الصيرفي، أما الزيني فراح يهز رأسه هزًّا خفيفًا وعلى وجهه خشوع وتقوى.

لفتة أولى:

أجمع رجالنا على وجود طالب أزهري، بقي طوال الركب على مقربة من الزيني بركات، بدا متحمسًا، بالكشف عنه، اتضح أنه هو الذي صحبه من بيته إلى زاوية الشيخ «أبو السعود» في كوم الجارح، واسمه «سعيد الجهيني».

لفتة ثانية:

عند اقتراب الموكب من جامع الحاكم، قبيل عبوره باب الفتوح حيث يمكن لعيني العابر رؤية أسوار سجن المقشرة، ومدخله العلوي، ظهرت امرأة سمينة، متقدمة في العمر، ترتدي السواد، تتشح بطرحة قديمة، شقت لنفسها طريقًا حتى وقفت أمام بغلة الزيني، زعقت زعقة عظيمة، حتى حظيت بانتباه الخلق، طلع عليها طلوع لا يهتف إلا بكلمة واحدة.. يا لئيم يا بن اللئيمة.. وعندما تنبه العامة هجموا عليها ذابت كفص الملح، وجاري الكشف عنها، وتحري حقيقتها، من هي وما أصلها؟

لفتة ثالثة:

أطلقنا أحد البصاصين المهرة في أثر الزيني لرسم صورة دقيقة وافية لملامحه، سننقلها إليكم فور إتمامها لإطلاعكم عليها، وإجراء اللازم من فحوص.

الآن يطل زكريا من طاقة المشربية، الشتاء يتدثر بليل أسود بارد، نور يلمع في الناحية المقابلة، تسهر وسيلة، تخشى مجيئه فجأة، الليلة لن يحتوي نهديها، لم ير مثلهما طوال عمره، صلابة وليونة، رقة وقسوة، خوف ونشوة، إقبال وانفلات، اقتراب وابتعاد، كرتا عجين أملس طوع راحتي يديه، يهوى نهودًا لم تمسها يد بشر هكذا يشترط مع عارف شيخ دكة الرقيق، عارف أحد عيونه وأخلصها، عندما جاءته وسيلة فرح بها فرحًا عظيمًا، استوثق أولًا أنها قدمت فعلًا من بلاد الروم، ربما دسها عليه أمير ابتغاء غرض خفي، قضى ليلته الأولى معها مبحرًا في محيطات لم يطأها إنس ولا جان، يرقب الألم الأول اللذيذ، رعشة تترقرق في عينين واسعتين، فكر في تجنب العمل أيامًا ليرقبها، يرتشف رحيق العمر الأول، جاء هذا الزيني فجأة، أقصاه عن الآهة. وحلاوة الرعشة، ها هو يواجه سابقة لم يطلع على مثيلها، عليه الحذر، والثبات، سيذكر فيما بعد أنه تصرف بعقل، بحزم، ما يقوم به الآن سيراه الخلفاء فيستنيرون ويهتدون، منذ قليل أرسل في طلب شهاب الحلبي، سيحضر القلم والحبر الذي يجف بعد مدة بعينها، مدة تكفي لوصول الرسالة إلى مقصدها، وقراءتها، ثم يجف المداد، يتلاشى، تعود الورقة بيضاء بعد يومين تضيع الورقة نفسها، تطير كبخار صباح أضاعته شمس قوية، حدث في زمن السلطان فرج بن برقوق، أن أطاحت رسالة برأس كبير البصاصين، الآن لا يمكن لمناد أن يواجه زكريا بكلمة واحدة مدونة، تناقش في هذا الأمر طويلًا مع كبير البصاصين، يحسن بالبصاص الذهاب بنفسه إلى الأمراء ونقل الموضوع شفاهة، خالفه زكريا، الحديث لا يروح من الذهن، ربما شهد عليك جمع من الناس فأطاحوا بك، لكن ما الرأي لو وجد نوع من المداد يختفي ويتلاشى بعد بلوغ المراد من الرسالة، لم يقل لكبير بصاصي الشاه أنه حصل فعلًا على هذا المداد، هذه وسيلة ينفرد بها ولا يفرط فيها بسهولة، كبير بصاصي الشاه أنكر وجود مثل هذه الطرق، الزمن الذي يجيء بمثل هذا المداد ما زال نائيًا، لكن الليلة ستصل رسائل منه، إلى الأمير قنبك، وقاني باي، وقوصون، وطومنباي، وكافة كبار الدولة، سيشير إلى ما أتاه الزيني من أمور منكرة تخالف أصول الحسبة. تتعدى على وظائفه هو خاصة بعد إشارة الزيني إلى إطلاق عيونه وأتباعه. هل سيستحدث نظامًا آخر للبصاصين؟ الدم يتدفق مغتاظًا في أوردة زكريا وشراييه ربما يعلم اللئيم ما يتبعه أحد المهراجات في الهند لا يكتفي بنظام واحد للبصاصين بل لديه ثلاثة نواب. يتبع كل منهم فرقة خاصة من

البصاصين. وهكذا يضمن استقرار الوضع. ألا ينفرد بصاص واحد بالأمور، وهذا الترتيب يعجب زكريا فيه دهاء من المهراجا، فكر في السفر إلى الهند ليطلع عليه، أو يرسل أحد نوابه المقربين لنقل تفاصيله، لكن مجرد سفر نائبه سيثير الشكوك، ربما ترامى إلى السلطان خبر الترتيب المتبع، ينقله إلى السلطنة، هنا يضيع زكريا، لا ينفرد بالرأي، بالمشورة لكن كيف يحصل الزيني على هذه المعلومات؟؟ زكريا يملؤه غيظ، حتى الآن لم تصله معلومات كافية عن الزيني، ربما يلاقي مقدم البصاصين صعوبة في جمع ما يلزم، ربما يغفل الغبي عن أهمية الطلب، لا بد من معرفة عادات الزيني، ساعات نومه، نسائه، إلى أي البلاد سافر، كم لغة يجيد، عاداته في الفراش، لا بد من استقصاء أمر المرأة البدينة والقبض عليها مهما كلف الأمر، أيضًا الشاب الأزهري، يبدو أنه مقرب إلى «أبو السعود»، هذا يلزم له شأن آخر، سيوليه عناية، الآن، يقف في منتصف الغرفة تمامًا، يمسك وعاء مملوءًا بالحليب الساخن المحلى بالسكر، يحب شربه كثيرًا، بعد صحوه، أو الليل، يقول: أواجه نهاري بالحليب الدسم وليكن ما يكون ثم أختمه به، إنه ليس شرهًا كالآخرين، الأمير قنبك يجرع على الريق سطلًا مترعًا بخلاصة مخاصي الديوك، تنبئ التقارير أن باستطاعته أن يضاجع نساءه الأربع في ليلة واحدة، يشبع كلًّا منهن ويرويها، ولا يمل ولا يكل، مع تجاوزه الأربعين، من يدري، ربما يفضل الكوب الصباحي الآن، تبرق في ذهنه خاطرة، سيخاطب الزيني بركات رأسًا، صحيح، المفروض أن يبدأ المحتسب الصلة معه، باعتبار أن كبير البصاصين نائبه، لكن زكريا سيبادر بجس النبض، الليونة مطلوبة الآن، على ورق عادي، بمداد عادي، سيأمر شهاب الحلبي بكتابة رسالة إليه الليلة، في نفس الوقت تمضي الخطابات الأخرى إلى الأمراء.

«اللهم اجعل هذا البلد آمنًا»

إلى الزيني بَركات بن مُوسى

نَاظر الحسْبَة الشريفَة

نبدأ بأن نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة نقيمها في كل حكم، وتحاور سيوفنا جاحديها فتنهض بالحجة عليهم وهم بكم، ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله أشرف من ائتمر بالعدل والإحسان، وأعدل آمر أمته بالوزن بالقسط، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه احتسبوا في سبيل الله جل عنائهم، وسلم تسليمًا كبيرًا.. وبعد..

أعلم أننا بدأنا إليك بالمراسلة، وأردنا إطلاعك على ما تحويه المكاتبة، ابتغاء أمن العباد، في سائر النواحي والبلاد، لأنكم لن تطلعوا على خافي الأمور، إلا بما نطلقه بين المسلمين من عيون، ولن تصغوا إلى ما يدور من تافه الهمسات ذات الغرض الخطير، بين الأمير والحقير، إلا باستنادكم إلى جهتنا، والاستعانة بنا، فهذا ما سار عليه نظام السلطنة منذ أن وعينا وأدركنا، وجرت العادة ألا يتولى هذه الأمور التي تدرأ الصغائر والكبائر من الشرور، إلا نيابتنا التي يخدمها آلاف الخلائق ممن لا حصر لهم ولا عد، وهم في خدمة السلطان ورجاله لا ينامون، وحفاظًا على راحة الرعية يسعون، يكدون ويشقون، من هنا رأينا الإشارة عليكم، وإعلامكم بما يجب

أن يتم من جانبكم، وهو ضرورة إرسال مطلب مفصل إلينا، كل ليلة، نطلع منه على ما تم من مخالفات ضبطتموها، حتى نعرف من ارتكبوها، فندرجهم في زمرة الأشقياء، ونحمي الأتقياء والأولياء، كما نرجو الاستعانة بمن يتبعونا من منادين، لمراجعتنا ما يقولون، ما يوجهونه إلى العامة وينقلون، فهذا الأمر الذي يبدو لكم تافهًا حقيرًا تترتب عليه عواقب منها الضار والخطير، يمكننا شرحها لكم عند أول لقاء بيننا لأننا نهدف إلى ما فيه سلامنا، وللعلم، فهذا ما درجت عليه النظم والرسوم، منذ وقت غير معلوم، وما نقوم به من زمن، وما سنؤديه إذا ما امتدت بنا فسحة الأجل، وليست هذه نظمًا من اختراعنا إنما أصول درج عليها أجدادنا..

ولكم سلامنا

عاشر شوال 912 هجرية.

كبير بصاصي السلطنة

الشهاب الأعظم

زكريا بن راضي

بعض مما وجهه كبير البصاصين

«الشهاب الأعظم» زكريا بن راضي

إلى السلطان والأمراء

«وإذا أوضحت هذه المخالفات، فسأعود وأطول، غير أنني على سبيل الاختصار أوجز فأقول:

أولًا: لأول مرة، وليس لها سابقة أبدًا، يحدث أن كبيرًا يجمع عامة مصر كلهم، أسافلهم وأعاليهم، يخطب فيهم، مهيجًا جوارحهم، ولا يعلم إلا الله أي جمرة نار كان ممكنًا أن تنطلق في البلد، فتقيد ولا تنطفئ، لولا استنفار رجالي، ومحافظتهم على الأمن والأرواح.

ثانيًا: إطلاقه منادين لا يعرفهم أحد، لم أراجع النداءات، لم أرتبها ولم أطلقها الوجهة المقصودة، ولست بحاجة إلى سرد دلالات هذا الأمر الخطير..

ثالثًا: إذعانه، تلويحه بقرب قيامه بإنشاء فرقة خاصة من البصاصين تتبعه، يشرف عليها بنفسه، وتأكد لي هذا بعد اطلاعي على مكاتبات نوابي التي لا تخطئ، والتي ترصد حياة الزيني مذ نشأته حتى الآن، كل ما يدور عنه، وقصدي من هذا سلامة الأحوال، ولا يسعني إلا التنبيه بما يصبح عليه الحال لو أن كل موظف كبيرًا كان أو صغيرًا أنشأ له فرقة من البصاصين، يوجهها كيفما شاء بلا رقيب أو سلطان، وأنا لن أسمح قط بهذا، وسأحول دونه.. فأنا ورجالي فقط عينا السلطان وأذناه.

رابعًا: تفيد التقارير أن العامة بدأت عيونهم تتفتح على الأمراء، كل منهم يقول لماذا لا ينزلون أو يخطبون فينا، هل هم أقل شأنًا من الرجل الطيب الزيني بركات؟؟

وبعد، فلا أطلب منكم إلا تبصر الأمور، وإلا سارت بعكس ما نهدف وما نبتغي، واضطرب النظام وضاع الأمن، وراح السلام.

وأشهد الله ربي، كاشف الغيوب، على صحة ما أقول.

«عاشر شوال 912 هجرية»

«كبير بصاصي السلطنة»

الشهاب

زكريا بن راضي

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

# السرادق الثاني

شـــروق نجـم الزينـــي بـركـــات، وثبـات أمْـره، وطُلوع سَعده، واتساع حظه..

نـــداء

يا أهالي مصر

أمر مولانا السلطان

بتسليم المجرم بن المجرم

علي بن أبي الجود

إلى ناظر الحسبة الشريفة

الزيني بركات بن موسى

ليتولى أمره

ويأخذ حقوق الناس منه

ويذيقه ما أذاق لعباد الله الفقراء

المساكين الأولياء

يا أهالي مصر

يا أهالي مصر

كل من وقعت عليه مظلمة

كل من سلبت منه حاجة

كل من راح ماله بالباطل

بسبب علي بن أبي الجود

عليه التوجه إلى باب

الزيني بركات بن موسى

ناظر حسبة القاهرة، والوجه القبلي

ليرد عليه حقه ماله

يا أهالي مصر..

يا أهالي مصر..

سـعيــد الجـهيـنـــي:

طال به حب هذا البيت وأهله، حجارته، أخشاب مشربياته، نقوش جدرانه، الضوء في فراغه، قاعة تلاوة القرآن في رمضان، عالية السقف، قرب منتصف الجدران نوافذ ضيقة، يطل من ورائها الحريم، يستمعن إلى الآيات البينات، آمنات عيون الغرباء، من إحدى النوافذ تطل، ترقبه، تتأمله، عيناه تحتويان قطع الرخام الصغيرة الملونة ترصع أرضية النافورة التي تتوسط حديقة البيت الصغيرة، الحشايا الوثيرة التي تحول بين صلابة الجدران ورقة بدنها، سماح تطأ الممرات بقدميها عندما يخلو البيت من الزوار، راحة خفية في صدر سعيد، لا يعد هنا من الغرباء، لحظات إصغائه إلى الشيخ ريحان، يراها بعيني قلبه، تروح وتجيء في إحدى الغرف، تنظر من نافذة تضطجع إلى حشية، وسادة، منذ سبعة أشهر، ثالث أيام عيد الفطر جاءت، مال رأسه، مثقل بحيرة، بخجل، باضطراب، احتوى راحة يدها الصغيرة الدقيقة، رعشات الأمل في قلوب المنتظرين ليلة السابع والعشرين من رمضان، همسات نهار وليد، آه من ذوبان الوجد، لا يراها جسدًا ونهدين، ونحرًا وجيدًا وعنقًا، هي إلى الروح أقرب، طيف خيال، وشوشة لا تمس، سوسنة لا تقطف، عينا ملاح فيهما حيرة، في الطريق يرى الحريم، متشحات، سافرات بلا براقع يجردهن في عقله من ثيابهن، قطعة قطعة، تستند أمامه بظهرها إلى حشية ليست مكسوة بحرير، كلما جرد الواحدة منهن، عاد يكسوها، برفق، بأناة، بأصابع ترعشها نار الرغبة يسحبها، يبدو لحم الذراعين، تكور النهدين، ثم انبساط لحم البطن، يتوه عندئذ بنظراته في الفراغ، يروح بخياله إلى بيت «أنس»، يقصده أصحابه المجاورون الذين يجري المال ميسورًا بين أصابعهم، يقال إنه يحوي قاعة فسيحة تمتلئ على آخرها بحبشيات وروميات، قيل إنه توجد هنديات، في العام الماضى جاءه مال بعد نسخه كتابًا في المنطق لأحد مشايخ الصعيد، ألح عليه أصحابه في الذهاب إلى بيت «أنس»، عصر أصابعه، هز رأسه مرات، رفض، لا يدري ما الذي دفعه إلى الرفض؟ يعرفه الطلبة المجاورون، أهالى الربوع والحارات في الباطنية طيبًا، رقيقًا، متدينًا، يسرع إلى نجدة من تضيق به الأحوال، يسعى لتخليص امرأة من يدي مملوك يبغي اختطافها، يزعق مناديًا الطلبة، الأزهريين، مهيجًا الرجال، يلتفون حول المملوك، يقول عامة الناس: لو أوتي سعيد قوة قرقماس المصارع لما جرؤ مملوك على اختطاف قشرة حبة فول من سلة تحملها طفلة، لكن الله خلقه ضئيل الحجم، كثير الأمراض، إذ يرقد فوق حشيته القديمة بالرواق، يتوافد إليه الناس على اختلاف أصنافهم وألوانهم يسألون عنه، ماذا لو عرفوا ارتياده بيت «أنس»، دفعه دراهم ليمتلك امرأة بعض الوقت..

«لا يتعارض هذا مع ذاك يا سعيد..»

ينفى الخاطر والفكرة، تحوم سماح من بعيد في عقله، سره الدفين الذي أقام عليه أرصادًا دونها أرصاد، لا يمكنه رؤيتها بعيني عقله عارية، أو تقف في حمام، كل ما ترتديه قبقاب خشبي عال يمنع عن باطن قدميها الماء القذر، سماح خلاصة نساء الأرض أجمعين، منها تفرعن، عنها أخذن، إليها يعدن، في المستقبل البعيد لا يراها إلا معه، ينظران معًا من طاقة مشربية، يمشيان في حديقة، يسافران بلدًا، منذ أيام يشتد البرد، في البرد يرى

سماح موطنًا ينبع دفئًا وسلامًا.

قال الشيخ ريحان:

«هيا بنا إلى الغرفة العلوية»

طلع سلم البيت الداخلي، كأن لأنفاسها أثر تعلق في الهواء، تجسد إلى أبد خاف أن يسمع الشيخ ريحان دقات قلبه، يرى ارتجاج أمره واضطراب لونه، يتربع الشيخ فوق وسادة خضراء كبيرة، ينفث الدخان هادئًا تقرقر النرجيلة، قام نصف قومة، مال عليه سعيد..

«شتاء العام لم نر منه بردًا بعد..»

«ليس باردًا كالسنين الماضية.. لكنه في الرواق لا يطاق..»

تتوهج الحجرات، يسقط شيء ما في البيت، ربما وعاء، علبة تمسكها، الليل هنا ناعم فيه هدوء البيت، وأمن عائلي.

كاد مماليك طشتمر يطفشون في الناس اليوم.. لولا خروجنا من الأزهر والوقوف بينهم وبين الناس..

«ياه.. لم أسمع بهذا فأنا لم أخرج طوال النهار.. تقول مماليك من؟» طشتمر..

«غريب.. كان هادئًا ومماليكه لا بأس بهم.. ما الذي غيره؟»

«أبدًا.. كان الأمير خاير بك حط في حقه كلامًا عند السلطان.. وأشيع أن السلطان ينوي اعتقاله..»

«.. يا سلام.. طول عمره طشتمر متهور.. متهور.. لا يسمع الكلام أبدًا».

هنا يصمت سعيد، يبدو الأمر مسليًا، لكنه يبرره، يبحث فيه عن فضيلة ما لأنه صادر عن والد سماح، دائمًا لا يجيء اسم أمير، موظف عظيما إلا ويسارع قائلًا ومؤكدًا بوجود رابطة قوية بينهما، أحيانًا يؤكد سعيد ما يقوله الرجل بسؤال أو استفسار، كأن يقول منذ متى تعرف طشتمر يا عمي؟ هنا يتراجع الشيخ ريحان إلى الوراء، يزعق مناديًا الخادم ليحضر جمرات للنرجيلة، «يا سلام.. طشتمر ربيته أنا على يدي.. كان يجيء هنا عندي وقت أن كان مملوكًا ضعيفًا، عرفته قبل زواجه بخوند زينب امرأته الأولى»، سعيد لا يعرف أحقًا تدعى امرأة طشتمر خوند زينب، أو لا؟ إنما يقول: أظن طشتمر والأمير ملكتمر الساقي من...» لا يدعه الشيخ يتمم كلامه، يسارع قائلًا: «ملكتمر.. ملكتمر هو الذي أنصفني على موسى بن إسحق عند اختلافي معه في بعض أمور بيت المال.. استدعاني ملكتمر في منتصف الليل تمامًا، أي والله منتصف الليل، طلعت إليه في القلعة نفسها، أنا ذهبت إلى القلعة مرات ومرات هذا لم يتفق لأحد غيري، المهم أنه قبَّل يدي.. أي والله ملكتمر قبل يدي فأنا أكبر منه سنًّا قال: إنه يعرفني صالحًا تقيًّا، لهذا سيلغي أمر موسى بن إسحق تمامًا، وأذكر أنه ربت بيده على كتفي.. فأمسكت ذراعه.. بالضبط يا سعيد يا ولدي أمسكت بذراعه..».

«وعندما جاء الزيني بركات بنفسه تفرق مماليك طشتمر... بل قبض على أربعة منهم وأرسلهم إلى المقشرة»

«الزيني.. بركات.. آه.. كان المفروض أن أزوره منذ يومين..»

«الزيني بركات أرسل إليك يا عمي؟»

ياه، تسرع سعيد بالسؤال، في كل مرة يسكت، لماذا الآن لماذا الآن بالذات؟

«الزيني صاحبي.. كان المفروض أن أزوره لولا صحتي التي لا تساعدني»

«قواك الله..»

«أي زيني يا ولدي.. أمثاله كانوا لا يدخلون عليّ إلا بصعوبة يسعون في ركابي.. إلا قل لي.. هل الناس راضية عنه؟»

«جدًّا..»

«أعرفه.. فهو عادل وأهم ما فيه أنه عاقل.. عاقل جدًّا، ما آخر أخباره؟»

«لم نعد نرى المنادين التابعين لزكريا».

«زكريا بن راضي.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. اخفض حسك يا ولدي.. ربما سمعنا..»

الآن، تتسال مرارة في حلق سعيد، أي طالب مجاور لا يجرؤ على لعنه، سعيد يلعنه في سره، يعرف امتداد ظله بين الأروقة والحجرات، إلى محراب المسجد، تحت حصير الجوامع، غرف النوم في البيوت، يقول عنه الشيخ «أبو السعود»، هذا من علامات الساعة، لا بد من بقائه فوق الدنيا ممثلًا لإبليس حتى يتعذب الخلق أضعافًا مضاعفة، وقتها تضايق سعيد من كلام الشيخ «أبو السعود»، ربما يقول هذا لعجزه عن الإمساك بزكريا بن راضي، باستطاعة الشيخ أن يفعل، لا يحاجه إنسان، لكن أين زكريا ليمسكه، لم يره أحد، يقال إنه يقيم في أكثر من مكان، لا يدري أحد عمره الحقيقي، يعرف الناس مقره الأصلي، بعيدًا تحت جبل المقطم حيث يتهامس البعض بسماعهم صرخات بشر يجلدون، تحرق أطرافهم، يخوزقون لكن هل يقيم زكريا هناك فعلًا؟ يقولون إنه ينام كل ليلة في مكان مغاير، إن وجهه لم يره إنسان، حتى الشيخ «أبو السعود»، مرة ضاق سعيد بنفسه حتى بعد اختفاء ثلاثة مجاورين نوبيين، دائمًا يعيشون معًا، يقرءون في مصحف واحد، يأكلون في قصعة واحدة، ينامون ملتصقين ببعضهم حتى تراهم فتظنهم شخصًا بعينه، هكذا تعودوا، بين الحين والآخر، يختفي مجاور أو طالب، أحد العامة من السوق، لا يدري أحد عنه شيئًا، يترك ذهابه خوفًا وعكارة في النفوس، من يدري، ربما جاء الدور على هذا أو ذاك غدًا، عند اقتراب الأثر الذي أحدثه الاختفاء من الزوال، يضيع إنسان من جديد، ترتجف القلوب، سعيد لم يطق نفسه عند ذهاب النوبيين، تمنى لو زعق محرضًا الأرض والنجوم والقمر والكواكب، يوقظ الأحاسيس في الجماد، يومها قطع الطريق جريًا إلى كوم الجارح، أصغى إليه الشيخ قال: «أحقًّا سبوا زكريا.. هكذا سمعت» سعيد لا يدري، دائمًا يتحدثون لغتهم الغريبة، لغة لا يفهمها أحد، كيف

وصل الأمر إلى زكريا إذن، كيف؟ يقول العامة، لدى الشيخ «أبو السعود» خاتم عليه رسم سيدنا سليمان، يمكنه فك طلاسم الجان وتسخيرهم لأغراض الإنسان، يمكن للشيخ أن يحمل زكريا بن راضي إلى جبال واق الواق، لا يرجع أبدًا، لو شرع في العودة فسيقطع المسافة في ألف ألف سنة، سعيد لم يقل هذا للشيخ، يعرف غضبه وهياجه إذ تنسب إليه الخوارق، في المساء خجل من روحه، كل أمر يطلب تحقيقه من الشيخ، تلا سعيد (وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ).

«ابق لتأكل معنا»

يحن إلى مذاق طعام بيتي، مرق تشرب منه سماح في الليلة نفسها، ملعقة ربما لامست شفتيها، لكن كربًا يؤرقه، لا يطيق بقاءه في مكان واحد، الشيخ ريحان لم يلح، دس سعيد قدميه في نعليه، يعبر الممرات الصغيرة في الحديقة بمفرده، يهم برفع عينيه، لو أنها تنظر الآن، لو يراها مقدار ساعة، يقضى والله عمره متنقلًا فوق مآذن الدنيا، زاعقًا باسمها في وجه السماء، معلنًا ما يتقلب في صدره، يعبر البلاد كما اجتازها مولاه، زاده عيناها، آه لو تصغي إليه آه لو يركبان في زورق عبر النيل، أياديهما في التيار، تنثر رذاذًا أبيض، يراها في مدينة لم تعرف الطواعين لا يموت الإنسان فجأة في عرض الطريق، لا يتوجع امرؤ لخطف ابنته، لا يساق الفقراء إلى الجب، إلى المقشرة، لا تقضى أعمار في سجن العرقانة، لا تنزع يد من جسم؛ لأنها سرقت خيارة، سماح تطل على طريق لم يجُسْ فيه أحد، يحتضنها بذراعه. يضحكان، تمضغ لبانًا جاءها من العجم، في عزلته الليلية، بعد نوم صحبه في الرواق، تجيئه سماح، همسة دفءٍ يجود بها برد ضنين، رعشة ريح باردة في قيظ صيف عفى يخنق الأنفاس، لا يذكر لون شعرها، لكنها أمل النجاة من دهر بأكمله، ها هي الحواري تثقل عليه، جمال مثقلة بالدريس، إلى أين؟ أى مكان يحتويه؟ يمكن الذهاب إلى الحمزاوي، العطارين، يخجل من المجاملة والتحيات، يعرفونه، الآن لا يطيق البقاء في الرواق حتى الصباح، فراغ خانق لو بقي وتناول العشاء، لكنه أكل مرتين في أسبوع واحد، يجب ألا يثقل عليه، ربما أصبح موضوع حديث بينها وبين أمها، مجرد تخيله ما يقال يرجفه خجلًا، هل يذهب إلى دكان «حمزة» يشرب الحلبة المطحونة المخلوطة بالسمسم والحليب، يبادل الخلق أحاديثهم يستقصي حديث الهموم، دكان «حمزة» يمتلئ بعد العشاء، بمدخني الحشيش، ربما قال الناس: انظروا تلميذ «أبو السعود» ينسطل ليعرف كيف يصلي الفجر، إلى أين إذن؟ يجب استقراره في مكان، لو تكرر مروره في نقطة معينة بالطريق يرصده البصاصون، يصل اسمه إلى زكريا، يوقن من وصول اسمه يومًا ما، يريد تأجيل هذا الوقت إلى حدث يستحق طلوع اسمه هناك، من يدري؟ ربما مئات الصفحات عنه أمام زكريا؟ هل يغفل رجاله عن سعيد، عمومًا زكريا لا يملأ كل شيء كالعادة، هذا ما يحسه سعيد، لم يخبره أحد، لم يطلعه كبير على سره، إنما هو واقع أقرب إلى الوعي والإدراك، لأول مرة يطوف منادون في طرقات القاهرة لا يتبعون زكريا، قلة فقط يعلمون بتبعية كافة المنادين لنقيب البصاصين، بل إن الشعراء في المقاهي وأرباب المغاني والطرب، أصحاب فنون الرقص، الحواة، وعاظ المساجد، يخضعون بشكل أو بآخر إلى نقابة البصاصين من هنا يعي سعيد

حقيقة مرور منادين يرتدون سروالًا أزرق وقميصًا أخضر حوافه محلاة بالقصب، زي جديد يعلن تبعيتهم لناظر الحسبة نفسه، لم يكتف الزيني بهذا، إنما رتب مرورهم، أول النهار، بعد الغداء، قبيل المغرب، قبيل العشاء، ينطلقون بلا حرس، كل ما بأيديهم عصا قصيرة، يقرعون بها طبلة صغيرة، ينقلون إلى الناس ما استجده الزيني من أمور، يحرضون الناس على كشف كل غشاش لئيم، عندما استمع سعيد إلى هذا النداء بالذات تردد في قبوله وانتابه شك، لو تاجر كبير، قريب لوزير أو أمير، قريب الزيني نفسه؟ هل يجري عليه ما جرى للآخرين؟ لم يحدث هذا ولو حدث لبدا أمرًا عجيبًا، بعد النداء بأيام ثلاثة، سمع سعيد ضجة، تجمع الناس حول مناد يرتدي الثياب الجديدة، ما الأمر؟ ترزي من ناحية المغربلين، ليس خياطًا صغير الشأن، يفصل الفرجيات والقفاطين للأمراء، لأرباب الدولة، تجاوز الأربعين لكن الله ابتلاه بداء مكين، وأثناء مشيه في سوق الخيامية، أعجبه غلام صغير، قال للغلام: ما اسمك يا شاطر؟ قال اسمي كمال، قال تعال آخذك إلى أبيك في الجامع لأنه ينتظرك هناك وسأشتري لك سنبوسك، غير أن اللعين ساقه إلى خرابة قديمة وراء الجامع الأزرق، مال عليه لم يحتمله الغلام فانفزر من ثلاث جهات. وذهب إلى أبيه يفجع غارقًا في دمه، طلع الرجل إلى الزيني باكيًا، أمر الزيني بإحضار الترزي، سأل الغلام، أهذا هو الرجل؟ فأومأ الطفل باكيًا، زعق الرجل، الولد كذاب، فضربه الزيني على وجهه، قال: الأطفال لا يكذبون. أمر بإشهاره على حمار في القاهرة كلها، وسجنه بالعرقانة، حتى يكون من أمره ما يكون، طلع إلى الزيني بعض المشايخ قالوا: ما جرى يحدث كل يوم، مالوا في كلامهم. لم يصرحوا، إنما لمحوا، الرجل يعرف بعض الأمراء ممن يترددون عليه، وهؤلاء ربما.. يعني ربما، قيل إن الزيني قام واقفًا، نتر فيهم، أمر بإخراجهم، قال لن تحدث فاحشة في زماني أبدًا، أنا ما أخشى إلا هو، أشار بأصبعه إلى السماء، قيل بين العامة، إنه ضربهم على أكتافهم بمقرعة مقبضها عاجي، مزخرف بذهب، زعق كيف تلقون ربكم يوم القيامة؟ سعيد خشي على الزيني، خاصة وإن علي بن أبي الجود الذي تسلمه منذ عشرين يومًا، لم يعلن المنادي خبرًا عن اكتشافه المال المخبأ، ما يهم السلطان المال، ربما وجد زكريا الفرصة ليوغر صدر السلطان، عندئذ يقيل الزيني من الحسبة، الوقيعة الدائرة الآن بين طشتمر وخاير بك ربما غطت بعض الوقت، لكن.. ما هذا؟ أيقلق سعيد من أجل الزيني؟ أيتمنى سعيد وقوع العذاب بعلي بن أبي الجود ليفشي سر المخبأ من ثرواته، أيرجو العذاب لإنسان ما؟ حتى علي بن الجود؟ طبعًا، وكم إنسان عانى ما عانى منه؟ كم؟ ثم ألن يوقع به الله عذابًا أشد وأنكى يوم القيامة؟ لا ينكر سعيد قرب الزيني من روحه، عندما اقترب لإبلاغه طلب الشيخ «أبو السعود»، كان الوقت ليلًا، خرج إليه الزيني ملثمًا. عمامته صغيرة. ثيابه عادية شأن فقراء المتصوفة. مشيا صامتين. ينظر إليه سعيد من طرف خفي. رائحة ثيابه تدفع إليه ذكرى بعيدة لخاله في قرية نزة، الصوف الممتزج بعرق الرجولة، رغبة راودته. لو يراه بعض أصحابه يمشي مع رجل يذكره كل لسان في القاهرة اليوم كله. في أي الملامح يكمن الإباء؟ القدرة على رفض منصب كبير؟ كل من صدر مرسوم بتوليه وظيفة من وظائف علي بن أبي الجود انتابته فرحة. بقوا في بيوتهم يتلقون المهنئين، أما بركات بن موسى المرشح

لأخطر وظيفة. رفض. يندر الرفض في زمن بخيل بكل ما يحلم به المرء، بعد سكوت قال سعيد: «أمرني مولاي ألا أرجع إلا معك». لفتة منه وهزة رأس. خجل سعيد. ربما يفكر في أمور خطيرة. فجأة قال «مولانا لا يمكنني أن أعصي له أمرًا» وتتابعت أسئلة الزيني. أخبره سعيد بأمره كيف جاء من البلدة. كيف التقى بمولاه، تردده عليه، رفقه له، أخذه العلم عنه، بقاؤه عنده طوال وقته، الآن يذكر أسئلة الزيني، ثم صمته المفاجئ لا يدري سعيد ما يجري بينهما. أمره الشيخ بالعودة إلى الأزهر. من يومها لم يقترب سعيد من الزيني. فيما عدا موكب عودته من الأزهر. لكنه مشى منفردًا بين الخلق. لا يدري الزيني بوجوده، لا يصغي إليه. آخر المنادين طاف منذ ساعتين، لا يدري ما قاله للناس. في الأسبوعين الأولين يتجمع الناس بقصد الفرجة والاستماع إلى ما يقولون. بمرور الأيام خف زحامهم، أما الأطفال فلا يفارقونهم. الآن. يقف سعيد فجأة يبدو أنه اقترب من حارة قصر الشوق. رجل يمضي مسرعًا. أليس هو؟ لماذا؟ توقف، تجمد؟ أي حيرة انتابته؟ لا يذكر طول القامة. يذكره ممتلئًا ونحيلًا. معتدلًا وذا حدبة. لا تثبت صورته في الذهن. إنما هذا الماشي هناك. هو هو بعينه. اجتاز حارة بيت المال. يمضي طريق إلى حارة بيت القاضي. آخر إلى مسجد الشهيد الحسين. اختفى. لكن أين الحرس؟ كيف يأمن على روحه؟ وإذا كان هو الزيني بنفسه. فهل رآه.. هل عرفه؟

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

نـــداء

يا أهالى مصر.

نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر.

اليوم..

خرج السلطان إلى الريدانية.

بدأ لعب الكرة، وكله عافية.

أمده الله بالصحة والقوة.

يا أهالي مصر.

ما زالت الوحشة والقطيعة مستمرة.

بين الأمير طشتمر والأمير خاير بك.

وكل منهم مترصد للآخر. فانتبهوا..

يا أهالى مصر.

العطار صابر بن الحمزاوي غشَّ في الميزان.

وباع الحلبة مخلوطة بالتراب الناعم.

غش المغات، ودس السقنقور الهندي.

وعنده منه الكثير، حتى يغلو ثمنه.

لأنه الوحيد تاجر السقنقور.

رأى الزيني بركات بن موسى..

ناظر حسبة القاهرة، والوجه القبلي.

منفذ تعاليم الشريعة، وحافظ حقوق الناس.

وخادم السلطان.

بتغريمه مائة دينار.

والحوطة على مخزونه من السقنقور.

وتوزيعه على سائر العطارين.

لينتفع به المخاليق، وتسعيره بثلاثة دراهم للواحد.

والله منتقم من كل غشاش لئيم.

اتعظوا.

يا أهالي مصر.

يا أهالي مصر.

زكريـا بـن رَاضـــي: صباح الثلاثاء

سابع ذي القعدة 912هـ

يخلو إلى نفسه تمامًا إذ يتأمل طفلًا، يداعبه، رقة العمر الأول، ريش العصافير وسخونة جلدها الرهيف، لو يبقى الإنسان طفلًا إلى الأبد، يحرك اليدين كما يشاء يضحك في كل اتجاه، يحبو، يعبث، يبكي فتهرع نفس حانية تجفف الدمعات، الأوهام والمخاوف لا تتخذ من قلبه الصغير خانًا أبديًّا، يرى الدنيا بعين الدهشة والتساؤل، محال هجرة زكريا عبر الزمان قاصدًا بداية سنينه. أحيانًا يوقن أنه لن يمر بمثله أبدًا. لا يذكر يدًا ملست عليه.

أصعب الظروف لم تمنعه من رؤية ابنه الأول والأخير حتى الآن. يس. يجيئه ملفوفًا في قماط قطيفة سوداء مطرز بذهب، يحمله، أمه زينب ترقبهما. تحكي أخبار يس. كم مرة أرضعته. ابتسامته الهادئة عندما راح في نومه. إذ يستيقظ كأن عينيه تبحثان عن الغالي أبيه. تعثره في الحروف. تطيل الحديث. يس هو ما يقربها إلى الرجل. تتباهى وتعلو على بقية حريمه وجواريه. لم ينجب منهن. أما هي فولدت له يس. تتجاهل أحمد الذي جاء منذ أربع سنوات ذهب بعد أشهر. أمه الحبشية لا تزال تقيم في البيت. مجهولة لا يعرفها أحد، لسعة حزن حارقة تغشي قلب زكريا بين الحين والحين، لم تطفئها السنون. تخفف حدتها. أشد الظروف فظاعة لم تعطله عن لحظات يمضي فيها إلى يس ربما يوقظه آخر الليل برغم تحذيرات أمه. يلاعبه.

يناغشه. من أشهر أمسكوا في خان الخليلي تاجرًا روميًّا قيل إنه يكاتب ابن عثمان بأخبار الدولة أمسكه رجال زكريا. راقب عقابه بنفسه.

تعصير أكعابه. حرق جلد ظهره بنار هادئة. ومبروك قائم على تعذيبه بهمة عالية، بإخلاص وتفان. نزل الصمت كالجثة على بقية المحابيس في حفرهم. وهم يصغون إلى صرخات الرجل التي لا تنفذ إلى الفراغ الخارجي أبدًا.

يعرف زكريا أي رعب يمتلكهم. ما يقع في أرواحهم من رعب وآلام عند سماعهم أوجاع إنسان آخر يجهلون منه الاسم حتى، أكثر مما انتزعت أسنان الواحد منهم بكماشة محماة، خاصة حديثي العهد منهم بالحبس، من يدري، ربما جرى عليهم ما يجري على المنكوب الرومي، طال صمته، لم ير زكريا إلا تقلص وجهه، جحوظ عينيه وتضخم أنفه، تدلى فكه، لكنه لم يفه حرفًا، ما غاظ زكريا، ما كاده، تأكده من وجود شركاء للرجل، بعد مرور نهار بأكمله، أمسك زكريا بسيخ رفيع طويل كالإبرة محمى ببطء على مهل راح يدفعه في بطن الرومي، حول سرته، زكريا يختنق بدخان اللحم المحترق، خرج، نفذ الهواء من أنفه كما يتجرع الماء، عبر الفناء إلى جناح حريمه، طلع السلم المؤدي إلى غرفة زينب، سأل: هل نام؟ أومأت.. نعم، قال: أريد رؤيته، بالتأكيد غمرتها خيبة أمل، تأمل قضاء الليل معه، بقاءه عندها حتى الصباح، لن يكتمل تظاهرها على بقية الحريم إلا بنجاحها في استبقائه الليلة كلها، طلب رؤية يس مرة أخرى، قالت: نائم منذ فترة يا سيدي، قال بصوت أجوف أرعشها خوفًا: أنا لم أقل صحيه. مشت أمامه، بين الحشايا رق وجه الطفل مستديرًا مغمض العينين، قمر بين غمام، بشرة تفاحة ملساء، قماش حريري يشف عن ملامحه، قرب الشمعدان منه، تمايل الضوء، بقي مقدارًا من الزمان، يرحل وجه الرومي مبتعدًا، قالت المرأة: هل أخلع القفطان يا سيدي؟ اعتدل فجأة، لم ينظر إليها إنما مضى إلى الباب، تقارير اليوم لم يراجعها، ثمة ما يجب رفعه إلى السلطان بخصوص الرومي، أسرعت خلفه، خيبة أمل لا تخجل من التواري في صوتها.

الآن، ينزل زكريا السلم الطويل إلى حوش البيت، ينفذ الريحان إلى صدره، وشيش سعف النخل، أشجار غريبة أرسلها إليه كبار البصاصين في الهند، في اليمن، في الحبشة، في ركن الحديقة الأيمن، زهور صفراء قليلة، لا ينسى إحداها، همسة تجسدت زهرة، رقيقة صفراء، حوافها بنفسجية، قلبها أحمر قانٍ، به ثلاث ذرات من لون أخضر قاتم، رآها تتفتح أمامه، شهد إطلالها على العالَم أمام عينيه، يذكر المنظر متعجبًا، في الحديقة أقفاص صغيرة تضم عصافير غريبة الخلقة، صياح، بعضها غريب، الآن لا همس لها، في الشتاء يرى عصافير طليقة، أخبره علماء الطير أنها تجيء من بعيد، من بلاد ليلها ستة أشهر ونهارها ستة أشهر، تذهب مع الشتاء يجيء الصيف قاحلًا منها، زكريا يؤرخ اليوم الذي يرى فيه أول العصافير في حديقته، يتساءل: أهذه العصفورة بعينها هي التي جاءت في العام المنقضي، كم تعيش إذا لم تغتلها يد صياد؟ تموت موتًا طبيعيًّا، أمثل هذه المخلوقات يموت؟ فكر في إطلاق المنادين ليأمروا الناس بالكف عن صيد العصافير لكنه تراجع، ربما ظن بعض الأمراء الظنون، ربما قوبل أمره باستخفاف، هل خلت دنيا زكريا من المشاغل تمامًا حتى يأمر بالكف عن صيد الطيور، في الأيام الأخيرة يكثر من تأمل

عصافيره حبيسة الأقفاص، مداعبة يس، لكن ضيقًا وقلقًا يزحم صدره، يضيق عليه، لولا الطيور ويس، الخروج بين الحين والحين متخفيًا، سفره إلى إقطاعه في سرياقوس ربما طق له عرق من الغضب، لكن صبرًا، مثل هذه الظروف تتطلب ليونة وبأسًا، لم يصله رد الزيني، حتى شك في وصول الخطاب، لكنه استوثق من وصوله بين يدي الزيني نفسه، تعب جدًّا حتى تأكد من وصول الرسالة، ما من بصاص واحد يتبعه يعمل في بيت الزيني، ومقدم بصاصي القاهرة لم يهتم بدفع بصاص إلى بيت الزيني من قبل، فلم يكن له شأن يذكر ولا حس يسمع، وعد بإدخال عين إلى البيت، حتى خدم الزيني لم يعرف واحدًا منهم، كأنه أحضرهم من بلد غير البلد، بينما واصل المقدم إطلاق عيونه في أثر هذه المرأة التي طلعت أمام موكب الزيني، زعقت في وجهه.. يا لئيم.. إذن هي تعرفه، ربما أدى الإيقاع بها إلى كشف المستور من سيرة الزيني، قال المقدم في أول تقاريره، هي امرأة بلا أهل، سكان بين السيارج وشارع أمير الجيوش وباب الشعرية، يعرفونها، يرونها أحيانًا منذ صغرهم، لا يعرف بيت لها، قيل إنها تنام في أحواش الموتى خارج باب النصر، واسمها أم سهير، وقال آخرون:

بل اسمها «مسكة» وليس لها بنت اسمها سهير، وحدث أن شتمت الزيني في شارع الصليبة مرتين، وفي شارع المعز ولكنها لم تظهر كأن الأرض انشقت، ابتلعتها، وقيل في تقرير بصاص موثوق به مكين، إن رجلًا عجوزًا يجلس بجوار سبيل بشتاك دائمًا، معصوب العينين، حدث فقال: هذه المرأة تذهب إلى الزيني بركات بن موسى، تعانقه، يتبادلان البكاء، تحتضن رأسه بين يديها، تناجيه بأرق الألفاظ، ثم تخبره بالأمور المقبلة القادمة وكل ما يحدث له وما يدبر ضده، قال العجوز: إنها تخاوي عددًا من الجان يخدمونها ويأتونها بصادق النبوءات، أما من هي، فلا يعرف العجوز، متى تخلو إلى الزيني، لا يعلم، لماذا زعقت في وجهه أمام الخلق، فهذا ما لن يطلع عليه مخلوق، وألمح العجوز إلى احتمال قيام صلات خفية بين الزيني وعالم الجن، الزيني تجاهل الخطاب، كأنه لم يقرأه، لم يطلع عليه، شهاب الحلبي سأل منذ أيام: هل وصل رد من الزيني؟ زعق زكريا في وجهه، ثار، منذ متى تسأل عن رد خطاب كلفتك بكتابته؟ أهذا ما علمته لكم؟ أتعرفون ما عاقبة الثرثرة الكاذبة؟ عاقبة الفضول، الكلمة التي تخطها يجب أن تنساها، ارتعب شهاب الحلبي، أشد ما يخشاه غضب زكريا، الأدهى من ذلك، لو ظن شيئًا من وراء السؤال، ربما ارتاب هنا لا يدري شهاب الحلبي ما قد يفعل به، عمله الطويل لا يغفر له أي زلة مقصودة أو غير مقصودة، دائمًا يردد زكريا على مسمعه قصة نائب كبير البصاصين العثماني الذي وصل إلى أعلى مراتب دولة البصاصة في دولة ابن عثمان ثم اكتشف أمره بعد العديد من السنين، لم يكن إلا بصاصًا وثيق الصلة بدولة الشاه إسماعيل الصوفي، ألد أعداء الخنكار، شهاب الحلبي حريص دائمًا على حركاته وسكناته، ليس هو فقط إنما أي إنسان يعمل في ديوان البصاصين، زكريا تعجب لحدة غضبه، لكن تأخر الزيني يضايقه، سؤال شهاب الحلبي نغزه، كل يوم يقول: ربما أجاب الليلة، غدًا، لكن الزيني تمادى في غيه، الأمير الجمدار هز رأسه، قال:

السلطان يوافق الزيني على كل كبيرة وصغيرة، الزيني يطلع إلى السلطان كل ليلةٍ، يخلو به مقدار ساعة، لا يطلع إنسان على ما يدور بينهما، زكريا يواجه ظروفًا لم يعرفها أحد أسلافه، ربما يرد اسمه في هذه الخلوات، ربما تدبر له الملاعيب، عاوده انزعاج ليل وصول تقرير يؤكد استمرار الزيني في إقامة فرقة بصاصين خاصة به، الأمير منكلي بغا - وهو قريب الصلة من زكريا - ألمح في لقائه مع الزيني إلى أن الأصول تقضي بوجود فرقة بصاصين واحدة في السلطنة كلها، وأن يتبع زكريا بن راضي المحتسب كما هو متبع، لكن الزيني هز رأسه، قال: لا أطمئن إلا لرجالي، أن توجد فرقة بصاصين أخرى فهذا ما يقلق زكريا فعلًا ربما تسرب أحد إلى بيته، إلى ديوان السر، أصدر أوامر مشددة إلى مقدم بصاصي القاهرة، إلى مقدم بصاصي الوجه القبلي، الوجه البحري، مقدم البصاصين ببلاد النوبة، أن يرصدوا ما يقيمه الزيني، أن يتعقبوا أفراد الفرقة الجديدة، من هم، أين، كيف يعملون؟ لا تزال التقارير بخصوص هذا الموضوع باهتة، عمومًا لا بد من العمل في تأن، لكن بلا هدوء، لا بد من حسم أمر الزيني وإلا أصبح تاريخ البصاصين كله مهددًا، استدعى كبير الشعراء والمغنين في مصر، إبراهيم بن السكر والليمون، إبراهيم من أخلص مستصنعيه، يشرف على الشعراء في المقاهي، وأصحاب الربابة، المنشدين في الموالد والأذكار، كافة ما يقولونه من المواليا والدوبيت والأرجوزات والسيرٍ، كل ما ينشد لا بد أن يقره إبراهيم بن السكر والليمون، يحذف منه ما قد يراه مخلًا بأصول الديانة والأخلاق، ما فيه من تعريض بوجيه كبير أو أمير من أمراء الدولة، إبراهيم يجيء إلى زكريا يوم الثلاثاء في كل أسبوع، يحكي له أخبار المغنين والمنشدين، أحوالهم وما يدور بينهم، وما ينتويه كل منهم. ما يشرع فيه من أمور تخصه هو أو تتعلق بالمغنى والطرب. يسخر زكريا في سره. لا يخطر هذا ببال الزيني. يستمع الناس إلى الشعراء في المقاهي. يرون سيف بن ذي يزن ينبش الأرض بحثًا عن كتاب النيل. ترتعش القلوب حبًّا لذات الهمة. يتابعون أخبار البرامكة مع بني العباس. أبو زيد ودياب والزناتي خليفة. سليمان وكيف تحكم في الجان. استشهاد الحبيب النجيب في كربلاء. لا يدري إنسان أن ثمة خيطًا يربط كل أرباب المغاني والمنشدين والقصاصين في مصر بعضهم إلى بعض. خلا زكريا إلى إبراهيم بن السكر والليمون. طلب منه إعداد حكاية تروى على الربابة. عن رجل لا أصل له ولا فصل نزل عليه الجاه فجأة، فادعى أنه سينشر العدل بين الناس وطلب أن ينشدها الليلة أربعة منشدين في دكان «لانضى»، دكان «البهجوري» بالحسينية، ودكان «يونس» بالفسطاط، ودكان «أبو الغيط» في بولاق، الدكان الأول والثانى من أكبر دكاكين الحلبة والجنزبيل والنراجيل في مصر وروادهما من ميسوري الحال، ويبدأ شرب الكيف فيها بعد العشاء، أما الثالث والرابع فشأنهما ضئيل وروادهما من أسافل القوم، جلهم من الفعلة، بعد يومين تنشر الحكاية في عشرة دكاكين، في أحياء مختلفة من القاهرة، نعم بعد أسبوع لتصبح حديث الناس ويمكن الاستعانة بالبصاصين المندسين بين البشر لشرح وتفسير ما تتضمنه الحكاية لو تاه مغزاها عن البلهاء، غادرٍ إبراهيم بن السكر والليمون بيت زكريا، قام، نزل إلى الحديقة، إنه الآن أكثر نشاطًا، يفكر بسرعة، تتدافع إلى ذهنه الخواطر، يذكر عشرات الأسماء، المواضيع، يضرب راحته بقبضة يده، يميل

ليشرب جرعة من ماء الورد المخفف، يفاجأ بخواطر لم يحلم بورودها قط، ينسى روحه تمامًا، تولد مشاريع لا يمضي وقت طويل حتى تتحقق، إنه لا يغفل التفاصيل، أدنى ما يخص المشروع، كافة ظروفه وأحواله، بعد انصراف إبراهيم بلحظات، في غمرة نشاطه طلع إلى غرفة امرأته زينب، احتضن يس، رفعه، حمله فوق كتفه، حبا أمامه على أربع، قلد أصوات الشاة والحمار، كاد يرمي روحه في الفراغ مرحًا ونشوة عندما علت ضحكات يس، ضحكات صغيرة كأنها قرقرة نرجيلة نشوى، دخانها نعناع، وريحان وبلسان، فجأة أسنده إلى يدي أمه، نزل مسرعًا، فارق ولده لم تندهش زينب، تعودت منه كل غريب، أرسل في طلب المعلم عوض المعروف بين العامة «بابن كيفه» لإدمانه الحشيش وطول لسانه وحبه الشديد للنكاح، جاء، وقف صامتًا، ينتظر ما يقوله زكريا، فهو من مستصنعيه، زكريا سروره زائد عن الحد، هل يدرك الزيني أن رجالًا كهؤلاء رهن إشارتي، يتبعونني؟ ربما بدوا في نظره تافهين لا شأن لهم، لكن ما أعظم خدماتهم، جاء المعلم «ابن كيفه» ضخمًا عريضًا، صوته كالنعير، مع هذا بدا مرتجفًا، عندما رآه زكريا هجم عليه، احتضنه مقبلًا، حار الرجل، أيرد القبلة أم يقف ساكنًا في حضرة كبير بصاصي السلطنة، تردد لحظات أدرك بعدها أنه لو رد التحية الآن لبدت باردة، أخذه زكريا، مشيا إلى مقعد رخامي تحت نخلة عالية كسي أسفل جذعها بألواح رقيقة من نحاس أصفر براق، سأل زكريا عن أولاد المعلم، وحال حريمه، هل تصالح مع امرأته الثانية التي أغضبها منذ أربعة أيام وهجرته إلى بيت أمها أم ما زالت الفرقة بينهما؟ قال بسرعة: إنه سمع بعزم المعلم على طلاقها، هدأ صوته، تراجع برأسه، ألا يوجد عندك حل غير الطلاق يا معلم؟ أنت تعرف، أبغض الحلال عند الله الطلاق، لكنك لو أصررت لا يمكنني الإشارة عليك بأمر آخر. لم يخف المعلم دهشته وخوفه أيضًا. زكريا يعلم كل كبيرة وصغيرة غرق في خجل عندما مال عليه زكريا ضاحكًا. بيني وبينك الحق عليك أنت يا معلم أنت لا تعطيها حقها كما يجب. زوجتك الصغيرة الأخيرة أخذت وقتك كله.. لا يا معلم. لا بد من العدل. العدل مطلوب هنا.. آخر مرة ذهبت إليها متى.. آه.. متى؟ أخبرك أنا، منذ شهرين وأسبوع، أنت رجل تفهم الدنيا وتزنها على طرف أصبعك، وتلقي العيب عليها، تعاظم خجل الرجل، انقلب نعيره همسًا وحشرجة. تبدو منهما كلمتان، معك حق، معك حق، فجأة قال زكريا: مهمة صغيرة جدًّا أتمنى إتمامها. غمز بعينه، فرد أصابعه، يثنيها واحدًا وراء الآخر كلما ذكر أمرًا أو مطلبًا، يضيق المعلم عينيه، يصغي، تروح التفاتة منه هنا أو هناك، صوت زكريا هادئ، كأنه يطرق أي باب للحديث، قد تهيج روحه بألف سبب وسبب، لكنه إذ يبدأ الحديث تصبح لهجته منبسطة كلفظة «صباح الخير»، حتى لو تناول أخطر الأحداث وأكثرها تعقيدًا، ما يريده الآن مجموعة أقوال وشائعات وأحاديث معينة، تنتقل بين الناس بخفة ويسر، أصغى المعلم، قال «بسيطة لك عليَّ ألا أجعل حديثًا على لسان الخلق إلا ما تريد»، تضيق عينا زكريا «لو خرج ما جرى بينهما إلى مخلوق..» يسرع المعلم جريئًا في مقاطعته.. «اشتمني ولا تقل هذا..» بسط زكريا يده «أعرف. أعرف، المهم ألا تظهر القصد في حكاياتك ورواياتك»، ضرب المعلم صدره براحته «ابن كيفه يعرف شغله..» ضحك زكريا «تعجبني يا زينة الرجال» قال بعد لحظة «ولا تنس

مراجعة نفسك في الموضوع» تساءل المعلم: أي موضوع؟ ثم تدارك أمره عندما رأى الابتسامة الجانبية على شفتي زكريا، «أي والله سأعمل عقلي يا شهاب.. أعرف أن أبغض الحلال عند الله الطلاق» يهز زكريا رأسه، يقطب جبينه. يضيق عينيه وكأن الأمر مفروغ منه «اذهب إليها بقطعة من القماش بشيء من الحلوى. النساء عقولهن كالأطفال»، يؤمن المعلم على كلام زكريا. يتراجع. ينحني محييًا. يتبعه مبروك إلى خارج الحديقة. صوته العالي يجيء ملقيًا بالسلام. كلما صادف بابًا أو شرخًا في جدار أو نبتة زرع يلقي عليه السلام، الآن يتضح مذاق الشتاء في النهار. يكسب حصى الطرقات بريقًا هينًا لينًا خفيفًا. النبات الغريب. الطيور حبيسة الأقفاص لا تكف عن أحاديثها الغامضة. في الليل تخرس. أما الآن في النهار فتبوح. يدخل إلى غرفته في الطابق الأول. أعدها للمقابلات. رطوبة خفية تسري في الحشايا الوثيرة المحشوة بريش ناعم. يحلو له أن يخلو إلى روحه هنا، تلتصق النباتات الخضراء الخصبة بالمشربية من الخارج، حركة النبات كل ما يسمع هنا، السقف عال منقوش بالفضة والذهب، ونقوش أبدعها «الخسرواني الفارسي» بجواره طبق نحاس، يقرعه بيد قصيرة من الجلد. مرة واحدة. يجيئه «مبروك» لو همس سيده باسمه يجيء فورًا كأنه يقف الوقت كله منتظرًا لحظات اضطجاعه إلى الوسادة عندما تدور الأسئلة بعقله. كم عدد التقارير التي تكتب الآن لتدفع إليه ملخصة في ورقة واحدة؟ ربما يموت إنسان في هذه اللحظة بعينها. هذه اللحظة بالذات. آه انقضت. حلت لحظة غيرها. مات، كم إنسانًا يذكر اسمه الآن، أي أفكار في ذهن الزيني الآن، الآن تلد امرأة طفلًا. ماذا سيصبح بعد ثلاثين عامًا بأى أرض يموت؟ ربما يطلق ربان مركب صرخة فزع تنبئ بالمصير المحتوم في قرارة البحر الشرقي الكبير، أحيانًا والليل مسدل. يحاول النفاذ بعيني عقله إلى أحشاء الظلام. كم رجلًا يعلو امرأة في المدينة الآن؟ أعداد لا أول لها ولا آخر. لحظات كهذه يدرك فيها أنه مهما نفذت بصيرته فسوف تظل أمور ممتنعة عليه. لو يجيء زمان. يعرف بصاصوه كم من الرجال يضاجعون حريمهم، أي أطفال سيسكنون أرحام أمهاتهم. أي طفل منهم سيولد ويكبر، يثير فتنًا وقلاقل. لو عرف هذا لمنع أي رجل من إتيانه المرأة التي ستحمل الطفل. هكذا يجتز الشر من جذوره. قبل أن تنبت له جذور. لو أوتي فرعون مصر بصاصًا عظيمًا نفذ إلى حقيقة الطفل الذي ألقته أمه في النهر. لما عرفت الدنيا نبي الله موسى. ولنجا فرعون وجنوده من الغرق. يثق زكريا من مجيء زمان يعرف بصاصوه ما يدور في بر الشام وهم جلوس فوق المقطم. إذا قارن أساليبه الحالية. هل تشبه ما استعان به بصاص الدولة الأيوبية. بصاص الأشرف قايتباي منذ ثلاثين عامًا فقط؟ الدنيا تتغير؟ لا يبقى أمر على حاله. زمان بمجرد إمساكهم لمذنب يوسعونه ضربًا. ربما زهقت روحه.. الآن.. لا يحدث هذا. موت المذنب آخر مطلب، تبدل عليه الآلام وهو واع حي. لو غشي عليه فهناك من الأساليب ما تجعله يفيق. كأنه صحا من نوم عميق أكثر نشاطًا. أمور كهذه يجهلها الزيني. وإلا فأين نتيجة تعذيبه لسلفه علي بن أبي الجود؟ تسلمه منادوه منذ شهر. لم يعلن منادوه استخراج درهم واحد منه أو تقريره بأي ذنب. قيل بين الناس: إن الزيني يجهل طرق تعذيب المحابيس، تهامس بعض الأمراء عن حقيقة ما أشيع حول علي بن أبي الجود، قال الأمير يلبغا الجاشنكير. إذا ما شنع العامة والسوقة

على كبير في الدولة فهل نصدق ما يقال؟ لا يصح هذا أبدًا. تجاهله الزيني. لم يرد على رسالته. فليذق عاقبة مكره.

تجاهل آلاف البصاصين وهم أطراف جسمه. يسمع بهم ويرى. يشط الفكر بزكريا إذ يذكر أن كل إنسان يمشي حاملًا ملكين. ملكًا يرصد الحسنات فوق الكتف اليمنى، والآخر يدون السيئات فوق اليسرى، لا يكفي هذا، إنما ينتظر ناكرًا ونكيرًا في القبر، يسألان، يستقصيان ويستفسران، ينتزعان الحقيقة بضرب الميت بهراوات ملائكية لا يعرف أبشع من قسوتها، كم عدد الناس في الدنيا؟ لكل إنسان ملكان، هل يوجد أتباع لناكر ونكير، لو دفن رجلان في وقت واحد، كيف يستجوبانهما؟ كيف يسألان في وقت واحد، ناكر ونكير لا يمكن وجودهما في كل قبر، الموجود في الدنيا كلها هو الله سبحانه وتعالى، يطيل زكريا التأمل، نظام عظيم وترتيب أروع، هكذا تمسك الدنيا كلها فلا تفلت حسنة ولا سيئة، يومًا ما سيخلو إلى نفسه ويضع مطلبًا مفصلًا بما يرجوه للبصاصين، ما يتمنى مجيئه من أساليب، وسائل سحرية تكشف ما يفكر فيه الإنسان، وأخرى تعيد زمنًا انقضى برمته لمواجهة إنسان ينكر ذنبًا اقترفه، الآن يقوم زكريا، يقطع الحجرة جيئة وذهابًا، يقيس طولها بخطواته، أربع عشرة خطوة يمشيها متمهلًا مطرقًا تهاجمه الخواطر فجأة، يد خشنة تقبض قلبه، ها هو الزيني يبدأ العداء، حتى الآن لم يخط زكريا خطوة واحدة لهدم الزيني وإيذائه، الآن مضت فترة ظن فيها استسلام زكريا، هنا يبدأ العمل، ولو تمادى السلطان في مساندة الزيني؟ هنا تضيق عينا زكريا، تسرع خطواته، يصبح طول الحجرة عشر خطوات، من الذي ساند الملك المؤيد شيخ الحموي عندما جاء إلى دست الملك من؟ الزيني لا يعرف، السلطان لا يدري، من الذي دفع به إلى كرسي السلطنة بعد سجنه زمنًا طويلًا في خزانة شمائل، في السجن أقسم لو أنه خرج ليهدمن الخزانة البشعة ويقيم مكانها مسجدًا تتحدث به الأجيال، وفعلًا خرج، هدم خزانة شمائل، أقام مسجدًا تفخر به القاهرة الآن، لكن هل يعلم المصلون فيه والفقهاء من الذي ساند الملك المؤيد؟ من السبب في بناء المسجد؟ كتب التاريخ لا تذكر هذا، إنما الأمر محفوظ في ديوان البصاصين، كبير البصاصين هو السبب، كرسي السلطنة ليس بعيدًا عن يدي زكريا، من هنا يزحزحه، لو طال العمر بشعبان حتى يقر بما بينه وبين الغوري، لكن الضرورة أوجبت قتله، كان قمرًا، لكن لا بد للأقمار أن تغرب وتمضي، اليوم سيرسل زكريا في إحضار المشرف على أبراج الحمام الزاجل، نظام دقيق استحدثه يتفاخر به على البصاصين في أنحاء الدول والإمارات، كل حمامة تعرف أي الطرق تسلك، لا تطير فوق بيت فيه إنسان، فوق قافلة في الصحراء، إنما تعبر الخراب إلى أهدافها ولو طال بها الزمن، اليوم ستطير الأسراب، ليعلم المباشرون وأصحاب الإقطاعات ومشايخ البلاد، حتى العامة من الناس الذين خدعوا في الزيني، أي خطأ أتاه السلطان عندما ولّى على أمة الإسلام في مصر رجلًا لا يعرف له أصل ولا فصل، لم يره أحد يصلي جماعة في يوم جمعة، يظهر العدل، ولا يعرف أحد ما في عقله، أبطأ في استخراج أموال علي بن أبي الجود، ومن يدري؟ ربما شاركه خفية من قبل أن يعرفه أحد في أذية الخلق، ستطير الأسراب إلى بيت الأمير طغلق شادي العمائر، وبشتاك المعروف بين الناس بفول مقشر، فتنة واحدة بين طشتمر وخاير بك لا تكفي، سيعلم طغلق أن بشتاك فول

مقشر يحط من شأن المسجد الجديد الذي بناه للسلطان في سوق الشرابشين، في نفس الوقت يعرف بشتاك أن طغلق يضحك عليه، يقلده ويلمح إلى محاولات بشتاك في التشبه بالأمراء المقربين جدًّا من السلطان، يقول عنه، هذا رجل محدث نعمة، الآن يبتسم زكريا. خطواته تسرع. سينتفخ فم طغلق يرمي زبدًا أبيض. يسلط كل منهما مماليكه على الآخر. تضطرب أحوال الناس ترفع البضاعة من الأسواق. يكثر النهب. يقوم عدد من أشداء البصاصين بخطف عدة أبكار وغلمان، الآن يتوقف زكريا عن الرواح والمجيء، يمضي النهار وادعًا يكاد يسمع سريانه في الفراغ، ما أحب الشتاء إليه. أمسك المطرقة الجلدية، خبط الطبق النحاس. مرة واحدة لها رنين.

مسَاء الثلاثاء سَابع ذي القعدة

نـــداء

يا أهالي مصر

نوصي بالمعروف وننهى عن المنكر

نعبد ونسجد ونحمد

من أذل كل لئيم متجبر

يا أهالي مصر

البشرى لكم

يأمر مولانا السلطان

بعد اطلاعه على أوفى بيان

رفعه الزيني بركات بن موسى

ناظر حسبة القاهرة والوجه القبلي

وشرح فيه حقيقة الأحوال

وما يمس العباد من الرعية الفقيرة

تلغى الضريبة على الملح

وتطلق يد التعامل فيه

من بعد أن كان حكرًا على القلة القليلة

يا أهالي مصر

يأمر مولانا السلطان

بعد أن أطلعه الزيني بركات على حقيقة الحال

برفع احتكار الأمير طغلق للخيار الشنبر

وسائر أنواع الخضار

وأن يبيعه الفلاحون في الأسواق بلا وسيط

حتى تنحط الأثمان

ومن يضبط حارسًا أو مملوكًا

من القراصنة أو الجلبان

يتقاضى ضريبة على حمولة خيار أو خضار

عند أي باب من أبواب القاهرة

يشنق بلا معاودة..

من نـداء طاف به المشاعلية مساء نفس الثلاثاء، سابع ذي القعدة

يأمر مولانا السلطان

بعد أن أطلعه الزيني بركات بن موسى

متولي حسبة القاهرة والوجه القبلي

على الأحوال

ألا يمشي مملوك ملثمًا بعد المغرب في الطرقات

وألا يدخل مملوك بسلاحه الحارات

بعد العشاء

من نـداء غير عادي شهره رجال الزيني مساء الثلاثاء، سابع ذي القعدة، بين الناس الذين نزلوا الطرقات يسمعون بفرحة ما ينشر وما يقال:

بعد الاطلاع على رأي الشريعة

واستشارة أهالي الرأي والمشورة

والبحث فيما مضى وانقضى

يأمر الزيني بركات بن موسى

متولي حسبة القاهرة والوجه القبلي

بإبطال عادة نعي الموتى بدق الطارات

ومن ضبطت تدق طارًا على ميت

تشهر بغير معاودة..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

نـداء أعقب السابق مباشرة

خصص الزيني بركات بن موسى

متولي حسبة القاهرة والوجه القبلي

بابًا من أبوابه

لتلقي المظالم..

كل من وقع عليه ظلم

من أي كبير أو صغير..

فليتوجه إلى الزيني بركات

لاسترداد ما ضاع من حقه

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

(عنوان رسالة، وصلت إلى دار زكريا بن راضي، مع رسول خاص من رجال الزيني)

(ٱ ٻ ٻ ڀ ڀ پ ڀ)

إلى كبير بصاصي مصر. ونائب الحسبة الشريفة.

الشهاب زكريا بن راضي له السلام..

نـداء في ليلة الثلاثاء، نفس الوقت الذي وصلت فيه الرسالة إلى زكريا..

من الآن فصاعدًا

ستعلق فوانيس كبيرة تضيء بالشحم

هندسها وسواها

الأمير طغلق شادي العمائر

بعد استماعه إلى رأي الزيني بركات

متولي حسبة القاهرة والوجه القبلي

على كل باب حارة

تحت كل منزل وقصر

أمام كافة الوكالات

ستعلق الفوانيس الجديدة

وسيقوم رجال الزيني بإضاءتها كل ليلة وبمعرفتهم

حتى تنام القاهرة آمنة

وحذار أن ينزع مصباح من مكانه

وإلا جوزي وعوقب أصحاب المكان

يا أهالي مصر

لن يكلفكم الأمر درهمًا

فتعاونوا مع ناظر الحسبة الشريفة

يا أهالي مصر

يا أهالي مصر

يأمر مولانا السلطان باستمرار زكريا بن راضي نائبًا كما كان في كافة وظائفه ويقرن اسمه بلقب «الشهاب».

يا أهالي مصر

يا أهالي مصر

اهتموا، اعتنوا بالفوانيس الجديدة

ومن يضبط مخالفًا لأوامر ناظر الحسبة.

شنق بغير معاودة..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

من عمْرو بن عدوي

إلى مقدم بصاصي القاهرة

تقرير في وصف ما دار وما جرى

بين العامة والناس. ليلة الثلاثاء

سابع ذي القعدة

أجمع العجائز. وكتبة الدواوين. والقضاة، والمطلعون على حقيقة ما جرى خلال الأزمان الغابرة أن ما شهدته القاهرة ليلة الثلاثاء سابع ذي القعدة لم يحدث من قبل قط. لم يعرف مثيله في بلد آخر. سمعت هذا بأذني من مجاوري الأزهر، وعجائز زاوية الحلوجي وتجار الغورية والباطنية، والحلاقين الجالسين أمام باب المزينين، وزاوية العميان بجامع الأزهر. إذ لم يحدث طواف المنادين من قبل كل نصف ساعة، يتقدمهم طبل، وفي كل مرة ينقلون أمرًا أو خبرًا جديدًا إلى الناس، ولكثرة ما قالوه من نداءات لم يكرر نداء واحد قط مع أن العادة جرت من قبل أن يردد النداء السلطاني أسبوعًا كاملًا خمس مرات يوميًّا إلا في حالة وقوع حدث مهول، رأيت الزحام عظيمًا، خرجت الباطنية برجالها ونسائها أجمعين، الناس كلهم زغاريد وأيد تلوح وحناجر تزعق، وتفاوت كلام الناس، وحتى لا أطيل وأكرر، أجمل ما سمعت كما يلي:

أولًا: كثر الدعاء بعد النداء الأول والرابع، للزيني بركات، وكثر الكلام الطيب من سائر الأفواه، خاصة النساء، اللواتي رحن يهتفن ويهرجن، ويصحن «أدام الله أيام الزيني»، وأجمعن على معرفة الزيني بما يقرص أبدان الناس وأرواحهم من مواجعهم لأنه ليس متعاليًا ولا متغربًا، إنما يعرف أحوال الخلق، ويقشعر جسمه لذكر المظالم، يأنف تعذيب الإنسان، ويركع الصلوات في أوقاتها، قال الرجل (وهو بائع هريسة متجول، اسمه شمس الرمضاني، ويسكن أول ربع في حارة الروم الجوانية عمره فوق الأربعين، لحيته بيضاء، أعرف مكانه): إنه يرى الزيني ينزل متخفيًا في النهار والليل يتسمع أحوال الناس، يجس ما يؤلمهم، وإن الله أرسله في هذا الزمان نصيرًا للفقراء، وقال إنه يعرف خادمًا في بيت الزيني بركات يقول: إن سيده يبكي طويلًا قبل نومه لعلمه تمامًا أن الليل يرخي سدوله على حزانى مظلومين، الزيني يتعذب كثيرًا بسبب هذا، يطلب من الله السماح في الدنيا والآخرة لأنه لا يمكنه إزالة كل ما يقع من مظالم، وأشيع بعد النداء الرابع طلوع الزيني بركات إلى السلطان وخلوه به فترة طويلة، قال فيها للسلطان «أنت مسئول عن هذه الرعية أمام الله تعالى يوم القيامة وسوف تحاسب أنت وأحاسب أنا على كل ذنب ارتكب علمناه أو جهلناه، أين نروح يومها من جبروته، أصغى السلطان طويلًا إليه، كان حديث الزيني مشفوعًا بآيات قرآنية وأحاديث نبوية، ونصوص من متنٍ لا يجيدها إلا أفقه العلماء (قال التجار: إنه يحفظ القرآن كله وله شرح مخطوط لم يطّلع عليه أحد)، تحدث الزيني عن الأمير شاربك، واحتكاره للملح في بر مصر كله، وأنه الوحيد الذي يتجر فيه إذا ضبط إنسانًا غلبان يبيع بنصف درهم ملحًا يعاقبه بقطع ذراعه اليمنى، واليسرى إذا كانت اليمنى قطعت من قبل، أو ساقه اليمنى إذا سبق قطع الذراعين، واليسرى إذا سبقتها اليمنى، أو يحضر ابن المخالف أو أخاه أو أمه أو أباه إذا وجد بلا أطراف، احتكار شاربك للملح جعله يزيد في سعره كما شاء، أحيانًا يعتدل مزاجه فينزل بالثمن إلى الحضيض، إذا شط مزاجه وغضب شهر المناداة برفع السعر، هذا لا يضر إلا بالرعية نفسها قال الزيني الناس لا يجهرون عندئذ إلا بالدعاء على السلطان نفسه وإظهار النقمة عليه والغيظ منه، قال الزيني الأمر أدهى وأفدح خطرًا بالنسبة للخيار، لأن الأمير طغلق حجر على أحد المتاجرة فيه أو بيعه أو شراءه إلا عن طريق نوابه، وأكد التجار أن الزيني أجرى الدمع من عيني السلطان حتى أطلق السلطان يده فيما يشاء، بشرط ألا تنخفض مالية البلاد درهمًا واحدًا، السلطنة أحوج ما تكون للفلوس هذه الأيام بعد انقطاع عديد من الموارد، أبدى الزيني مقدرة على تحقيق هذا، بعد نشره النداءات تعالت الشتائم ضد الأمير طغلق ولو طالته الأيدي لقطعته حتتًا، كما جهر البعض بهذا، لعن العامة أجداد الأمير شاربك وكثر الدعاء عليه، وحدث أن رمى بعض الفقراء نقوطًا للمنادين إظهارًا لفرحتهم وبهجتهم..

ثانيًا: سمعت بأذني ثلاثة رجال يتحدثون في قهوة (لانضي) «أحدهم أعرفه واسمه فتوح الإسكندراني من سكان باب الشعرية، عنده معصرة زيوت، وله من العمر خمسة وخمسون عامًا، يقولون كلامًا له طعم آخر، إذ أبدى فتوح الإسكندراني شكًا وريبة في نداءات الزيني، قال فتوح: الأمر لن يستمر على ما هو عليه، السلطان لن يسمح باستمرار الأمور هكذا، إلا.. إلا إذا احتوى الأمر غرضًا يتفق مع مصالحه،

وبذل جهدًا في إقناع الحضور، أكثر من إشارة يديه، بادرت إلى نكشه محاولًا استخراج ما في رأسه ولم يخرج حديثه مع صحبه عن هذا، وفي مقهى آخر صاح رجل اسمه أبو غزالة في مصبغة بحارة الميضة «حقًّا.. ومتى كان أحد الحكام يظهر العدل؟».

ثالثًا: قرب سوق التربيعة حيث يكثر تردد النساء على محلات التجار الشوام هناك، تساءل الرجال عن مغزى منع النساء من دق الطارات حزنًا على الموتى؟ أجمعت آراؤهم على حق الزيني بصفته محتسبًا في منع هذه البدعة، لكن الأمر الأخطر من هذا، الأكثر فداحة، ما يخص الفوانيس، قال عبدالحميد رئيس طائفة السقائين في القاهرة (ومجلسه دائمًا عند هؤلاء التجار)، قال هذه بدعة ما يصح نشرها في أمة الإسلام، وقال أحد المجاورين في نفس الموضوع (اسمه جاد الله، صعيدي يسكن رواق الصعايدة) يريد الزيني إدخال بدعة جديدة تنسب إليه، قال آخر ربما أخذت البدعة البركة من الناس، كثر الحديث عن تعليق المصابيح، قال آخرون، ربما منع هذا هجوم المنسر في الليل، وأجيب على هذا بسؤال، هل يمنع الضوء هجوم المنسر؟ يعني إذا قصد المنسر أو المماليك الهجوم على حارة من الحواري هل يمنعهم هذا؟ سيكسرون المصابيح وينفذون ما بأغراضهم، قال اليهود ما دمنا لن ندفع درهمًا لا بأس. وقال بعض المشايخ: لم يظهر من الزيني إلا الخير فلا بد من احتواء الأمر الجديد على نفع، وبعد انتهاء المنادين من الطواف خرج رجال الزيني طلعوا فوق سلالم خشبية يدقون المسامير الكبار في الجدران، يربطون إليها الفوانيس، ثم يشعلونها وعند انبعاث الضوء منها يهلل الجميع ويزعقون «هيه.. دامت الفوانيس»، «هيه عاشت الفوانيس» الفوانيس، الفوانيس ولم تنم القاهرة في هذه الليلة بسبب ذلك..

رابعًا: أثناء دخولي جامع الأزهر عند الفجر، رأيت طالب العلم الأزهري، سعيد الجهيني (ذكرته مرات من قبل) يجلس بين جمع من الطلبة، كان يكثر من هز قبضته، على وجهه غيظ، وعدم رضاء وكمد وحقد دفين، وكلهم مصغون إليه، ألقيت السلام، وروعت إذ وجدته يشير إلى أمر يتردد على ألسنة الناس أبدًا، لم أسمعه من مخلوق، سعيد الجهيني يعلق على ما جاء في النداء الخاص بالفوانيس بإقرار الشهاب الأعظم زكريا بن راضي نائبًا للمحتسب، تركز كلامه في الآتي:

1 - وقوع قهر على الزيني بركات بن موسى من ناحية الشهاب وأعوانه حتى يتم إقراره نائبًا للحسبة.

2 - إنه عليم بالزيني بركات وتأكده عن عدم رضائه عن القرار.

3 - كل ما أذيع من نداءات متتالية الغرض منه شغل الخلق عن أخطر ما في الأمر وهو إقرار الشهاب الأعظم وإعطاء الشرعية لوظائفه.

4 - قال بالحرف الواحد الجمل التالية:

«بدأت الأمور تضطرب»

ش«هذا فأل سَيِّئ»

اللهم نجنا واسترنا»

وحتى كتابي هذا لا يكف عن التنقل بين المجاورين يجهر بنيته في الطلوع إلى شيخه «أبو السعود»، شارحًا له الحال، طالبًا تدخله في الأمر، وهو مستمر في سب الشهاب الأعظم بأنتن الألفاظ، وأقبحها.

خامسًا: خطب بعض الوعاظ، وحطوا في حق الفوانيس، من فوق منابر المساجد، وسخر الشعراء في المقاهي من الأمر الجديد، وألفوا شعرًا قالوا فيه: «الحق يا متعوس، وإلا علقوا لك فانوس»

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

الجمعَة عَاشر ذي الحجَّة 912هـ

نـــداء

يا أهالي مصر

نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر

اليوم، قابل السلطان

قاصد ملك الحبشة

وقاصد ملك البنادقة

أنعم على كل منهما بخلعة

كاميلية محمل، بغزو سمور

يا أهالي مصر

وقعت قطيعة مفاجئة

بين الأمير بشتاك فول مقشر

والأمير طغلق شادي العمائر

لأن البشتاك شنع على المئذنة

الجديدة في جامع السلطان

قال: بها بعض الميل

سـعيـد الجـهيـنـي:

هذا زمان الحيرة وسيادة الشك وفناء اليقين، تغيب التفاصيل، تطغى رغبة، آه لو هج في بيداء لا أول لها ولا آخر، لا عرض لها ولا طول، ينحل شعره، يبلى جسمه، ربما عرف ما غاب عنه، ما هجره، ما كساه السحاب، ما تقنع بالضباب، كيف يفني عمره، يذوب وجده في عشق لا أمل فيه، زاده.. شعوره بوجودها في بيت لا يطرقه كل أسبوع إلا مرتين، إنما يتمنى رؤيتها، تطلع الشمس من الشرق، تنزل في

الغرب، كم تبعد السماء الأولى عن الثانية، عن الثالثة؟ هل تقاس المسافة بالطول أم الزمن؟ كم تبعد النجوم عن الأرض وأي سلاسل ضخمة تربطها، تمنعها من السقوط وهذه النجوم التي تهوي أهي أرواح شريرة مطرودة من الجنة؟ تبدو لحظات في العتمة، تضيع فلا تصل الأرض ولا تستقر في سماء، حتى ذيول اللهب التي تسحبها تمحى كحلم ثقيل، كيف لا تطغى البحار على اليابسة؟ كيف يمتلئ النيل ويفيض ثم ينحسر من جديد؟ عندما ولد الزيني بركات هل درى بما كتب في لوحه المحفوظ؟ يومًا سيصبح محتسبًا؟ سينتظره رجل اسمه زكريا، كيف، كيف، كيف يقبل استمرار زكريا بن راضي نائبًا له، يحيط الحسبة بأعتى البصاصين أكثرهم مقدرة في بث الرعب والخوف، في حجارة المباني، في الطيقان، الزوايا، فوق وسائد النوم، ومآذن المساجد، في أرضية محراب الصلاة، هل ضل عندما ذهب إلى بيت الزيني ليصحبه إلى كوم الجارح، لكنه ما زال يعلن، من له مظلمة فليطلع عنده، ويوميًّا يتردد على بابه كل صاحب شكوى، الناس لا يقصدون إلا هو، عطل أبواب الأمراء والقضاة، حتى أشيع أن الزيني ينوي الجمع بين القضاء والحسبة، ورد الزيني على هذا بركوبه بغلته وتوجهه إلى جامع الأزهر لصلاة الجمعة، خطب في الناس نافيًا كل ما يتردد عنه، قال: إن الحسبة تقتضي منه وعيًا ويقظة، فهل يتحمل عبء الجمع بينها وبين مهام أخرى؟ هلل الناس له، كبروا، حاولوا تقبيل عباءته، نتر فيهم الزيني وأبدى غضبًا وغيظًا، لحظتها أطبق الهم على ضلوع سعيد، رأى الشهاب الأعظم زكريا بن راضي، أول نواب الزيني، يمشي وراءه، يتشح بعباءة زركش صفراء وعمامة عادية بلا علامات، ياقوتة حمراء فقط تتوسط رباط الشاش المحيط بها، شكا إلى منصور صاحبه وزميله في الرواق همه، قلق منصور، الأروقة تشغي من جديد برجال زكريا، بمستصنعيه، لا بد من التزام الحذر في الكلام، سعيد لا يجهلهم، يسمع خطاهم الخفية وراءه، انسلالهم من الهواء، تنفذ إليه نظرات عمرو بن العدوي، عمرو اشترى عباءة جديدة ومركوبًا، أشيع أنه يذهب إلى امرأة في بيت «أنس» يشتري لها اللحم، والخضار والسنبوسك، سعيد يود لو يجالسه بقلب صاف، ما الذي يدفعه إلى رفع كل آهة وهمسة إلى زكريا؟ لكن كيف يصل به الفكر إلى هذا؟ صاحبه منصور لم يظهر ضيقًا بزكريا، قال: الزيني لا يتحكم في الأمور كلها، هو جديد على المنصب، ورجل مثل زكريا لا يستهان به، ومستحيل تجاهله ومن يدري.. ربما هذه خبطة واعية من الزيني، حتى لو عزل زكريا فهو خطر كامن كالحفرة المموهة، يمسك بأسرار السلطنة والأمراء فهل يصطدم به الزيني أم يضمه ويحتويه.. لم يقل سعيد حرفًا، أي الأمور أصح، رأى كل أمر في الدنيا يسلك طريقًا لا حيدة عنه، طريقًا ملتويًا، عليه ضباب، دخان كثيف، منصور ينتحي ركنًا في مقهى «لانضي» يمد يده، يسوي الدخان فوق حجر الجوزة، يغرق في لب الدخان، خلاصة النجاة من الأحزان، حبيبته النائية تدنو، يفتح ذراعيه، يحتويها، تتقرب إليه، تجثو عند قدميه، يهاجر إلى أرض واق الواق، يغزو جزر النساء، يرى الزيني رسولًا منزلًا، وزكريا تابعه الأمين، يحمي الأمن، يقصي البلاء، يدفع الفتنة، منصور يقول قبل هجرته إلى دنيا النسيان: لا أمر يعنيني فلماذا أشغل نفسي؟ كتبت علي سنون أعيشها في الدنيا، والدنيا فانية، فلأنهل من ينبوع اللذة، أسلك طريق السلامة، ولا أكون خفيف العقل، فأتشنج لحظة، وأتقلص

لحظات، يدعو سعيد إلى رفقته فهو يشعر بالوحدة لحظة هجرته إلى عالم الغيم الأزرق حيث الحور والولدان، يضيق سعيد، يمضي خارج مقهى «لانضي» الطرقات تضيئها الفوانيس، أهو مع تعليق الفوانيس أم ضده؟ لا يدري، لم يطلع إلى مولاه منذ أربعة أيام، آه لو يرحل إلى الصعيد، يرمي عن كتفيه ما ناءتا به منذ سنوات مجيئه إلى الأزهر، آه لو يمضي إلى جامع الحسين، يشد عمره إلى الباب الأخضر، لا يفارق الحبيب، يتلو الأذكار ويناجي الشهيد، آه لو يمضي إلى سماح، ينزع خمارها، يضمها كنزًا غاليًا وطلسمًا وشعرًا لم ينشد مثله وجنة ضائعة، لكنها سراب ظامئ لا يدري ما يفعل، سماح مسخت النساء كلهن فلم يعد إلا هي، ما عداها أرض خراب، الأمان في بعده عنها، تحرقه الرغبة ليالي، يتقد فراشه في الرواق بنيران هادئة لا تخبو، يحاول معرفة ما يجري في بيت «أنس» دخول الرجال، انتقاؤهم ما يريدون، لا يعرف الرجل اسم من ينام معها، قال منصور: في أول مرة سألت البنت عن اسمها فضحكت مني، قالت: راوية، وعرفت أنه ليس اسمها، آه لو يذهب إلى بيت أنس، ألا يستطيع؟ سماح لا تتجرد من ثيابها في مخيلته أبدًا، لا يجرؤ على رؤيتها مضطجعة في وضع مثير، أحلم هي؟ لا يذكر لون عينيها، مذاق نظراتها، ملامح وجهها التي تجعلها سماح، وليست إنسانة أخرى، من أعوام كان سعيد صفحة بيضاء لم يجر فوقها المداد، لم يخدشها سن قلم، تمتلئ الدنيا أمامه بالحروف الآن، علامات التعجب والاستفهام، ألف سؤال حائر بلا هداية، الدنيا كلها سؤال لا أول له ولا آخر باق مخلد في مخطوط عتيق تهرأت أوراقه متآكل الحواف، كشطت حروفه..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

«قسم خاص»

به «نتف» مما قيل بشأن واقعة الفوانيس.

1 - جزء من خطبة الجمعة التي ألقيت من فوق منابر المساجد، آخر ذي القعدة 909 هـ، وهذا الجزء قاله الوعاظ كلهم على اختلاف مذاهبهم.

«يا أهل مصر، يقول رسول الله ﷺ، لا يستحي العالم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم»، نقول هذا لمن أحلّوا تعليق الفوانيس، أمام البيوت والدكاكين يدعون العلم بالتواريخ والأحداث التي جرت وينقصهم القول بما سيجيء، هنا ندخلهم في زمرة الكافرين، قالوا سبق لعديد من الأمم أن علق حكامها الفوانيس في شوارعها، فهل ذكروا لنا مثلًا بعينه؟ أهل كان رسولنا يمشي على هدى الفوانيس؟ وفي رحلتي الصيف والشتاء إلى الشام واليمن هل أضيء طريقه بفوانيس صنعها بشر، نقولها عالية، نقولها بلا حرج، نقولها ورقابنا على أيدينا لهؤلاء الذين يدعون العلم بالحكم التاريخية، والأحاديث النبوية، والمتون الخفية، والأصول المرعية، وهم جهلاء يخفون جهلهم، نقولها ولا نهاب، لا نخاف، لا نخشى، يا أهل مصر لم يحدث تعليق الفوانيس من قبل، لقد أمرنا رسولنا الكريم بغض البصر عن عورات الخلق، والفوانيس تكشف عوراتنا، خلق الله ليلًا ونهارًا، ليلًا مظلمًا، ونهارًا مضيئًا، خلق الليل ستارًا ولباسًا، فهل نزيح الستار؟ هل نكشف الغطاء الذي أمدنا الله به؟ هل

نتطاول ونبدد سواد الليل من كل شبر في المدينة؟ هذا كفر لا نقبله، هذا خروج عن الحد لا نرضاه، ولولا اقتناع الكل منا بسلامة نية الزيني بركات لقلنا: إنه يقصد ما يقصد، لكنه منذ استلامه أمور الحسبة لم يبدر منه إلا ما هو خير، ولن تحول الفوانيس ثقتنا عنه، لن تشككنا فيه، يا أهل مصر توجهوا إلى بيت الزيني بركات بن موسى أفرادًا وجماعات، زرافات ووحدانًا، قوموا إليه، إلى بيته طالبوه بمنع الفوانيس التي تهتك السر، وتشجع النساء على الخروج بعد العشاء، قوموا إليه ضارعين متشددين، راجين حازمين، لا يرجعنكم لين حديثه عما انتويتموه، لا تغيبوا عن مقصدكم، الفوانيس علامات آخر الزمان، من علامات دنيا تخرج عما رسمه الباري عز وجل، طالبوا سلطاننا بتوسيط كل من أوحى إلى الزيني بهذا، بحرقه، برجمه، هؤلاء الجهلاء دعاة العلم، آه من يوم تسود فيه الفوانيس اللهم قنا شره، اللهم أبعدنا عنه، اللهم لا تمد أجلنا حتى نراه..

(وهنا تعالى بكاء الناس في الجوامع، وزعق بعضهم، اللهم اهدم الفوانيس، اللهم اسحق الفوانيس).

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

فتوى قاضي قضاة مصر:

«الفوانيس تذهب بالبركة من بين الناس».

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

أول محرم 913هـ

قاضي الحنفية يقول رأيًا مخالفًا:

الفوانيس تطرد الشياطين، وتنير المسالك في الليل للغرباء، وتمنع مماليك الأمراء والمنسر من الهجوم في الليل على الخلق الأبرياء.

قاضي القضاة بالديار المصرية:

«خرج أحد كبار العلماء عن الحد، خالف الأصول، ونفى الفروع، بانحيازه إلى صف الفوانيس»

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

«الأمراء الكبار يطلعون إلى القلعة»

«مولانا السلطان، تسبب تعليق الفوانيس بجميع الحارات في تشجيع حريم العامة على النزول بعد العشاء والتجول في الطرقات، والسهر أمام الربوع والأسواق وهذا مخالف للحشمة، وخادش للحياء».«خاير بك»

«العيال الصغار لا يرجعون إلى بيوتهم الآن مبكرين.. إنما يبقون في الشوارع ساعات ينشدون ويغنون، وأحيانًا يقلسون ويرجمون مماليكنا بالحجارة، ويتبادلون قبيح الألفاظ».«قوصون»

«مثل هذا الأمر لا يبتدعه إلا إنسان يبغي نشر الفتنة.. والفجور».«طغلق»

«إنارة المدينة، وسهر الأهالي على ضوء الفوانيس أمر جارح للهيئة، ومهين للسلطنة».«قنبك»

«الزيني يرسل رجاله أول الليل، يطلعون فوق السلالم الخشبية لينيروا الفوانيس وينظفوها، هذا ما يقول، لكنه يا مولانا، يا أمراء. لا يقومون إلا بالتجسس على الخلق، وعلينا، يهتكون حياة الناس داخل بيوتهم».«طشتمر»

«هذا حق.. هذا تمام..». «كافة الأمراء»

قاضي القضاة عبدالبر:

«سجل قاضي الحنفية سابقة خطيرة لم تحدث من قبل، خالف رأينا، قال.. لا.. وهذا حدث مهول»

رواق الصعايدة:

أبدى بعض المجاورين استحسانًا لرأي قاضي القضاة عبدالبر بن الشحنة، قالوا إن رجلًا مثله لا يمكن أن يشغل روحه بالفوانيس إلا إذا عظمت أهمية الأمر ليس كما يتهيأ للبعض، قال سعيد: تبالغون في الأمر، أشار إلى الطرقات الكبيرة في مدينة القاهرة، وإضاءة دكاكينها طوال الليل، هنا قال أحد المجاورين: كلام غير صحيح، الدكاكين تغلق بعد العشاء ولا ينتصف الليل إلا والكل في بيته نيام، علا صوت سعيد، أيكره أحدكم إضاءة الحواري والبيوت حتى يأمن الناس على أرواحهم؟ ما يريده الأمراء أن تبقى العتمة حتى يعبث مماليكهم كما يريدون، علا صوت عمرو بن العدوي.. بالضبط ما يقوله سعيد صحيح، قال مجاور شامي: «أنت يا سعيد تخالف دائمًا» قال مهتاجًا: لا أخالف إلا ما أراه خطأ، تساءل مجاور نوبي: وهل يخطئ قاضي القضاة؟ مال منصور إلى سعيد، يخالفه الرأي، ما الداعي لبدعة الفوانيس؟ ألا يوجد من أمور الناس ما هو أهم منها وأجدر بعناية الزيني واهتمامه ثم بصراحة يا سعيد هذه البدعة لا تزيد الأمور إلا فسادًا، أطرق سعيد: من يدري، ربما تضمنت بدعة الفوانيس أغراضًا تغيب عن عينيه هو، تساءل المجاور الشامي: الناس تقيم الدنيا وتقعدها، لكن هل جرؤ كبير أو صغير على إزالة الفانوس المعلق أمام داره، صاح مجاور من منفلوط «يهابون الزيني» قال عمرو «بالضبط» سخر منصور، أيخشاه أتابك العساكر نفسه؟ قرص سعيد طرف شفته العليا، آه لو يقول لهم، بدلًا من إنهاك أرواحهم ارقبوا ما يفعله زكريا، كيف فرض نفسه على الزيني، لكن.. أحقًّا فرض نفسه؟ من يدري، ربما جاء المنصب برضاء الزيني، قال عمرو بن العدوي ولكن الحكاية فوانيس.. أبدًا..»

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

«هتف الخلق في الجوامع والطرقات»

لعن الله الفوانيس.

لعن الله الفوانيس.

سعيد الجهيني:

من قبل، سعى إليه، بعد الفجر إلى الشيخ «أبو السعود»، ها هو البيت، البوابة مفتوحة، لم يزد الزيني في بنائه، من حقه كناظر للحسبة الانتقال إلى بيت أكبر، لكنه يبقى هنا، أمام الباب يقف رجل نوبي يرتدي القميص الأخضر ذا الياقة والأكمام الصفراء، أمر جديد ابتدعه الزيني بالنسبة لنوابه ورجاله في الطرقات التابعين له، لباس واحد، في الناحية الأخرى يقف خلق كثيرون، يمتد الصف بهم حتى يخرج من الباب الآخر للبيت المطل على الطريق الخلفي، تساءل النوبي: هل تبغي مقابلة الزيني بنفسه؟ أكد سعيد، نعم، غاب الرجل عنه، أصوات أصحاب المظالم خافتة برغم عددهم الكبير، إذ يلتقي بالزيني يفتح له قلبه، سيقول له أعانك المولى على احتمال ما تتعرض له، عندما مشى بجواره في هذه الليلة البعيدة، لم يقل الزيني كلامًا كثيرًا، لم يخض في تفاصيل، لو رآه الآن ينقطع الحديث بينهما، سعيد يقول له ما مهد الشك إلى قلبه، الزيني يذكر كافة ما يضايقه، ما يتطلبه منصب الحسبة، ما يجنيه من كلام الناس، عاد الرجل النوبي «نزل الزيني من البيت أول النهار، ربما يرجع بعد العصر» وكأن سعيدًا توقف فجأة بعد جري، تساءل ألا تعرف أين؟ قال النوبي، للزيني جولاته التي لا يعرفها إنسان، ليطمئن على الناس، لكنني أعرف مهمة واحدة من مهامه اليوم.. كما تعرف هناك وقيعة بين مماليك طشتمر وخاير بك، ناحية حارة الجوانية، انتهزوا فرصة الخناق ونهبوا عدة دكاكين في الخط.. والزيني قصد الحارة لإحصاء المال المنهوب وما لحق الناس من أضرار، ورفع الأمر إلى السلطان، وتساءل سعيد.. متى جرى هذا؟ قال النوبي معجبًا، طوال الليل، كيف حدث ما حدث وسعيد لم يصله خبر؟ ربما لبقائه في الدرس حتى الظهيرة، لكن ألم يصبح الصلح وشيكًا بين طشتمر وخاير بك؟ هز النوبي رأسه، أبدًا، بعد أن اتفقا على ضرورة التخلص من الفوانيس كبقية الأمراء، قال خاير بك، لا أتفق مع طشتمر أبدًا، وعندما بلغ طشتمر هذا.. صاح.. أيحقرني والله لأقلبنها فوق رأسه. فجأة علت ضجة، فلاحون وجوههم معفرة، عيونهم تطير هنا وهناك لا تستقر على حال، رأى سعيد أطفالًا صغارًا في قريته البعيدة، رءوسهم ضخمة، رقابهم نحيلة كالعيدان، يمضغون تراب الطريق، عيونهم أوطان للذباب، وجد نفسه يحمد الله لأنه لم يخلق فلاحًا يشقى في الغيط، في رفع الماء من الترعة إلى القنوات، تفرض عليه الإتاوات، يجلده الكشاف، يسعى إلى المدينة ليجهر بالشكوى، لا يرجع إلى عياله أبدًا، لم يقطع ما يفكر فيه إنما تمادى حتى تساءل، كيف حالي لو خلقت فلاحًا؟ سأله البواب النوبي بعد لحظات صمت: «لكن ما الذي تقصده من مقابلة الزيني؟» أكد أن نائب الزيني الموجود حاليًّا يمكنه الإصغاء إلى ما تقوله، قال سعيد: «الزيني يعرفني لا بد من مقابلته هو» سعيد لا يشي بأحد لكن أمامه أدلة وقرائن تثبت أن برهان الدين بن سيد الناس، تاجر الفول صاحب عدة مراكب في النيل، ومكامير في منية ابن خصيب، برهان منذ مدة يشتري

الفول من الفلاحين ويخزنه عنده، أنشأ من الصوامع ما يفوق الحصر والعد في ساحل أثر النبي بمصر القديمة، يبرطل على عدد من كبار الأمراء ليفوز في نهاية الأمر بإقرار شرعي من السلطان يقضي باحتكاره الفول، هذا يعيد بلية قديمة يعمل الزيني على إنهائها وهي احتكار فرد بعينه أو مجموعة ناس لصنف معين من

الخضار أو البقول أو البضائع، فما بالك والأمر يهم الخلق أجمعين، ماذا لو طلعت في دماغ برهان الدين بن سيد الناس؟

يمنع الفول عن الأسواق حتى يعز وجوده والحق لم يسمع لها مثيل، لم يحاول من قبل احتكار بيع الفول في مصر، لن يسكت الزيني، تساءل سعيد: أيقلقه الأمر فعلًا؟ أم ينبغي التأكد من عدل الزيني؟ الحق أنه لا يدري الآن، يعبر طريق أمير الجيوش، المطارق تنهال فوق النحاس الأحمر، تشكله حللًا وأباريق، مكاري ربط حماره إلى وتد في الطريق قعد بجواره يمضغ رأس فجلة وخبزًا، ها هو دكان حمزة بن العيد الصغير يرتاح إلى الجلوس فيه لا يعرفه مخلوق هنا، يخلو إلى روحه تمامًا، حتى منصور صاحبه يبتعد «أهلًا.. أهلًا.. نهار الفول» ترحيب دافئ من حمزة، يرده برفع يده، بسط راحته فوق صدره، طلب جوزة، في الأنفاس الأولى يشعر بدوار خفيف لطيف مع خلو الكرسي من الحشيشة، يرتاح إليه، ما أحوجه إلى تأمل ما راح وما استجد، استعادة ما سيقوله للزيني بركات لو التقى به في المساء، أما رؤيته سماح بعيني عقله، فلها مذاق آخر، إذ يجلس هنا..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

مرسوم سلطاني

«يقصى الشيخ سعيد بن السكيت عن منصبه كقاض لمذهب الحنفية»

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

«من قاضي قضاة مصر إلى السلطان»

«حميت الحق، وأعليت كلمة الإسلام، أقصيت المارقين، أبقاك الله حاميًا للديار..»

مرسوم سلطاني

«تبطل عادة الفوانيس.. ويزال ما علق منها، وكأنها لم تكن»

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

من أمراء الديار المصرية وأكابرها

«ما قمتم به حق، ما أثبتموه عدل، لعن الله الفوانيسس

سعيد الجهيني:

«احكِ عن دنياك.»..

يحار من أين يبدأ؟؟

«مات الشيخ البلقيني عالم الحديث في الأزهر.. مات عن ثلاثة وتسعين عامًا»

لا يبدي الشيخ جزعًا، إنما يهتز رأسه هزًّا خفيفًا لينًا..

«يرحمه ويرحمنا أجمعين..»

«زكريا والزيني على اتفاق..»

«أعرف هذا..»

يبدي سعيد دهشته..

«الزيني جاءني أمس.. بعد سماعي الخبر، فكرت أن أرسل إليه لأعرف حقيقة الأمر، لكنه دخل علي وشرح الأمر..».

عوده مولاه ألا يطيل السؤال أو الاستفسار، إنما يصغي إلى ما يقال، يستنتج ويحاول الفهم..

«مولانا.. كل شيء يحيرني..»

ابتسامة تقطر صفاء

«كل شيء؟؟»

«مولانا أنا صحبت الزيني إلى دارك، مشيت أمامه في موكبه كأي ركبدار، بشرت به، تحمست له، أنا الآن أشك فيه، أتضرر منه، من شهر قلت فلأمض إليه أنقل ما سمعته، ما استوثقت منه، عن رجل يقال له برهان الدين بن سيد الناس..»

برهان الدين؟؟

«نعم يا مولانا.. برهان هذا شرع في احتكار الفول، عرفت أساليبه، مكاميره، عرفت أن سعر الفول سيشط في الأسواق، عندما جلست إلى الزيني، بعد مرات عدة ترددت فيها عليه بدون جدوى، شكا إليَّ ما يثار حول الفوانيس، قال إن الأمراء غرروا بالناس، ضحكوا عليهم حتى أثاروهم ضد الفوانيس مما جعل السلطان يلغيها، تحدث طويلًا عن موضوع الفوانيس، قال: إنه كان يرجو الكثير من وراء الفوانيس، أبدى نيته في رفع الكثير من المظالم، تحدث عن ضيقه بمنصب الحسبة، ما يجره عليه، تصور يا مولانا، شكا من قلة المال بين يديه، لأنه قبل الحسبة كان يسافر إلى بعض البلاد يتاجر في أصناف بعينها، يشرف على أرض قليلة عنده في دمياط لكنه أهمل الأرض والرزق، ومرتبه من الديوان خمسون دينارًا لا يكفي المظاهر التي يستلزمها منصب الحسبة، حتى لو أبطل هذه المظاهر فلا بد من ارتدائه أزياء معينة كلما طلع إلى السلطان وهذا يكلفه كثيرًا، لم يخف عني شيئًا، أدق أموره حكاها لي، والله يا مولانا وجدت نفسي قريبًا جدًّا منه حتى كدت أصرح له بما يزعجني، لماذا قبل استمرار زكريا بن راضي نائبًا له؟ تمنيت لو أقول له ما يفعله زكريا بالناس، لم تتغير عوائدهم، يملئون الأزهر، فهل يقبل؟ كدت والله يا مولانا، لكنني لم أفه حرفًا أبدًا أبدًا، قلت له ما جئت من أجله فعلًا.. هز رأسه وقال.. سأكلف نائبي بمراقبته ورصد حركاته، وعندما يثبت صحة ما يفعله يلقى جزاءه، تصور يا مولانا. من سيقيم العدل، من سيمنع برهان الدين بن سيد الناس.. زكريا بن راضي. لكنني قلت في دماغي ربما يحاول الزيني استخدام زكريا لما فيه خير الناس، رحت أرقب برهان الدين، لكنه استمر على حاله، طلعت إلى الزيني مرة ثانية قال: مثل هذه الأمور تستغرق وقتًا، وذكر حادثة الخياط الذي عاقبه لاعتدائه على غلام صغير برغم شفاعة أكبر الأمراء له عند السلطان، لا أدري يا مولانا ما الذي يقصده الزيني؟ حتى الآن لم يهز إصبعًا في وجه برهان الدين، هل أندم على

سيري أمامه يومًا؟ من ناحية أخرى توجعني المظالم، لماذا يجلد الفلاحون وينكر عالم كبير من الأزهر أمه التي جاءت من الأرياف تزوره.. لماذا.. لأنها فلاحة! كيف أصدق يا مولانا أن الناس خلقوا متساوين؟ كيف، وما حدث وما سيحدث ينكر هذا ويكذبه، كيف؟ أود لو تقدمت الخلق أجمعين وانتزعنا كل ظلم وفساد. ليس في الديار المصرية وحدها، إنما في الدنيا كلها، لكن أعمارنا ستضيع وتمضي ولن نقدر على هذا..

تصور يا مولانا، إنني أخاف، عندما أرى عمرو بن العدوي، أتساءل عما سيكتبه في أوراقه عني، ما يجعلهم يلقون بي، يومًا في المقشرة، في العرقانة، أو الجب، لكن ماذا يفعلون بي، ربما قطعوا دراستي بالأزهر يمنعون راتبي ورزقي، يسدون أبواب الوظائف في وجهي، فليفعلوا.. ما قيمة هذا كله، إذا رفعت الظلم عن إنسان، ما قيمته؟ لكنني أجد نفسي من جديد أخشى الحرمان والسجن والقيد والعذاب، أرتجف لو سمعت باسم زكريا، تصور يا مولانا.. أنا الذي يعذبني مرأى الذباب على عيون العيال في بلدتنا، أتمنى.. أحمد الله.. تصور يا مولانا.. أحمده، لأنه لم يخلقني فلاحًا أعاني قسوة العيش وظلم الكشاف، مولاي اعذرني لأنني وضعت أثقالي كلها عندك.. لكن ما حيلتي والزمان يلجمني ويكسر فكي ويخرس البوح في صدري..

الليل يمضي صامتًا، في البداية ألوانه خادعة تزداد مع ضياع النهار قتامة وعمقًا، حتى يغرق الكون في سواد، تضيع أصوات العباد، تدور أصابع الشيخ حول بعضها البعض، سعيد يخشى الليل، لا يلقاه في الرواق أبدًا، يرى نهاية الضوء في الطرقات، بعد إطراقة تدور عيناه في الفناء الصغير، راسخ جذع النخلة المروية بالسنين، مرتفع من الأرض يتوسط الفناء لم يلحظه. الشيخ ساكت، يشير سعيد إلى كومة التراب، بروز الأرض.. «لم أره من قبل..»

بأي سؤال يكسر الصمت.

«من حين إلى آخر أحتاج إلى خلوة.. من أجلها حفرت لنفسي هذا السرداب، حفرته لجسدي أودعه فيه كلما حارت الروح وأعجزها الزمان..»

هذه الفتحة الضيقة تؤدي إلى سرداب الخلوة، بمفرده انتزع لنفسه مكانًا من الأرض، داخله يخف من أثقاله، من أحماله، تحلق الروح إلى واد يمكن فيه الوصول إلى الحقائق الأولية، يدق أبواب الكون، يفصح عن خباياه عن أسراره، فيبصر القلب ويرى ما يرى..

نـــداء

يا أهالي مصر..

نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر

انكشف المستور

ظهر المقبور

بانت فضيحة علي بن أبي الجود

الليلة قبيل المغرب

سيقرأ الفقهاء في الجوامع

وثيقة تلقون فيها ما تشاءون

لتروا، كيف امتص الظالم

دماء المسلمين

فحق عليه عقاب مبين..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

# السرادق الثالث

وأولــه.. وقــائـع حبـــــس

علـــي بـــن أبـــي الجـود..

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحان الذي كشف كل غطاء، وبسط الأرض، ورفع السماء، نتوجه إلى أمة الإسلام، نكشف أمرًا طال به الترقب، ليكون عبرة لمن اعتبر، الحي ومن عبر، تفاصيل هذا كما يلي.. منذ عام، أمر مولانا السلطان بالترسيم على المدعو علي بن أبي الجود، وتسليمه إلى متولي الحسبة الشريفة وذلك لعقابه، وكشف المخفي وراء أبوابه، ومنذ البداية أضمرنا الصبر حتى النهاية، لأننا نقف ضد تعذيب البدن فلا نرضى لإنسان مهما كان، أن يحرق عضو في جسمه، أو ينعل كالفرس وهذا سبب المدة الفاصلة بين تسلمنا علي بن أبي الجود، وكشف أمره، كشفنا من أمواله ما يعجز عن تصديقه إنسان، وكل هذا امتص من دماء المسلمين، وإليكم ما وضعنا يدنا عليه.

بلغ دخله اليومي من أملاكه وأطيانه وضماناته وحماياته تتمة ألف دينار يوميًّا واشتملت تركته على مائة وخمسين ألف دينار ذهبًا ووجد عنده ياقوت أحمر، زنة الفص رطل ونصف، وستة صناديق فيها جواهر، ومن الماس وعين الهر مائة قطعة، وعلى ذهب مقدار قنطار، وطاسات وأباريق فضة نحو ستة قناطير، ومائة قفطان بفرو سنجاب، وأربعمائة قفطان بغير فرو، وسروج ذهب. عشرون سرجًا، وجد لديه أيضًا خمسون فرسًا ومائة بغل، ومائة جمل، ومن الغنم والجواري والمماليك شيء كثير، ووجد عنده في المرحاض شبه فسقية، كشف عنها فإذا بها مملوءة ذهبًا، ووجد لديه من القمح والفول والشعير مائة ألف إردب، ووجد عنده سبعون مركبًا سارحة في النيل.

كان اللعين يخفي ثراءه ويبذل الكثير حتى لا يشعر به أحد من الناس لكن صبرنا وطول دأبنا أوصلنا إلى ما خبأه وأخفاه، وسيتم طلوعنا بماله غدًا محمولًا فوق بغال، حيث تضم هذه الأموال إلى خزانة مولانا السلطان، في وقت نحن في أشد الحاجة إلى المال، لتحرك أعدائنا علينا، ومن شاء منكم الفرجة فلينتظر في تمام الساعة الرابعة عربي وقت الضحى، أيضًا سيعرض عليكم علي بن أبي الجود وسترونه سليمًا معافى لم يلحقه أذى ولا تعذيب..

تم الحوطة على ثلاثين جارية، ومائة وعشرين عبدًا، وأربعين خصيًّا خصاهم اللعين بيده.

يا أمة المسلمين.

يا أهالي مصر

أتوجه إليكم برجاء، أبلغونا حال وقوعكم على أي إنسان يكتنز المال من دم المسلمين، لا نقبل أبدًا أن يجوع الخلق، وتستمتع قلة، أبلغونا: مهما علا قدر مكتنز الذهب والفضة والبغال والعبيد والجواري أخذنا لكم الحق منه..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

«اللهُمَّ اجعَل هَذا البَلد آمنًا»

وقائع تعذيب علي بن أبي الجود، مرفوعة إلى الشهاب زكريا بن راضي كبير بصاصي مصر، ونائب الحسبة الشريفة، من مقدم البصاصين في القاهرة.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

بناء على ما أشرتم به، ونوهتم إليه قامت فرقة من أشداء بصاصينا بتنقيب الأحوال وإظهار ما جرى لعلى بن أبي الجود، وقد نفذنا عبر أسوار منيعة، وعقبات كبيرة، لنجتلي سر الأشياء، وبعد جهد جهيد استطعنا ضم واحد من العاملين مع الزيني، لكننا لم نعتمد عليه وحده، فهو أول رجل ينضم إلينا من ناحية الزيني، استوثقنا من مصادر أخرى، تعرفون بعضها، والآخر نحتفظ به حتى ننقله إليكم شفاهة، أما بعد..

ثبت عدم وجود سجن في بيت الزيني الكائن ببركة الرطل فهذا البيت ضيق ولا يتسع لوجود سجن به، وأي صراخ فيه يمكن سماعه من قريب، لقد نقل «علي» إلى بيت قصي قريب من حلوان وهذا البناء تحيطه خضرة كثيفة. لا نعرف متى انتقل إلى ملكية الزيني أو من شيده وبناه وجار بحث هذا.. يقع تحته سجن يضم أربع عشرة زنزانة، ليست زنازين بالمعنى الدارج، الواحدة منها حجرة مستطيلة طولها ثلاث خطوات بقدمي رجل بالغ، ارتفاعها أزيد من قامة رجل عادية بشبر ونصف، عرضها لا يمكن الإنسان من فرد ذراعيه، يتوسط سقفها فتحة صغيرة تؤدي إلى الخارج، ترى منها السماء قطعة فضية، لكن الفتحة لا تظهر أبدًا من الخارج، فوق الباب من الداخل مصباح يضيء بنفس طريقة الفوانيس، هذا المصباح يواجه الإنسان أينما استدار أو حاول الهرب، حتى لو نام تحت الباب مباشرة، ولو أدار ظهره فحتمًا يجدها في مواجهته، يئز الضوء ليلًا ونهارًا، يحدث وشًّا خفيفًا لا يدركه الداخل مباشرة لكنه ينقلب إلى زئير في الأذنين بعد فترة، ويبرز من الجدران لوح خشبي قصير يتناول فوقه المحبوس طعامه..

السجان القائم على أمور المحابيس هنا، شاب مليح الوجه، رقيق العبارة، جميل الصورة، وهذا يخالف كل ما اتبع من قبل، ابتسم في وجه «علي» خاطبه بأدب «إذا احتجت أمرًا فاطرق هذا الباب بقبضتك مرة واحدة»، وعندما أقول: من؟ فلا تقل اسمك إنما قل «واحد» أنت منذ الآن واحد، طوال حديثه لم تفارق شفتيه الابتسامة، حديثه في ظاهره رجاء لكنه أمر في جوهره، نظافة المكان لم تطمئن «علي» أدركه رعب خفي، ليس حادًّا، إنما يماثل غرابة المكان، هدوءه، الباب يوحي باحتمال فتحه المفاجئ، ربما انطبقت عليه الجدران، تتغير الابتسامة عندما جاءه الطعام تعجب للغاية وضع أمامه أرزًا مفلفلًا، طبق ملوخية، قطعة لحم وبرتقالًا وهذا لم يسبق حدوثه في تاريخ الحبوس، لكن لا بد من توضيح أمر هنا، لم يشعر بالشبع

أبدًا، إنما يعيش جوعًا خفيًّا، الأكل في مظهره أكثر من كاف، يحدث شبعًا مباشرًا، لكنه لا يقضي على جوع خفي مستور يأكل نخاع الغطاء الدفين.

بقي علي بن أبي الجود ثلاثة وتسعين يومًا لم ير خلالها إلا وجه عثمان، إذا دق الباب في أي زمان، يجيئه مبتسمًا كأنه لا ينام ولا يفارق المكان أبدًا، كأنه يعرف متى ينوي دق الباب فينتظر وبمضي الزمن بدأ علي بن أبي الجود يخشى الابتسامة والعينين الهادئتين حتى صار يزوغ من صاحبهما، وربما وجد نفسه محصورًا بالبول، يكاد يطق، لكنه يأبى دق الباب.

استعاد حياته لحظة بلحظة مرات، اختلط عليه الليل والنهار، بدا له الزمن جسمًا تائهًا بلا ملامح، يعرف وجود آخرين بجواره، دائمًا يسمع عثمان يسأل: من؟ ثم تسير خطواته حتى يتوقف عند باب قريب، فشل تمامًا في الإصغاء إلى أصوات المحابيس الآخرين، بدأ يفكر كيف يفكر؟؟ تمنى لو يحرقونه حتى العالم يروح من عقله، ومثل المصباح يمزق لحمه ويجفف دمه، وفي لحظة بلغ فيها درجة من الضيق العظيم دخل عليه الزيني بركات بنفسه..

قال بصوت خال من افتعال المودة.

«أنا الزيني بركات..»

تطلع إليه علي بن أبي الجود متعجبًا، لم يره من قبل، وما ننقله هنا، قاله الزيني بالتقريب.

كما ترى يا علي، لم نفعل بك مكروهًا، لم نضايقك في بدنك، أنا أعرف حيازتك لمال طائل، أنت داهية في طريقة إخفائه، أخبرني عنه وكما تعلم أنا لن أضع منه درهمًا في جيبي، كله سيذهب إلى خزانة السلطنة، أما حريمك وعيالك فأنا أضمن معيشتهما.

«أين الأموال؟»

هز علي بن أبي الجود رأسه

«أتنكر؟»

أكد النفي، قام الزيني واقفًا..

«اللهم إني بريء من ذنبك».

بعد زمن لم يعرف مقداره، دخل عثمان، عصب عيني علي بن أبي الجود بقماشة مبللة، لحظة طال انتظارها، لا يدري ما سيفعل به، لكنه يفارق هذا المكان الغريب، هذا يكفي، نزل درجات، عبر أبوابًا، تركه عثمان في قاعة خلاء، ارتعدت مفاصله، تهيب الجلوس، خطا الوقت ثقيلًا كالخيل إذ تحتضر، ارتعشت أطرافه، دب الخدر إلى ظهره، جسمه كله يهتز، فجأة هوت يد قوية صفعته فوق عنقه، أطارت شررًا ونجومًا زرقاء في فراغ عتيم أحاطه، ثلاث صفعات صنعت حزامًا ساخنًا حول قفاه، وهنا تبدأ الوقائع الفعلية لتعذيب جسد علي بن أبي الجود.

اليوم الأول:

وفيه دهنوا باطن قدميه بماء وملح، أحضروا عنزة صغيرة سوداء، في رأسها بياض، راحت تلعق الماء المالح على مهل، التوت شفتاه، ارتجفت ضلوعه، صار يصرخ، ثم ينقلب صراخه ضحكًا حتى غشي عليه، سكبوا على وجهه ماء باردًا، «أين أموال المسلمين؟»

ولم يجب.

اليوم الثاني:

من الثابت الذي لا يدع فسحة للشك أن الزيني بركات لم يفارق الغرفة المجاورة للحجرة التي يتم فيها «استخراج الحقيقة» وفي أول النهار أخذه الغيظ، لثبات علي بن أبي الجود، دخل بنفسه، راح يمد أصبع يده الوسطى بحركة ثابتة في صدر علي بن أبي الجود، في نفس الوقت أمسك أحد رجاله بإبريق ماء رفعه، بدأ نزول الماء قطرة قطرة، بفاصل زمني معلوم، لم يمض وقت طويل إلا انتفضت رقبته، ارتعش جسده كأنه على وشك الانقصاف إلى قسمين، صرخ صرخة هائلة خارجة من الحشا، هنا زعق فيه الزيني «أموال المسلمين يا علي».

ولم يجب..

عصر اليوم التالي:

أحضروا فلاحًا من المحابيس المنسيين، نزعوا عنه ثيابه تمامًا، نظروا إلى علي بن أبي الجود، قال الزيني: «انظر سأفعل بك كما أفعل بالرجل» أظهروا حدوتين ساخنتين لونهما أحمر لشدة سخونتهما، بدأ يدقهما في كعب الفلاح المذعور، نفذ صراخ الفلاح إلى ضلوع علي، وكلما حاول إغلاق عينه يصفعه عثمان بقطعة جلد على قفاه..

اليوم الرابع والخامس:

ذبح ثلاثة من الفلاحين المنسيين، أسندت رقابهم إلى صدر علي بن أبي الجود والزيني يدخل ويخرج محمومًا مغتاظًا يسأل «ألم يقر بعد؟» لا يجيب أحد، يضرب الحجر بيديه..

اليوم السابع:

عندما أحضروا «خليل»، أصغر أبناء علي بن أبي الجود بدا غائبًا تائهًا، لكن عندما صرخ خليل: اتسعت عينا أبيه ولم يسمع صيحات ولده..

تعليق:

هذا بعض ما وصلنا من وقائع تعذيب علي بن أبي الجود. لكن الثابت فعلًا - وهذا محير - عدم إقراره بمكان المال، إذن من أين عرف الزيني مقدار ومكان الأموال التي نشرها على الناس؟ العجيب أيضًا أنه بعد مدة معينة، وبعد تنوع أساليب العذاب الجديدة التي يسميها الزيني «كشف الحقيقة» أصبح علي بن أبي الجود معافى، التغيير الوحيد أصاب عينيه، أصبح لا ينظر إلا في خط مستقيم كالأعمى لكنه مبصر، إذا ناداه أحد لا يجيب، إنما ينحني ويدلدل لسانه كالكلب ولم نفسر بعد ما حاق به.

(مقدم بصاصي القاهرة)

نـــداء

يا أهالي مصر

نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر

أمر مولانا السلطان

بإعدام علي بن أبي الجود

ضربًا بالأكف

سيرقص طوال الطريق

كما ترقص النساء

اضربوه

اضربوه

كلما كف

فمن شاء الفرجة

والقصاص من عدو الله

عليه الخروج بعد صلاة العصر

يا أهالي مصر

رجب 914 هـ

مقتطف «ب»

ويتضمن بعض مشاهدات الرحالة البندقي، فياسكونتي جانتي الذي كان يعبر القاهرة وقتئذ لأول مرة، وكان قادمًا من بلاد الزنج والسودان، قاصدًا ركوب البحر، عائدًا إلى بلاده بعد تجوال طويل.

خرجت من الخان، والحق أنني وجدت الزحام ثقيلًا، النساء يختلطن بالرجال، الصبية الصغار يحاولون التسلل بين الأقدام للنظر، وعلى جانبي الطريق وقف رجال أشداء مدرعون يرتدون ملابس زرقاء بياقات صفراء، عرفت من علي مترجمي أن الموكب خرج فعلًا من بيت الزيني بركات محتسب القاهرة وقف عند مدرسة ابن الزمن، عرج على جزيرة النيل، أتى إلى شبرا، استمر حتى عبر قناطر أبي المنجا وطلع من قنطرة الحاجب، دخل من باب الشعرية، كنت أقف عند «بين الصورين» (سوق كبير) أمام دكان يبيع أصباغ الملابس، انتشر قلق بين الناس تدافعت المناكب، صرخ طفل، أطلقت امرأة صوتًا طويلًا، يسمونه هنا زغرودة، بدأت تباشير الموكب، عدة خيول مسرجة، كلها بيضاء، ثم مرت أربعة خيول يدق راكبوها طبلًا، يتوقفون ليعلن رجل قصير لم أسمع أقوى من صوته قط، وأخبرني علي مترجمي أنه يطلب من الناس أن يضربوا علي بن أبي الجود كلما كف عن الرقص، حتى يسقط ميتًا، والموضع الذي سيسقط فيه سينال بقشيشًا من الزيني، والحق هذا أغرب طريق إلى الموت رأيته أو سمعت به، أخبرني علي أيضًا أنه يزف إلى الناس بشرى حسنة، أمر السلطان بتعيين الزيني بركات واليًا للقاهرة إلى جانب منصبه، وقبل الزيني المنصب حرصًا على راحة الخلق، ومن أراد الاعتراض على ولايته للقاهرة فعليه إبداء رأيه بعد صلاة الجمعة في أكبر مساجد العاصمة (الأزهر) ومنصب الوالي يشبه حاكم الإقليم عندنا، أما الحسبة فلا مثيل لها في بلادنا إذ إنه منصب يجمع بين السلطة الدينية والمدنية، ويتلخص في ضمان الخير وطرد الشر، والحقيقة لم أصدق ما أخبرني به علي، فيما يتعلق بحض الرعية على الذهاب إلى الأزهر لإبداء رأيهم، هذا تقليد لم أره قط، سابق لزماننا، لم أسمع به، على الرغم من سعة تجوالي، سمعت اسم الزيني يتردد كثيرًا يبدو أنه شخص خارق للعادة وسأحرص تمامًا على لقائه، عندما انتهى المنادي طرق أذني وقع طبل، الجمع كأنه إنسان واحد، تزايد الصياح، تلويح الأيدي، دفعت الناس حتى اقتربت من عربة مسطحة صغيرة العجلات يجرها بغلان فوقها رجل متوسط القامة يقف في غير ثبات محلوق الحاجبين واللحية، كحلت عيناه كالنساء، تناثرت بقع حمراء على وجنتيه، فوق رأسه طرطور مثلث متعدد الألوان له زر طويل، يهتز كلما مال الرجل وتثنى، إنه يهز وسطه هزًّا عنيفًا غير منسق، يستمر الطبل، يميل بمنتصف جسمه الأعلى إلى الوراء، يرعش صدره إرعاشًا قويًّا، يعتدل فجأة يبرز مؤخرته إلى الوراء، طوال هذا الوقت تمتد أيدى العامة، تصفعه، تضربه، يدفع أحدهم عصا قصيرة بين إليتيه، فوق جبينه يتساقط عرق غزير، يتدلى لسانه، يتفاني الناس في صفعه وضربه، إذا سقط ميتًا فسينال من حوله الحلاوة، عبثًا يحاول رجال الزيني منع الأيدى التي تحمل عصيًّا ومراكيب من الوصول إليه، ابتعدت العربة ذابت في الزحام الكثيف، ابتلعت لعابي، وجه الرجل الشائه المذعور، جسمه، يسد الفراغ، والحق أنني فزعت..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

نـــداء

أمر مولانا السلطان

بتسليم الأمير كرتباي

والي القاهرة القديم

إلى ناظر الحسبة الشريفة

ووالي القاهرة

الزيني بركات بن موسى

لمعاقبته، وإظهار ما نهبه اللعين

من أموال المسلمين.

زكريـا بـن رَاضـــي:

يظن زكريا بن راضي أن لقاءه بالزيني تم في الليلة نفسها، ساعات الليل الأخيرة عادة لا يزعجه أحد إلا بدافع أمر جسيم، ليلتها أصغى إلى «وسيلة» تحدثه عن بلادها، ما يحب الإصغاء إليه، عادات الناس هناك، ألوان الطعام، يسألها كيف لم يفض تاجر الرقيق بكارتها منذ اختطافها؟ عودتها الأسئلة الغريبة ألا تخجل، قالت إنه طمع فيها، كل من رآها طمع فيها، وحدث قرب حلب. هنا مد زكريا يده، لمس شفتيها بأطراف أصابعه «حدثيني عن حلب»

لم تدركها الحيرة اعتادت منه الانتقال من موضوع إلى آخر، فجأة بدأت تسترجع المدينة، الطرق المؤدية إليها، رجال البريد في المباني الصغيرة القائمة وحدها وسط الخلاء، عيون فلاحات الشام المتطلعة إلى القافلة إسراعهن بإغلاق بيوتهن، تذكر ترحيب الحراس بالقافلة، مسرور التاجر يعرفهم كلهم، يدفع لهم مجعولًا معينًا من الذهب، لا يتعرضون له أبدًا، بل يتولون حراسته إلى الطريق، زكريا يمسك كوبًا مضلع الحواف، لا يشرب الخمر أبدًا، لا يحب لوعيه أن يهجر العالم لحظة واحدة، حدث منذ مائتي عام أن أضاعت الخمر واحدًا من أعظم البصاصين الذين عرفتهم مصر، في زمن الظاهر بيبرس، أدمن ابن الكازاروني الخمر، صار يقول في مجالسه الخاصة والعامة كل ما يعرفه عن أحوال الناس والدولة، تسبب هذا في فضيحته ثم قطع رقبته، كان قد ابتدع نوعًا جديدًا من الخمور، قيل: مجرد رائحتها تجلب للإنسان سكرًا عظيمًا، نسبت فيما بعد إليه، وعرفت بالخمر الكازارونية، أمر السلطان الناصر بن قلاوون - فيما بعد - بإبطالها وإراقة ما تجمع منها في الدنان، زكريا يعشق عصير الفاكهة، استحضر جهازًا من بلاد تلمسان يعصر أقسى أنواعها، يصفي البذور، يرشف عصير العنب، يمد يده إلى جيد وسيلة يمر عليه مرًّا هينًا لطيفًا تستمر في حديثها، ترتعش الحروف فجأة بينما تطلع يده وتنزل تقترب أصابعه من صوان أذنيها، تخرج أنفاسه ساخنة فوق مؤخر عنقها، قشعريرة بدنها تنتقل إليه يتابع اختلاج ركني فمها فجأة يحتوي أذنها الصغيرة في فمه، يرضع اللحم القاسي، تشهق، تتباعد أطراف جسدها، تحيط ثدييها بيديها تغمض عينيها تروح إلى بعيد، فجأة بضربة واحدة، يمزق الثوب، لا يفك أزراره، إنما يمزقه، يصغي إلى تقطع القماش، تتكشف له بدايات العالم الطري تبدأ حركة من عينيها تجسد صغر السن، تفتح الزهرة، صبية تطرق أول العمر تدهش إذ تقف عند حدود الدنيا، أمثل

هذه المتعة توجد فعلاً؟ في اللحظة، هذه اللحظة تمامًا، جاءه شهاب الحلبي طرقٍ درع النحاس المعلق في الدرقاعة السفلى، نزل إليه «أرسل الزيني بركات مبعوثًا يطلب من زكريا الحضور بسرعة لأمر جلل» أومأ زكريا برأسه طلع إلى خزانة ثيابه انتقى رداء شيخ أزهري، منذ إقراره نائبًا للحسبة لم يرسل إليه الزيني، كل صلتهما تقرير يومي يرسله زكريا إلى الزيني طبعًا تقرير يعد بشكل خاص، مرات قليلة أرسل الزيني يسأل عن أمور ذكر أنها عامة، جاوب عليها زكريا وهو يضمر تعجبه لتفاهة هذا المطلب، مثلًا أسماء الجواري اللواتي اشتراهن الأمير بشتاك في عام 907هـ، مقدار الخمر الذي يشربه الأمير قوصون كل ليلة، اسم والدة بائع مخلل بالحسينية، أصناف الطعام التي يفضلها قاضي القضاة عبدالبر، أو عدد أمتار الثياب اللازمة لعمل عباءة زركش لخوند زينب زوجة طشتمر، كم مملوكًا له ست أصابع في كلتا يديه وعددهم في الأبراج، زكريا قابل هذا باستغراب، تدارك رأيه بسرعة، ليستبعد السخرية والاستهزاء، مثل الزيني لا يطلبها إلا لأمور جسام، عندما التقى به أول مرة في بركة الرطلي، أدرك ندرته، كل منا خلق ليلقى الآخر، نزل السلم بسرعة عند الاقتراب من بيته لن يظهر دهشته، سيتحدث إليه بهدوء، لا شيء يمثل مفاجأة بالنسبة لزكريا، بل سيوحى إليه أنه خمن نية الزيني في استدعائه، طلع إلى الفناء الواسع، لأوراق الشجر حفيف مسموع، ما ألذ الرجوع إلى وسيلة، لم يرتو منها تمامًا، دار بعينيه باحثًا عن مبروك، مبروك الوحيد الذي يميزه حتى لو اختفى في زي الجان، يبدو للغرباء أخرس لكنه يتحدث قليلًا جدًّا، أحيانًا يعنف زكريا ويلومه لومًا قاسيًا، زكريا يقبل هذا ويصغى إليه، وينفذ ما يقوله مبروك، سأل زكريا: «أين رسول الزيني؟» تقدمه مبروك، همس زكريا: «إذا لم أرجع حتى ظهر اليوم التالى فقل لمقدم القاهرة أن يهتدي بما يقوله شهاب الدين كاتم السر.. مفهوم؟ دخل زكريا إلى حجرة الجلوس بالديوان، قال رجل بدوي ملثم، أهلًا بالشهاب الأعظم زكريا..» نظر زكريا إلى الوجه الملثم، الحزام العريض المرصع بفصوص معدنية بارزة، زكريا يتفحص رداءه، هذه الأمور الصغيرة، تبدد دهشته عندما رأى الزيني بنفسه، دخل الزيني مباشرة في غرضه قال: بدون لف أو دوران، باختصار شديد أريد أن أعرف بالضبط. أين أخفى علي بن أبي الجود أمواله؟ أسند زكريا جبهته إلى أصبعين من يده اليمنى، باختصار كعناوين البطائق «لا أعرف» زعق طائر غريب الحس في السماء، الليل يشيح، قام الزيني مرة واحدة، على مهل اقترب من زكريا «أنت يا زكريا تعرف تمامًا أين موجودات علي بن أبي الجود، أنت لا يخفى عنك شيء، ولو خفي لما خاطرت بسمعتي وأقررتك نائبًا للحسبة، أنت تعرف ليس لأنك شغلت منصب نائب علي بن أبي الجود إنما لأنك زكريا، أتفهمني، لأنك زكريا بن راضي أعتى من تولى منصب كبير بصاصي مصر» لم يرد زكريا، ليقل الزيني ما يريد، أمر دفين يوشك الإفصاح عن نفسه، الضوء خافت غامض مرعوش، يوشك على توهج لكن يدًا قوية تحبسه، توشك على إلغائه، قال الزيني بركات بن موسى: «أنت تعرف مكان أمواله يا صاحبي كما أعرف أنا قبر شعبان» الآن بعد مضي زمن على مجيء الزيني آخر الليل لم تبرد حرارة ما قرره زكريا بعد انصراف الزيني، ربما امتد الزمن سنين طويلة، لكن ما قرره لا بد أن يتم، يتحقق يومًا، يراه مجسدًا، أي قوة استطاعت في

أي زمن منع كبير البصاصين من تحقيق غرض أضمره، لن يمنعه إنس ولا جان، ولا ألف طلسم، أبدًا لن ينسى أيام العزلة التي فرضها على نفسه في اليوم التالى لزيارة الزيني، أمر بألا تدخل إليه تقارير، طلب من مبروك ألا يريه ملامح أي إنسان، الطعام مضغه بضيق عندما اضطر إلى تناوله، عندما أنهى عزلته، جاءه رجاله مهنئين، لكنهم ارتدوا عنه خائبين، قابلهم بوجوم وضيق، سر في نفسه عندما أخبره شهاب الحلبي باستعداد كبير أطباء السلطان للمجيء إليه طوال أيام عزلته، في الأسبوع الأول، التالي لمجيء الزيني، دخل مبروك قال: «الزيني بركات جاء».

في الفناء وقف، يتحسس بعصاه جذع نخلة ضخمة مغطى برقائق نحاس، قال: «أفضل لو جلسنا في الشمس، بيتي في بركة الرطل لا تدخله الشمس»، الزيني ينكت الأرض بعصاه الرفيعة، زكريا يسند جبهته إلى يده اليمنى، أرجو أن تسمعنى، أن يتسع صدرك لي.. زكريا يهز رأسه، جاء الزيني بثيابه العادية، لا يرتدي الملابس البدوية، أفكار كثيرة تدور في عقلي، لكنها لن تتم إلا بعرضها عليك، أرجو أن تخطئني إذا بدا لك هذا، أنت أكبر مني علمًا وتجربة بما سأقول، التردد واضح في ألفاظه، ارتياح خفي يتسرب إلى زكريا، أردت أن أفضي إليك بما أوده وأرغبه لنظام البصاصين، هل يمكن لإنسان أن يتخيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بدون عيون قوية مخلصة ترى في كل مكان ما أراه أنا.. قال زكريا بسرعة، عندك رجالك.. نفض رأسه بسرعة، سرور في صوته، ربما لاستجابة زكريا إلى الحديث، أعرف أنك ستقول هذا، لكنك يا زكريا تهول من أمر رجالي، أليس من الأفضل للإنسان رؤية الدنيا بعينين بدلًا من عين واحدة، صحيح، ستقول ومعك الحق كله، لدينا آلاف العيون، صحيح، لا أعترض، لكن لو وجدت مجموعة أخرى لها نظام مخالف، طريقة ثانية، ألا يصبح هذا مفيدًا، أولًا.. اعذرني لأننا لا نلتقي بما فيه الكفاية، مشاغلي كثيرة جدًّا يا زكريا، تصور إنسانًا يقر العدل بين الناس في مثل هذا الزمان أنت تعلم ما ينويه ابن عثمان ومهما طال الزمن، فالحرب واقعة لا محالة، مهما طال يا شهاب، لقد أخبرت مولانا بهذا، وأقولها لك صريحة، بل إن ثقتي بك تدفعني إلى التصريح لك بما هو أكثر من هذا، المشرق لا يحتمل دولة بني عثمان ودولة المماليك في مصر، إما نحن وإما هم، لا تندهش يا زكريا، أو بمعنى آخر لا تتصنع الدهشة، أنت أدرى مني بهذا، من يعطس في القسطنطينية تسمعه أنت هنا، كل حركة هناك أنت تعرفها، وبإذن الله سوف يتغلب عليهم، ببركة البيت الذي يحميه مولانا، فكما ترى، الأحوال صعبة، لا بد من لقائنا كثيرًا، ننظم أمورنا معًا، ما ينقله رجالي سأقدمه لك، ملخصًا كل يوم، عندك تجربة مهولة، عندك أدق نظام في الدنيا لاستخدام الحمام الزاجل والبريد، وأنا وأنت نشهر سيف العدالة، أنا وأنت نقيم الميزان صحيحًا لا يميل ولا يخل، ما أريده يا زكريا أن يصبح رجالنا أداة العدل بين الناس كل الناس لا بد أن تعرف هذا»، كف الزيني فجأة عن الكلام، بقي زكريا ناظرًا إلى الأرض، قال بعد لحظات: «آه.. وبعد؟؟» وكأن الزيني لم يتوقف أبدًا، قال بسرعة: «حتى لا أعطلك جئت إليك بأوراق فيها ما أتخيله، أرجوك إبداء الرأي فيها».. عند الباب شد على يد زكريا، أدعوك إلى الغداء عندي.. أي وقت تختار؟، قال زكريا: «لا أفارق البيت إلا نادرًا..» اتسعت ابتسامة

الزيني، «سوف أمد لك مدة حافلة..» قال زكريا: إذن سأرسل لك ونلتقي قريبًا، عاد إلى الحديقة ليرجئ التفكير فيما قاله حتى الليل، بعد قراءته هذه الأوراق، لا بد من النفاذ إلى باطن كل حرف، الأمر ليس هزلًا، ما قدره منذ هذه الليلة، يزداد رسوخًا في عقله، لكن الحقيقة، الزيني رجل لم يعرف له مثيلًا، أحيانًا يفكر زكريا، بضرورة مجيئه بعد هذا الزمان بسنوات، لا يدري مقدارها تمامًا، ولكن أليق به العيش في زمان بعيد، يلقى فيه أدوات يحلم بوجودها، لا يدركها لعجزه، وعجز زمانه عن تجسيدها، هذا الزيني جاءه أيضًا من العصر الغامض النائي الذي يود العيش فيه، مثله لا يستهان به، مع مجيء الليل أدرك زكريا خاطر مزعج منذ زيارة الزيني الخفية، يعود إلى ممارسة وظيفة لم يشرع فيها من قديم، تقريبًا منذ توليه منصب مقدم بصاصي القاهرة، قبيل ارتقائه إلى منصب كبير البصاصين، الليلة يرتد إلى زمن بعيد تعقب فيه الخلق بنفسه، كان يتخفى في ثياب أرباب المهن والطوائف، وقتها استحدث طريقة جديدة في اقتفاء الأثر، تعقب الإنسان بالسير أمامه، وهذا لا يقوم به إلا عتاة البصاصين، زكريا ابتدأ العمل بصاصًا من أصغر الدرجات لم يسبقه أحد في هذا، الليلة يرهف حواسه التي خدمته بصاصًا صغيرًا مبتدئًا، لكن أين؟ هنا في بيت، كيف عرف الزيني أمر المملوك شعبان؟ كعادته عندما يتفحص أمرًا محيرًا، يمسك قلمًا ويرسم أشكالًا وخطوطًا ودوائر، لا معنى لها في ظاهرها، لكنها تساعده، تركز فكره، من رافقه عند ذبح المساجين ودفن شعبان؟

مبروك..

لن ينفي عنك الشك، لا يعلو مخلوق عنده على الشك، أبدًا.. يوضع مبروك في الدرجة الأولى حتى يثبت عكس ما يظنه، ثم، من يفترض أنه تابعهما، أو راقبهما خلال الدفن؟ في هذه الليلة خلا البيت تمامًا لكن ليحصر المترددين على البيت.

- شهاب الدين الحلبي.

- مقدم بصاصي القاهرة.

- رجال الديوان، وكلهم معرفون لديه..

ربما نفذ أحدهم، استطاع رؤيتهما بطريقة ما، لم تتضح حتى الآن، نقل ما رآه إلى الزيني، هذه فعلًا مصيبة، كيف يطل الغريب عبر الأسوار، لا بد من مراجعة ما كتب عن رجاله واحدًا واحدًا، أصولهم، أحوالهم، أمزجتهم، أفكارهم، ثم يضيق الحلقات، يمد الخطوط، يضع الدوائر، حتى تضيق الحلقة حول عنق بعينه، ثم ينتقل إلى معارفه وأقاربه خارج رجال الديوان.

- الحريم.

(ا) نساؤه الأربع.

(ب) الجواري.

من الليلة، سيرى كلا منهن، ليبدأ بأقدامهن، حكمت، أولى حريمه هجرها منذ وقت، ولم يزرها، الليلة يبدأ بها، وعندما يشم عبير المسك، يرشف عصير العنب، يأكل الدجاج المسقي بالسمن وماء الورد، تخرج الأسئلة منه تائهة بلا قصد، الباقيات لكل منهن وقت يلي الليلة، الجواري، «وسيلة» لكنها طفلة لا تكاد، جاءته قبيل تولي الزيني بأسابيع، من يدري، لن يخرج أحد عن دائرة الشك، يبقى احتمال لجوء الزيني إلى حيلة جديدة يجهلها زكريا، هذا ما سيحاول الوصول إليه، لا بد من ذهابه إلى «بركة الرطل»، الزيني يقترح عليه بحث الوسائل والخبايا يريد معرفة طرقه، لا يغيب عن زكريا الضيق الذي جاءه، صحيح أنه يأخذ حذره من جميع الناس بما فيهم أقربهم إليه، العاملون، في بيته، حريمه، فليأت الذين يشهرون به، الذين يلعنونه، ليروا أي هم يعانيه، أي متاعب تحل به؟ خط عدة دوائر، منذ الآن سيكون كل واحد في بيته عينًا على الآخر، كل امرأة سترقب الأخرى، الرجال، يذكر بعض التواريخ الخاصة بالبصاصين، تمكن ملك المغول - أحد أحفاد كبيرهم جنكيز خان - استطاع أن ينفذ إلى بصاصي بغداد، إنسان واحد فقط، اعتلى منصب نائب كبير بصاصي دولة الخلافة العباسية، وهكذا وقف على أسرار الخلافة لها، راسل بها المغول زمنًا طويلًا، حتى اجتاحوا بغداد وهم على علم بأية أرض يخطون فوقها وكان ما كان، قام زكريا تحن روحه إلى التجوال في المدينة والليل مطبق فوقها، لكنه لن يخرج أبدًا، عندما يتبين له الإنسان الذي أبلغ الزيني بما تم، يتخيله الآن، الغل يعتمل في بئر قلبه، يرى بعيني عقله ألوان العذاب التي سينوعها لصاحب تلك الفعلة، أي طريقة مستحدثة لا تخطر ببال جن ولا إنس يختارها لإنهاء حياته، أي طريقة، أما ما قرره بخصوص الزيني بركات بن موسى، فلن يتراجع فيه قط، حتى لو أفنى عمره كله.

قال تعالى: ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ.

«ما أقدمه إليكم ليس إلا مجموعة خواطر وأفكار تراءت لنا، إذا ما رأيتم صلاحيتها، أرجو أن نعمل معًا على إقرارها، حتى يستقيم العدل ويستقر، ولن نبالي في هذا إلا مرضاة رب العالمين، وكما تعرفون فإن أشرف الخلق عليه الصلاة والسلام، قال: (من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله شرهم، ومن أرضى الناس بسخط الله وكلَّه الله إليهم، ومن أحسن فيما بينه وبين الله - تعالى - أحسن الله فيما بينه وبين الناس، ومن أصلح سريرته، أصلح الله علانيته، ومن عمل لآخرته كفاه الله شر دنياه). وبعد،

كان أساس عملنا - أنا وأنت - إقرار الأمن والعدل في ربوع السلطنة، وسأقصر حديثي الآن على دائرة اختصاصي (القاهرة والوجه البحري الذي أضافه السلطان إلى نظارة حسبتي أخيرًا)، أما فيما يخص ربوع الشام، فهذا أمر أنت عليم به، خبير فيه، ولا أقر عليه، وحتى يستقر العدل في بر مصر، لا بد من إقامة أسس قوية، ودعائم متينة، وكما معروف لدينا، فهذه وظيفة مكروهة عند الناس، فمن سبقك لم يظهر إلا جانبها الوحشي، حتى غاب عن الخلق ضرورة وجودها، وعدم استمرار الدنيا بدونها، من هنا فلا بد من وصولنا إلى لحظة يصبح فيها كل بصاص محبوبًا

مبجلًا من الجميع، رجال الدنيا والدين، وسيتم هذا بوسائل عدة، سنناقشها معًا، لكن ما يهمني الآن تقسيم الجماعات والفئات التي سنعمل خلالها، وتحديد أهمية كل منها وضرورة التركيز على بعضها دون الآخر.

تنقسم مصر إلى فئات (وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ):

1 - السلطان والأمراء الكبار.

2 - المماليك والأمراء الصغار.

3 - أولاد الناس، المتعممون، والفقهاء، أرباب الطوائف والحرف، التجار.

4 - العامة من الناس.

بالنسبة للفئة الأولى، يجب النفاذ إلى خباياها، عن طريق بصاصين متخصصين، على درجة عالية من الرفعة والإلمام بالعلوم، والقدرة على المناقشة، ومعرفة تقاليد هذه الفئة وعلومها، وغرضنا هنا حماية مولانا السلطان والأمراء الكبار، وأرى أن يكون البصاصون المخصصون للتوغل داخلهم من نفس الفئة (على خلاف المتبع حاليًا).

وبالنسبة للمماليك والأمراء الصغار، فتخصهم فرقة تتبعك وتقوم بعملها خير قيام.

أما الفئة الثالثة، فلا بد من التركيز عليها، والاهتمام بها اهتمامًا كبيرًا فلهم تأثير عظيم على الفئات القريبة منهم، الجماعات العلوية (الأمراء والأكابر) أو السفلية (العامة والأوباش).

عامة الناس، وهم دائمًا مثيرو الفتن، ربما حركوا بعض المتعممين والفقهاء في ظروف عدة، وأجدني مضطرًا إلى تقسيمهم:

(ا ) طلبة الأزهر والكتاتيب، وهؤلاء لا بد من تتبعهم باستمرار، وإثارة بعض الفتن من حين إلى حين لكشف من ضل ومال إلى جانب إثارة الفتنة والغم، وتحريض الأوباش على سادتهم، وهؤلاء لا يجزرون من بين الناس فربما أثار هذا سخط العامة، إنما يعاملون بطرق مختلفة، وأساليب متنوعة، سنتفق عليها معًا.

(ب) بالنسبة للعامة، فهؤلاء قطيع يتجه كيفما توجهه، إنه بحر زاخر طوع الريح، وحش بلا عقل تسوسه فيطيعك، والأعمار في هذه الفئة لا قيمة لها، فكلما ضاقت سبل العيش، قلت قيمة الحياة، وذهب عناء الحرص عليها، ومن هنا فلا بأس من اختفاء بعضهم من حين إلى آخر، بطريقة لا يعرفها أحد، وهذا يرهب الباقين.

أرجو مساعدتي في إعداد كشوف تضم أسماء جميع العاملين في الحرف والمهن والصناعات والتجارة، كشف يحوي أسماء القصابين وآخر به البناءون، والمرخمون والصباغون، والنقاشون، والعقادون، والصدفجية، والنساجون، وباعة الحلوى، والمشبك، والشربتلية، وغيرهم.

لا بد من حصر المواليد الجدد الذين يجيئون إلى الدنيا وكل أب ينجب طفلًا لا يبلغ عنه إلى نائبي في المنطقة التي يقيم بها يعاقب بالجلد، وبإذن الله أنوي شنق عدد

منهم في البداية حتى يرتدع الباقي، وهكذا يمكننا معرفة أعداد القادمين، من سيخلفوننا في دنيانا، ندرجهم في كشوف نتتبعهم في نموهم، تلقيهم التعليم دينيًّا أو دنيويًّا، في طائفة، أو حربيًّا بالنسبة لأولاد الأمراء والمماليك، تقدم عنهم التقارير كل فترة بعينها، بحيث نعرف ميولهم وأهواءهم، ومكامن الخطر فيهم، حتى إذا ولينا عن الدنيا، حانت آجالنا، وهذا أمر لا يعلمه إلا الله، تركنا لمن يأتي بعدنا سجلًّا نافعًا جامعًا لكل ما عركناه، وما رأيناه في زماننا، وبالنسبة لهذا الأمر قررت شهر النداء به والعمل به بعد أن وافقني السلطان عليه.

أرى ونحن مقبلون على عصر كله محن، وفتن، ونظرًا لتعدد الطوائف والأجناس في بر مصر، أن تعد بطائق صغيرة من الجلد، يحملها الصغير والكبير والبصير والضرير، يوضح في كل بطاقة رقم معين هو ما يقابل الرقم المدرج، بالكشف أيضًا المهنة التي يزاولها الشخص، الجهة المقيم بها، تختم هذه البطائق بخاتمين أحدهما من عند نائبي في منطقة الإقامة، والآخر من مقدم البصاصين في نفس المكان، ومن ضبط بدون بطاقة جلد، عوقب معاقبة شديدة، وعند وفاة الإنسان تقوم أسرته بتسليم بطاقته إلى مقدم البصاصين لترفع إلى الديوان فيشطب اسمه من الأحياء، وينقل إلى كشوف الأموات ولا يستثنى الحريم.

في المدة المنقضية على ولايتي للحسبة، لاحظت طلوع حكايات بين الحين والحين تنتقل بين الناس، الغرض منها التشهير بأحد كبار رجال السلطنة، ومني شخصيًّا، وهذا أمر تتفق معي على ضرورة مقاومته وإزالة أسبابه حفاظًا على هيبة الأمراء، والرجال الأكابر، وأضرب مثلًا بسيطًا، عندما أردت إنارة القاهرة بالفوانيس، تردد كلام كثير حول الموضوع، واعتبر واقعة عظيمة أدرجت في كتب التاريخ، مما اضطرني إلى الرجوع عن أمر انتويته، وشرعت في البدء فيه، هذا لم يغضبني أبدًا ربما أخطأت الوقت، لكن ما آلمني وأوجعني هذه الحكايات التي ترددت على ألسنة العامة، وهم يحبونني، مما دفع بي إلى الظن باختلاق هذه الحكايات والنوادر، وأنت كنائب للحسبة ونائب لي في جميع ما أتولاه من مناصب (قررت هذا أخيرًا) وما يلحق بي اليوم، يلحق بك غدًا، وما يمسني يمسك، لهذا أرى أنك الوحيد القادر على مقاومة وإخفاء هذه النوادر والحكايات حال ظهورها ولن أقبل عذرًا، فلا مستحيل يحول بينك وبين ما تريده.

واقبل مني السلام، وأدعو معك

أن يجعل الله هذا البلد آمنًا.

(متولي حسبة الديار المصرية)

والي القاهرة

الزيني بركات بن موسى

عمْرو بن عدوي

لا يدعه يغيب عن عينيه، إذا بعد عنه، عرف أخباره من أصحابه المجاورين يجلس هادئًا بينهم ثم يسأل عنه سؤالًا عارضًا بلهجة يعرف الآن كيف يلونها تمامًا «ألم ير

أحدكم سعيد الجهيني؟» يقول أحدهم «خرج منذ الصباح»، يجيب آخر «سعيد تعود الجلوس في مقهى قريب من جامع قلاوون»، يقول عمرو «سعيد ابن حلال»، يسكت، منذ أيام خرج عمرو إلى الطرقات يرى أيامًا نائيات يمسك فيها بجلباب أمه، خرجا إلى الحقول لينتزعا البطاطا، رائحة الضباب لم تفارق أنفه رائحة الخبيز ساعة الظهيرة، البوص، وهج الأفران، جريه مع الأولاد عند مجيء نائب المحتسب، نظرات الحريم المذعورة من الطيقان الضيقة، خوف يضم القلوب، عند سوق النحاسين يشم دخان المستوقد المجاور لحمام قلاوون، تسوى فيه قدور الفول المدمس.

صباح الخير.

يرفع حمزة بن العيد الصغير يده.

«أهلًا.. أهلا بالقمر..»

منذ ثلاثة أسابيع يمر يوميًّا على حمزة، يشرب القرفة بالحليب، يدفع درهمًا كاملًا بدلًا من نصف درهم، في أحد الأيام تغيب عن المجيء، في اليوم التالي أبدى حمزة جزعًا، تمنى ألا يكون لحقه مكروه ثم دعا له بطول الستر، عمرو يجيء هنا في أوقات معينة، يعرف من تتبعه لأخبار سعيد، مواعيد حضوره، قال مقدم البصاصين: تردد سعيد إلى مقهى حمزة، أمر جديد لم تبلغ عنه إلَّا أنت ثم قضاؤه وقتًا في تدخين المعسل هذه علامة جديدة، ثم ما الذي دفعه إلى اختيار هذا المقهى بالذات؟!

تلك أمور لا بد من إيضاحها، في البداية حامت حوله الظنون، ربما يتخذ الدكان مكانًا للقاءات مريبة، لكن الرقابة الصابرة المحكمة، أثبتت أنه يقضي الوقت كله منفردًا لا يتحدث إلى أحد فيما عدا حمزة بن العيد الصغير، حامت الظنون حول الألفاظ المتبادلة بينهما، لكن ثبت أنها لا تعدو طلبه الحلبة، أو تحية، أو تبادل المودة، وكلها ألفاظ لا تخرج عن حديث زبون وصاحب مقهى، وإن تميزت بود زائد، أيضًا طريقة طلبه للحلبة لا تدعو للريبة، لا يقرن طلبه بأية إشارات خفية أو رموز سرية، ربما تضمنت معاني دفينة تغيب عن اللبيب الفطن، أما المحير فهو موضوع تفكيره خلال جلوسه بالمقهى مقدار ساعة أو ساعتين، في مرة أخرى قال مقدم البصاصين: «لا بد من وجودك على مقربة من سعيد الجهيني، عمرو يعرفه، ينام في الرواق بالقرب منه، عالم بطبائعه، بلحظات سروره، ولحظات كآبته، وما يصاحبها من علامات، أو انقباضات وجه، من هنا يمكن لعمرو لو راقبه جيدًا تتبع اختلاجات وجهه، ارتعاشات عينيه وحركات يديه، ربما توصلوا إلى شيء، لكن لا بد من الحذر، بحيث يجلس عمرو في مكان لا يمكن لسعيد أن يلحظه، تساءل عمرو: «كيف يمكن هذا والمقهى ضيق على صاحبه، هنا فرد مقدم البصاصين بين يديه ورقًا عريضًا، به رسم للمقهى وما احتوى عليه من أوان، ومقاعد منحوتة في الجدار، أشار إلى فجوة في الحائط قريبة من نصبة الفحم والحلبة والسحلب، «هنا ستجلس» وسعيد لا يدخل إنما يبقى في الخارج، تستطيع رصد حركاته بدون أن

يراك، لكن يجب ألا يأتي جلوسك هنا مرة واحدة من اليوم اذهب إلى حمزة بن العيد الصغير، عامله بمودة، أجزل له العطاء، كوب الحلبة عنده ثمنه نصف درهم، أعطه درهمًا كاملًا، هل تحب الحلبة؟ ياه.. نسيت عشقك للقرفة بالحليب، الثمن واحد، عمومًا ستأخذ مصاريفك كاملة أول كل أسبوع، من اليوم ستذهب إلى الدكان لمدة خمسة عشر يومًا، بعد صلاة المغرب، في أي وقت بعد العشاء، يمكنك أن تجلس في أي مكان تشاء، سعيد لا يأتي في هذه الأوقات، في اليوم السادس عشر اذهب مبكرًا إلى الدكان، اطلب إلى حمزة بن العيد الصغير أن يبقيك جالسًا في هذه الفجوة، هنا.. ابق ولا تتحرك، أظهر الحزن، وعدم الرغبة في الكلام، سيجيء سعيد.. سيجلس هنا، هل ترى؟ ومن مكانك ستراه تمامًا، لن يتمكن من رؤيتك.. هل فهمتني؟ أبدى عمرو تعجبًا لدقة التفاصيل. سخط الدكان ومسخ ليبقى بهذا الحجم فوق الورق، قال المقدم: «توكل على بركة الله.. اسمع.. هل تحتاج نقودًا؟» هز عمرو رأسه «خيرك يغرقني» بقيت يده معلقة بين يدي المقدم، «ما أخبار الوالدة؟» كأن فصًّا مر الطعم ذاب في ريقه، لا يعرف لها خبرًا، عندما رجع شيخ زاوية العميان، أسرع إليه، يعرف أنها لا بد سترسل إليه شيئًا من البلد، ربما أرغفة بتاو، قدر مليء بالمش والجبنة القديمة تصل به الزمن الذي قطع المسافة بينهما، عمرو لن ينسى أبدًا صوت الرجل قال: «لم أعثر لها على أثر، قالوا في البلدة إنها لم تمت، منذ مدة بدأت تتحدث عن مجيء هاتف في المنام أنذرها بقلة ما تبقى من عمرها، لا بد من رؤية عمرو ولدها، وحتى لا تشغله عن طلب العلم قالت لصاحبتها سكينة الدودة التي تصنع أواني الفخار، الدودة هي التي تلقت عمرو عند ولادته فوق كوم برسيم أخضر قطعت حبل خلاصه: «يا دودة أنا سأسافر إلى مصر لأرى كبدي» قالت الدودة: «مصر بعيدة وأنت ما رحت إليها أبدًا» لكنها أصرت، قالت لكل رجل في البلدة والنساء، حتى الأطفال، توقفهم في الطرقات وتحكي لهم عن ولدها عمرو، ضرورة رحيلها إليه وتتمنى لهم أن يكبروا ويصبحوا مثله، أعطتها الدودة زوادة أكل، في يوم صحت فلم تجد أم عمرو، داروا عليها في غيطان البطاطا، وملقة البطيخ، لم يعثروا لها على أثر، ولم يذكرها أحد بعد وقت قليل لم يحتجها أحد يومًا، إنما هي احتاجت الناس دائمًا، تعجب شيخ زاوية العميان قال: «ظننت أنها جاءت إليك»، غامت عينا عمرو، رأى أمه فوق طريق مترب مهجور يصل بين قريتين، تقطعه ترع، حفر، غابات، نخيل، ينزل عليها الليل لا تلقى ما تدفئ به معدتها، تسأل القادمين والذاهبين عن الطريق إلى مصر، أحيانًا يوقن عمرو بقربها منه، ربما يلتقي بها فجأة، هل سيعرفها، ربما غيرتها المسافة، ربما ضعف بصرها. فلا يمكنها رؤيته، ثلاث سنوات لم يسمع لها حسًّا، لم يلحظ ارتعاش هدبيها، هو تغير، تجيء لحظات يلوم نفسه لومًا عظيمًا كيف انقطع عنها ثلاثة أعوام؟ كيف..؟ لا فائدة ترجى، جرح غرس نفسه في كليته، في قلبه لكن ماذا يحدث لو مرت في الطريق أمامه، أثناء مراقبته لسعيد، هل يقوم منتفضًا، كاشفًا نفسه، يعانقها، يدرك سعيد ما يحاك له، يعلم مقدم البصاصين بإفساد ما تم تدبيره، عمرو ليس بمفرده في المقهى، يعرف هذا تمامًا، هناك عين أخرى ترقبه، ربما حمزة ابن العيد الصغير نفسه، ربما غيره، شخص واحد ينفي عنه الشك هو سعيد الجهيني نفسه، ومن يدري، ربما يتعرض لاختبار رهيب تمهيدًا لتصعيده في سلم البصاصين، أبدى المقدم تأثرًا

واضحًا، قال هذه حالة أصعب من الموت نفسه. قال إنه سيوصي النواب في سائر البلاد بإبلاغه عنها. لا بد من كشف أمرها، في لقائه مع المقدم رأى تغييرًا ملحوظًا لا تخطئه عين في طريقة حديثه. معاملته، لهجته أرق، يبدي اهتمامًا زائدًا على الحد بشئونه الخاصة، لا يهدد كالعادة، هذا أفضل، عمرو أكثر قربًا منه بعد اللقاء، الآن، يجلس منكمشًا في الفجوة، تعلم من المقدم ألا يمل ولا يزهق من مرور الزمن، ربما دفعته الظروف إلى النظر من خلال مشربية يومًا كاملًا، يرقب وصول إنسان بعينه قد لا يجيء، عليه ألا يدع للضيق سبيلًا إلى روحه، بالفجوة رطوبة، وفي القلب حنين إلى عجوز لا يعرف مكانها، إلى أي أرض تمضي، بأي أرض تموت، لكن الحنين يجب أن يتوارى، الآن يعمل، يسعى من أجل عيشه، لم يقربه حمزة كما رجاه، جاء ثلاثة من مشايخ الكتاتيب التي تحفظ القرآن للصبية، أحدهم يرشف السحلب بصوت مسموع ضايق عمرو، ترحم أكبرهم سنًّا على أيام زمان عندما كان الصبية يسعون بأرواحهم إلى حفظ القرآن وتلاوته، لكن الزمن ما عاد الزمن، الصبى ابن العاشرة يجلس أمامك وكأنه قاعد على فرخ جمر، ما يصدق الحصة تخلص حتى يهج. قال أحدهم: «الشقاوة.. أعوذ بالله منها..»، قال ثالث: «هذه علامات الساعة» تساءل عمرو بينه وبين نفسه «ما الذي يقصده بعلامات الساعة؟» لينتبه، أنه هنا من أجل سعيد، لكن لا بد من الإصغاء إلى ما يجري، ربما طلع بحديث له قيمته، ربما وقع مصادفة على ما لن يقع عليه بالترتيب والتدبير. قال أكبرهم «أي والله.. لا أعجب لو أخبرني أحد عن بغلة أنجبت»، قال الثالث: أقصرهم قامة «نستعيذ بالله يا مولانا.. لو حملت بغلة وأنجبت لكان هذا علامة على انتهاء عمر الدنيا» قال غليظ الصوت: «وما أدراك أنها لا تنتهي» أصغى عمرو إلى حديث طريف لكن له مغزى.. بأي سيم يتخاطب العجائز؟؟، ليفتح أذنيه تمامًا، عندما قابل مقدم البصاصين أول مرة قال له: «البصاص المكين عبارة عن أذنين وعينين، يسمع ويرى، يحفظ وينقل، حتى في ساعات نومه»، عشنا وشفنا بدع لها العجب، يعني الآن لا يقدر إنسان على الحركة من بيته إلى الجامع إلا بقطعة الجلد هذه.. والله عجيب»، قال قصير القامة «لم نسمع بهذا من قبل» آه لو يعرف عمرو أي الكتاتيب يديرون؟؟ سيسأل حمزة عنهم آخر النهار أو غدًا حتى لا يثير ريبته، وحتى يثبت التزامه بقواعد البصاصة الصحيحة، لو صح أن حمزة عين ترقبه، انتبه عمرو إلى وصول رجلين من التجار، دخل أولهما، أشيب الشعر وهو يسأل؟ «يا ترى هل خلع السلطان عمامته الخفيفة، ولبس الكبيرة» قال الثاني: «لو تم هذا فمعناه شفاؤه من مرضه لكن البشائر لم تدق بهذا»، تساءل عمرو: من أي حي هما؟؟ في الناحية الأخرى أكبر الشيوخ «ومن علامات الساعة ظهور المسيح الدجال»، التاجر أشيب الشعر، «أنا متأكد أنه ارتدى العمامة الكبيرة وقابل الأمير طومانباي»، يقول ثاني المشايخ «والله أشعر أن المسيح الدجال يسعى بيننا» يدق قلب عمرو، هذا خطير، التاجر الصغير: لا أصدق أبدًا أن السلطان ارتدى العمامة الكبيرة، وإلا.. فأين البشائر، آه.. أين البشائر؟؟ الشيخ أشيب الشعر، «أي والله ينقصنا طلوع الشمس من المغرب» التاجر الصغير «عمومًا.. أنا لا أستبعد هذا.. ربما» دخل رجل رفيع أسمر حول رأسه عمامة صغيرة زرقاء نصراني من أهل الذمة، حمزة بن العيد الصغير حدث عمرو عنه، لا يتحدث كثيرًا، انتظار الكلام منه

كنزول المطر في بؤونة، كل يوم يجيء أربع مرات، مرة بعد طلوع الشمس بمجرد فتح الدكان، وفي الضحى، ثم العصر، وقبيل إغلاق الدكان، آه.. يضحك المشايخ، هل فاته شيء؟ أشيب الشعر يقول «سيمد الله في أجلي حتى أشمت في زمني» يضحكون، لا بد أن يتذكر الجملة جيدًا، التاجر الصغير «أشترينا الإردب بدينار ونصف اضطررنا إلى هذا..»، تغير موضوع حديثهما، النصراني في كل مرة يشرب كوبًا من اليانسون، بلا سكر، يدخن كرسيين من الدخان، لا يدخن تبغ الدكان، إنما يحمل معه كيسًا جلديًّا متشققًا مليئًا بالتبغ الأصفر الجيد، له رائحة لا مثيل لها لا يعرف حمزة من أين يحضره؟ يتناول مقدارًا معينًا لا ينقص ولا يزيد، يطلب من حمزة رص الكرسي، يتابعه بدقة، يبدأ التدخين، ينفث الدخان من أنفه كأنه يتألم أو يعاني وجعًا يحرك رأسه يمينًا وشمالًا، يشكو شكوى صامتة إلى الشيشة، يحدثها عن ظلم فادح حلّ به، قرب انتهاء الكرسي، ينظر إليه، يسوي الفحم، يضعه، حيط الحجر بيديه، يميل عليه، ينفخ بفمه، رجاء أخرس ألا تنتهي أنفاس الدخان، يقول الشيخ قصير القامة «أي والله.. أي والله»، يرد أشيب الشعر «لكنني لم أصدقه أبدًا.. أقسم الأيمان المغلظة لكنني لم أصدقه»، حمزة حكى ما يعرفه عنه، يسكن في وكالة الفراخ، قرب خان الخليلي، لا زوجة عنده ولا أولاد، مرة رآه حمزة يبكي، يبكي بدموع تنسال من عينيه سهلة لينة بلا مانع، بلا نشيج تساءل عمرو، من أين يأتي بالتبغ؟؟ ما الذي يجعله مهمومًا؟؟ كأنه يتحدث إلى رجال اختفوا عن العيون كلها إلا عينيه هو، آه.. سعيد يجلس أمام الدكان، حضور مفاجيء لم ينتبه إليه لن يذكر رؤيته المفاجئة: هذا أمر يحسب عليه، يقعد فوق الدكة، أطرق، عمرو يحاول تهدئة دقات قلبه، حقًّا لا يزال الشوط بعيدًا حتى يصل إلى حد الكمال، أن يرى مهما يرى، لكن مشاعره لا تتغير، لا تتبدل، هذه درجة راقية لا يصل إليها إلا كل بصاص مكين، آه لو هناك حيلة ينفذ بها الإنسان إلى ما يدور في عقل الآخر، لعرف البصاصون دلالة رعشة العين، أي الخواطر دفعت الأنف إلى اختلاجة سريعة، تراجع عمرو حتى ألصق ظهره بجدران الدكان.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

نـــداء

يا أهالي مصر.

نأمر بالمعروف، وننهى عن المنكر.

انكشف المستور.

منذ ستة أشهر.

تسلم الزيني بركات بن موسى.

ناظر الحسبة الشريفة.

ووالي القاهرة.

تسلم الأمير ماماي الصغير.

وبعد أن قرره، احتاط على موجوده.
وظهر لديه ما قيمته،
تسعون ألف دينار.
وهذا يزيد عما طلبه السلطان
بعشرين ألف دينار.
وقد سلمت الأموال، جميعها.
إلى بيت المال،
يا أهالي مصر.
أمر الزيني بركات بن موسى.
ناظر الحسبة الشريفة
ووالي القاهرة.
بفرض ضريبة على بيوت الخطأ.
ومنع تردد من هم دون العشرين عليها.
حفاظًا على الخلق، والشريعة.
يا أهالي مصر.
بعد يومين، يسافر الزيني.
إلى جهات دمياط، والدقهلية،
لكشف أمورها، ودفع العربان عنها.
وإقرار النظام بها.
وسوف يقوم بأعماله في غيبته.
عبدالعظيم الصيرفي
صراف الحسبة.
ونائبها لشئون الأموال.
وجميع الأمور ستبقى على حالها.
وسيعاقب المخالف.
يا أهالي مصر.
تعهد الزيني بركات بن موسى.

ناظر الحسبة الشريفة.

ووالي القاهرة.

إلى مولانا السلطان.

باستلام الأمير بكتمر الساقي أمير عشرة.

واستخراج أموال المسلمين منه.

ويقدرها الزيني بخمسين ألف دينار خالصة.

غير ما يظهر.

من المخبأ..

عـــاجـــل

إلـــى مـقـــدم بـصـــاصـــي القـاهـــرة

في يوم الإثنين، في الصباح، حيث خرج الخلق يحتفلون بشم النسيم، يمارسون اللهو والفرجة رأيت سعيد الجهيني، وفي الحال تواريت عنه، لم يكن بمفرده، إنما تصحبه امرأتان، إحداهما كبيرة السن، اقتفيت خطواتهما، ومن باب الخلق إلى حدائق بولاق، وهناك لحق بهما شيخ معمم اسمه ريحان البيروني، أعلم بتردد سعيد على بيته، وبدا سعيد - وأنا أقطع الشك باليقين، والتردد بالثبات - مولها، مدلها، غارقًا حتى أذنيه في عشق ابنة الشيخ البيروني، وعرفت من أصحابي المجاورين أنه كثيرًا ما يلفظ «سماح» أثناء نومه وسماح هي ابنة الشيخ وقد أمضيا اليوم كله في حدائق بولاق، انفرد سعيد بها مرتين، حدثها وحدثته، وسوف أتابع ما يستجد..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

نـــداء

يا أهالي مصر

يعلن عبدالعظيم الصيرفي

صرافة الحسبة

إن كل شيء على حاله

والأسعار كما قرر الزيني

وأي تاجر يتلاعب

دمه مباح

حتى يرجع الزيني من غيبته

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

نـــداء

يا أهالي القاهرة

أمر عبدالعظيم الصيرفي

بشنق بائع بيض على باب دكانه

لأنه زاد سعر البيض

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

نـــداء

يا أهالي القاهرة

أمر عبدالعظيم الصيرفي

بقطع ألسنة ثلاثة شبان

ضبطوا يشيعون البلبلة

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

نـــداء

يا أهالي القاهرة

أمر عبدالعظيم الصيرفي

بتسليم ثلاثة مغاربة

إلى الشهاب الأعظم زكريا

النائب الأول للحسبة، ولوالي القاهرة

بعد ثبوت اتصالهم بابن عثمان

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

نـــداء

يا أهالي القاهرة

يأمر عبدالعظيم الصيرفي

بأن يفتح كل إنسان أذنيه

ويدل على من شك في أمره

بوجود صلة له مع ابن عثمان

وله مكافأة

يا أهالي القاهرة

غدًا..

يتوجه الشهاب الأعظم زكريا

إلى جامع شيخون

ليؤم الصلاة

ويخطب في المؤمنين

والجامع مفتوح أمام الراغبين

بسم الله الرحمن الرحيم

«اللهم اجعل هذا البلد آمنا»

«ديوان سر الشهاب زكريا بن راضي»

نبذة مرسلة بالحمام الزاجل

إلى الزيني بركات بن موسى متولي حسبة القاهرة والديار المصرية، ووالي القاهرة، إلى دمياط.

1 - من هو الشيخ ريحان البيروني؟؟

هو الشيخ ريحان بن زيد محمد الأسيوطي بن عامر الفاضل أحمد بن إبراهيم، أما البيروني فلقب لصق بالشيخ، منذ أن درس علوم المنطق على يدي شيخ ضرير أتى إلى الجامع العتيق في أواخر عام 805هـ جاء من بلاد الشاه إسماعيل الصوفي، اسمه الشيخ البيروني ولم يكن شيعيًّا، أو منتميًا إلى أي طائفة من طوائف الرافضة، إنما هو سني متعمق، عاش بمصر ولم يتزوج حتى مات عام 883هـ. دفن بالقرافة الشرقية مع العلماء الصالحين.

عمل الشيخ ريحان كاتبًا صغيرًا بديوان سر قاضي القضاة، وفي هذه المدة قام بصياغة الحجج والفتاوى التي تصدر عن قاضي القضاة، وأتقن عمله، كما أتاح له هذا فرصة مشاهدة الأمراء وكبار رجال السلطنة عن قرب، ومن قبل لم يرهم إلا في المواكب، وعندما كان يلمحهم يتساءل ويروح عقله إلى بعيد، هل يضحك هؤلاء الأكابر كبقية الناس؟ هل يتبادلون النكات، والقفشات؟ هل يداعب الواحد منهم صاحبه، يناديه بألفاظ الألفة والمودة؟ تساءل كثيرًا عن طريقة أكلهم وكيف يقدم لهم الطعام، يغمض عينيه، يرى نفسه مقربًا إلى أمير كبير، وقريب من مجلس السلطان نفسه، لكنه لا يدري ما يقوله لهم، بل من الثابت فعلًا، وهذا دلت عليه شواهد وقرائن، أنه تساءل إلى أحد أصحابه - في الفترة ما بين عامي 863هـ و875 هـ - عما إذا كان شخص مثل الأمير تمربغا أتابك العساكر وقتئذ، يبول ويفعل كبقية الناس؟؟ بل قال لصاحبه، كيف يتعرى السلطان ويلفح الفراغ مؤخرته الضخمة عندما يعلو امرأة من حريمه، يسيل ريقه، يغمض عينيه وترتعش أطراف حنكه شهوة ورغبة، واعتبر البيروني مثل هذه الأسئلة أمورًا كبيرة، تستحق مؤلفًا ضخمًا، تمنى لو نفذ إلى الأكابر العظام، صاحبهم بادلهم الرأي في الزمان، ما يأملون فيه، ما يحلمون، رأى نفسه يجلس إلى أتابك العسكر، يدخنان معًا بعد عشاء

هنيء، يميل عليه الأتابك، يسر إليه بسر لا يعلمه إلا هو، أو الأمير الجوكندار المحمدي، يقص عليه حكاية خاصة جدًّا تتعلق بالسلطان، ثم يطلب منه ألا يفضي بها إلى أحد من الناس، لأن السلطان لو عرف بتسربها لأطاح برقبة من حكاها ومن سمعها، لا يتخيل مدى سروره وفرحته وعظمة بهجته عندما تفضى إليه أسرار لم يسمعها غيره، أن يمشي في شارع الصليبية، سوق الليمون تحت باب الفتوح، حوله الخلق، باعة ومشترون، في عقولهم مشاغل الدنيا الصغيرة والتافهة، أما دماغه هو فيعج بالأسرار، وعندما يجلس بأحد الدكاكين، يشرب الحلبة أو السحلب المخلوط باللبن، يرى نفسه وقد قضى الليل كله في قصر أمير كبير، لم ينم، لم يأخذ راحته من النوم، يضطر مع هذا إلى الذهاب إلى ديوان المكاتبات، يصوغ الفتاوى والحجج، هنا، يشعر بعينيه مجهدتين فعلًا، بل يتثاءب عدة مرات ينظر إلى المحيطين به، يلحظون كسله وتراخيه، لو سألوه سيوضح لهم فورًا طوال الليل يجالس الأمراء، ينادم الكبار العظام، فيعذرونه ينتهزون لحظات راحته فيسعون إليه، يطلبون منه رفع أمره إلى ذوي الشأن الذين يعرفهم يرجونه في الوساطة وقضاء شئونهم فهو طيب القلب لا يرد محتاجًا عن بابه.

تتكاثر عنده الفتاوى التي يعمل في صياغتها، يضيق بطلبات عبدالبر أن يسرع، يرى نفسه داخلًا على الشيخ عبدالبر قاضي القضاة، يقف أمامه، عبدالبر تأخذه الدهشة، ما الذي غير حال مستخدمه، نظراته جامدة، عمامته كبيرة، عطر وطيب يفوحان منه، بهدوء يميل عليه الشيخ ريحان يطلب منه ببساطة ألا يتعجله، حسه منخفض، لا بل مرتفع، أبدًا الأفضل أن يكون منخفضًا واثقًا، ألفاظه بليغة، سيقول لعبدالبر إنه يطيل السهر مع الأمراء، إنه من خاصة الأمير بكتمر، ونديم منطاش، ومستودع سر الأمير طومانباي نفسه، أما الأمير تمربغا فلا يتوكأ إلا على كتفه، سيفزع عبدالبر، تغشاه رهبة، يخشى على نفسه، يأمر الشيخ ريحان بأن يعمل على مهله ألا يتعجل أبدًا، أن يحل ويربط على هواه، ليس بعيدًا أن يأمر السلطان بخلع القاضي عبدالبر، فيسعى عبدالبر إلى الشيخ ريحان ليرجوه أن يشفع له عند السلطان حتى يرده قاضيًا.

«حدث حوالي عام 876هـ، وعمر الشيخ ريحان حوالي خمسٍ وعشرين سنة، أن عرف الطريق مع أحد أصحابه إلى بيت «سنية ابنة الخبيزة» قرب الفسطاط، هناك قدمت له صبية فلاحة التقطتها من الطريق وعلمتها عمل الفاحشة، والثابت فعلًا أنها المرة الأولى التي ينام فيها الشيخ ريحان مع امرأة في حياته، في أول مقابلة، قال إنه يشغل وظيفة خطيرة، وظيفة وثيقة الصلة بالأمير اقبغا، سألته الصبية من هو اقبغا؟ فقال «أقرب الناس إلى السلطان» فضربت البنت صدرها الجامد الناهض وشهقت «يا خراب أسود»، ضم شفتيه حذرها من البوح بهذا السر إلى صاحبة البيت، رقبتها ستطير عندئذ، وظيفته السرية، تمنعه من الظهور علانية مع الحريم، أو السعي إليهن، وامرأة أي أمير أو كبير في متناول يده، بل يوقن أن الكثيرات منهن يرغبنه فعلًا، لكنه لا يستطيع، وظيفته السرية تحوشه عن هذا، وقبل الوظيفة هناك ضميره ذاته، أثناء حديثه توقف مرات، هز أصبع يده اليمنى محذرًا إياها من البوح

بما يقول إلى نفسها حتى، خافت الصبية، صدقت ما قاله، خاصة أنه أعطاها بقشيشًا محترمًا يندر تناوله من أي واحد يخلو بها.»

«في كل يومي اثنين وخميس يمضي الشيخ ريحان إلى الفسطاط، ومرة وجد الصبية متغيبة، رفض مضاجعة أخرى برغم تحايل المعلمة سنية ابنة الخبيزة، عاد ليجد الصبية متزينة في انتظاره عندما تجرد من ثيابه، تمدد بجوارها خبط جبهته بيده، قال.. ياه.. خافت الصبية، مالك؟ أجاب: نسيت أمرًا مهولًا كلفني به الأمير منطاش يسكت لحظات، مجرد سماعها هذه الأسماء، طريقته البسيطة في النطق بها، تخشى وتخاف، يتأسف قائلًا: والله أخطأت في حقه، منطاش كريم معي جدًّا، جدًّا تصوري، ويراعي حقي لكنني لا أعيره التفاتًا، لا أهتم به، لكنه يجب أن يعذرني، مشاغلي لا تحصى، أي والله لا تحصى.. وينفخ بفمه، يضرب ركبته بقبضته، الصبية لا تعرف ما تقوله، وعندما تأخذها الحيرة تزحف إليه تلتصق به تقول «لا عليك يا حبيبي ما تغتم يا حبيبي» مرة ثانية يتمدد جوارها راضيًا يضحك «يا سلام على طومانباي.. أما ولد»، تتسع عيناها، يحكي عن الأمير الدوادار كأقرب الناس إليه، يذكر اسمه بلا تفخيم أو تعظيم، تسأله «ما له يا حبيبي؟؟» فيقول «سهر معي طوال الليل.. يا سلام.. أما حكايات غريبة غريبة جدًّا» يصمت لحظات، يقول: «لكنني لا أعرف كيف جرى هذا، كيف؟»، وفي مرة تلقى حلمة ثديها الأيسر، يمر على حوافه بشفتيه، عادته المفضلة، قالت الصبية وجسدها يختلج: سنية ابنة الخبيزة تعاني ضيقًا وعسرًا من متولي الحسبة - كان في هذا الوقت علي ابن أبي الجود - قرر عليها زيادة في الضريبة، وتمنت لو أن الشيخ ريحان تحدث إلى أحد أصحابه المقربين الأكابر العظام، هنا انتفض الشيخ ريحان عاريًا، وعرق الغضب يطق من جبينه، «أنت مجنونة.. ضاعت رقبتنا الآن، هل قلت شيئًا يا مجنونة مما أقوله لك لابنة الخبيزة، ارتعش جلدها وقففت، أقسمت بحياته عندها، بآل البيت، برحمة أبيها الذي لم تره أبدًا إنما الصحيح أنها فكرت فيه، هي لا تعرف من الأكابر غيره، وبكت بين يديه، حتى هدأت ثورته، وخفت حدته، فقال أنا لا أمانع ولو كان الأمر معقولًا لا يمسني، لكنني ماذا أقول لأي أمير من أصحابي.. هل أقول له إنني أريد إنصافًا لابنة الخبيزة.. سيسألون، وما الذي عرفك بابنة الخبيزة؟؟ آه.. عندما يتعلق الأمر بالعظام الأكابر أصحابي لا بد أن توزن الأمور، ألا تؤخذ كما هي..» «وبقي الشيخ ريحان مبلبل الخاطر، عندما يقابل ابنة الخبيزة ينظر إليها، يحاول تلمس أي دلالة على معرفتها بما يقوله، يخشى مفاجأته بسؤال ترجوه فيه التوسط لدى الأكابر، ويفلت لسانها بحديث أمام المترددين عليها، يفهم منه شيء عن أحاديثه المستمرة إلى الصبية، عرف منها شخصيات بعض المترددين هنا، موظفين في دواوين عند المحتسب، مشايخ بعض الأمراء الصغار يجيئون خفية.

حدث في هذه الفترة أن استدعاه القاضي عبدالبر، وعندما مضى إليه دارت في رأسه الدوائر ربما وصلت أخبار أحاديثه إلى عبدالبر، سيجازيه القاضي مرتين الأولى لذهابه إلى بيت من بيوت الخطأ، الثانية لكثرة تخريفه، راح يجهز ما سيقوله، سيرجو القاضي العفو عنه بسبب التردد على البيت فالألسن لا ترحم، لكن

ماذا يقول عن الأحاديث، واختلاق الحكايات حول الأمراء، قابله عبدالبر مرحبًا، ابتسم في وجهه، طيب خاطره، وهذا ما لا يحدث قط، فعبدالبر عبوس دائمًا، فظ اللسان، غليظ القلب، أخبره بمجيء الأمير سلامش الجمدار المختص بإلباس السلطان، إذ يقف السلطان ويوليه ظهره، يفرد ذراعيه فيقوم سلامش بإدخالها في كم الرداء، ثم يسويه، وهذا منصب لا يصل إليه إلا صاحب ثقة عظيمة توفر الاطمئنان للسلطان، بحيث يدير ظهره إليه، ويسلمه نفسه، قال القاضي عبدالبر، الأمير سلامش طلب منه شخصًا موثوقًا به، ليحرر مكاتباته وبحث القاضي عبدالبر كثيرًا فلم يجد أخلص من الشيخ ريحان، لكن حتى يتم الأمر، عليه أن يبحث عن عروس صالحة يتزوجها فالأمير سلامش لا يقبل أعْزَبَ في قصره، وقال القاضي عبدالبر «ثم إنك لست صغيرًا يا شيخ ريحان..»

قام الشيخ ريحان وقبل القاضي عبدالبر، مشى في الطرقات يرقص فرحًا وطربًا، أخيرًا سيرى الأمراء والضيوف، يحرر المكاتبات، يطلع على أسرار الدولة، تمنى لو قال هذا للصبية لكنها ستتعجب، ألا يخبرها دائمًا بقربه والتصاقه بالأمراء والأكابر.

مضى في أفخر ثيابه وقتئذ إلى قصر الأمير سلامش بالغ كثيرًا في إظهار علامات الأدب واللياقة ليوحي أنه خدم طوال عمره في بيوت أكابر، انتظر مقابلة الأمير، لم يلتق به، قال لنفسه ربما انشغل الأمير بشيء عنه، وعندما سأله نائب الأمير عن زواجه أخبره «تزوجت منذ أسبوعين»، وفعلًا كان قد مضى إلى أحد أقاربه واسمه المعلم محمود بن سلامة، أحد تجار العدس في أثر النبي يمتلك ثلاثة مراكب سارحة في النيل تنقل له المحصول من الصعيد، غير القلل والأزيار (مات عام 909هـ) المهم أثنى المعلم محمود على الشيخ ريحان، حافظ كتاب الله وحارس البخاري، وبعد أسبوع دخل على ابنة المعلم في داره بالفسطاط حتى يبحث له عن بيت يستقر به، وصار المعلم يقول: «زوج ابنتي رئيس عند الأمير الجمدار.»

في قصر الأمير سلامش اتخذ الشيخ ريحان حجرة صغيرة في مبنى منعزل عن بناء القصر الأصلي حجرة مظلمة تضاء بقنديل ليلًا ونهارًا، ثاني وثالث يوم لم يقف الشيخ بين يدي الأمير، كذا الأسبوع الأول والثاني والشهر الأول والثابت فعلًا عدم مثوله بين يدي الأمير قط.

عندما يلتقي به المعلم محمود بن سلامة يسأله عن صحة الأمير الجمدار وأحواله، يهز يده، يقول: «والله.. صحته بالأمس كانت على غير العادة.. صحا من نومه فوجد عينه ترف.. وهذا عنده فأل سيئ فقضى بقية يومه مغتمًا..»، يبدي المعلم جزعًا، يزعق بصوته ليسمعه زملاؤه التجار يتحدث عن أمير كبير، يتساءل: «ألم يقصده الطبيب؟» يقول الشيخ ريحان «وجاءه وفصد دمه..» هنا يطلب المعلم محمود - بصوت عال - من زوج ابنته أن يبلغ سلامه إلى الأمير أن يخبره بدعواته الصالحات من أجل شفائه، فيهز الشيخ ريحان رأسه ويجيبه - بصوت عالٍ أيضًا - فهو يعرف قصد المعلم «سأقول له.. والله حمَّلني سلامًا خاصًّا إليك.. أي والله».

كثيرًا ما يجيء إلى المعلم، يزعق من بعيد «الأمير سلامش يهديك سلام الإسلام..»، يشرق وجه المعلم، يبرم شاربه، يتخلل لحيته بأصابعه «والله عندما ترى الأمير أبلغه سلامي»

بدأ هذا القول يؤلم الشيخ ريحان ويورثه حسرة، لم ير سلامش بعينيه، حتى نائبه لم يلتق به إلا مرة واحدة، عندما تسلم وظيفته، كل المكاتبات تجيئه يوميًّا مع أحد الطواشية، والثابت فعلًا أنه لم ير الأمير قط حتى عندما أنجب ابنته الأولى «سماح» (أنجبها عام 902هـ بعد ثلاث سنوات من زواجه. لم ينجب بعدها، وهذا أمر يتكرر وقوعه بين قلة من الرجال) بل أرسل إليه الأمير سلامش مع نائبه دنانير وكسوة (بالضبط عشرة دنانير أشرفية وقماش أطلس، وقميص زركش لطفلة صغيرة).

بعد مجيء سماح بعامين (904هـ) غضب مولانا على الأمير سلامش - وهذه واقعة معروفة - عندما لم يحكم لف الشاش حول العمامة السلطانية الكبيرة مما أدى إلى فكه لحظة جلوس مولانا السلطان إلى قصاد الحبشة مما أوقعه في حيرة، وتسبب في حصول كسفة للسلطان مما جعله يستدعي سلامش وحقق معه، وبطحه أرضًا وضربه حتى كاد يهلك لظنه أن واقعة عدم إحكام لف الشاش أمر مدبر وأمر بإلقائه في المقشرة، ولا يزال سلامش محبوسًا حتى الآن بعد مضي ما يقرب من عشرين عامًا على الحادثة.

يشاء حظ الشيخ ريحان، أن الأمير سلامش أرسل - قبل حدوث واقعته - إلى الأمير طغلق ليحرر مكاتيب صادرة إلى بلاد اليمن، وأثناء تواجد الشيخ ريحان عنده، وقعت حادثة الشاش، هنا عرض عليه طغلق البقاء عنده، وارتضى الشيخ ريحان بالحال، وتزايد سروره، لاتصاله مباشرة بطغلق، وخروجه معه أكثر من مرة وأفضى إلى المعلم محمود وبعض خاصته أن بعض أصحابه من الأمراء والكبار أسروا إليه بما سيحدث مع سلامش ونصحوه بالابتعاد عنه، وتوسطوا له عند طغلق الذي لم يكن غريبًا عليه، فأخذه عنده، وعند ركوبه مع طغلق يحاول الاقتراب منه، ويجول بنظراته في الطرقات متمنيًا أن يراه أحد ممن يعرفهم، وهو ممتطٍ بغلة بسرج عالٍ في موكب طغلق، وهذه مرتبة قل أن يدنو منها إنسان.

منذ سنوات جاء من بلدة جهينة، شاب صعيدي يمت إلى الشيخ ريحان بقرابة بعيدة، أقام في بيته فترة من الزمان، حتى التحق برواق الصعايدة، وللأمانة فلا نقطع بخلوه إلى سماح ابنة الشيخ ريحان خاصة أنها وقت وصوله لم تتجاوز سن العاشرة.

طبقًا لما هو تحت بصرنا وسمعنا حتى الآن لا يمكننا تحديد التاريخ الذي بدأت محبتها تدب في قلبه، ولكن بعد تحليل طريقة مشيته وأحاديثه معها يوم شم النسيم في حدائق بولاق ثبت عشقه لها والأيام لا تزيده إلا وجدًا وصبابة مع أنه لا يراها إلا نادرًا جدًّا (وهذا نثق به).

الثابت أيضًا جهل الشيخ بما يكنه سعيد لابنته، وجارٍ الآن لمّ تفاصيل أدق تصل بنا إلى لب الحقيقة وجوهرها الخفي.

(ديوان سر كبير البصاصين ونائب المحتسب)

ونائب والي القاهرة

«ختم»

(زكريا بن راضي)

نـــداء

يا أهالي القاهرة

يعلن عبدالعظيم الصيرفي

عن قرب وصول

الزيني بركات بن موسى

متولي حسبة الديار المصرية

ووالي القاهرة

بعد عودته من بلاد الصعيد

فعلى أصحاب الدكاكين

والمغنين

وأصحاب الربابة، والرقاصين

الخروج لمقابلته

عند دخوله من الجيزة

ظهر يوم الثلاثاء بعد غد

ومن تخلف، وقع عليه عقاب شديد

كـوم الجَـــارح:

مسافات لا أول لها ولا آخر في عيني الساعي، والمسافر على قدميه، زاده عشق الذات العليا، وجد يشده إلى أقاصي الأرض يعبرها متأملًا العبر، يرثي المبتدأ والخبر، ما أوجع أحزان القلب في بيوت خراب، في بلاد عامرة نسي أهلها الأول والآخر، ما أعذب وقفة الملاح عند رأس قارب مفرود القلوع، الكون بحر، كله بحر، المركب يميل ليعتدل، يعتدل ليميل، يزعق الملاح زعقة نابعة من فص الحنجرة، أعمق الأصوات، خلاصة الآمال، ونهاية الآلام، صرخة ملاح في وجه خلاء لا بر له، ولا يابسة تبدو، لا يذكر الشيخ أين غالب الدوار، أحاط فمه بيديه، ومن شرايين القلب، من حدقتي العين، من خلاصة سر الكبد، من لوعة المشتاق إلى آخر الآفاق من سنين العمر، من بئر القلب الدفين، من عذابات وجد قديم، من بقايا عشق يتيم، صاح زعقة واحدة، ألغت الحشا، خففت حمل البدن، ولاح سر الباطن،

وكادت الحقيقة الأولية أن تفصح عن نفسها، وسوست النجوم، وألقت السماء دمعًا ضنينًا.

يا واحد.. يا أحد.. أين أنت.. نجني..

نجني..

لا يذكر اسم البحر، عند طوافه بالدنيا لا تعنيه معرفة أسماء البلاد، الدار كبيرة، لا عرض بادٍ لها ولا طول، وتعليل النفس بالوصول إثم عظيم، لا هذا العام، ولا العام الذي يليه يحمل البشرى، في زعقته طرح السؤال، عبر البحار السبعة، الأراضي السبع، تجاوز واق الواق، جزائر النساء، ونفذ عبر بطن الحوت، يرى بعيني وجده سدرة المنتهي، غاية الأمل، صوته الضعيف المحزون سمع هناك، لو حوله بحرٍ الآن، آه لو يقف فوق الصاري الكبير يزعق ملتاعًا، تتجسد صرخته في الهواء حبلًا طويلًا من هيام ووجد لكنها الآن همسة، حيرة مقطرة استغاثة نجاة يهمس بها طائر ضعيف الجناحين. هاجر وحيدًا فارتمى بلا رفقة، لحظات كثيرة رآها في حياته ظن الخلاص وشيكًا وما يفصله عن الحقيقة الأولية، خطوات قصار، لكن الأحداث تميل فتعكر صفو الرؤية، تخدش حياء النفس، عبثًا تلوح الأنوار الإلهية في زمان كهذا، محال أن يرق الجسد حتى يخف، يشف، الآن يرى أيامه البعيدة، عندما رأى العالم مال بخده على الحجر الأسود، داعب النمور الوحشية، مص الزلط متلمسًا رشفة رطوبة تنزع حراشيف العطش عن خلقه حديثه إلى برابرة غزاة يحلون لحم الإنسان، آه لو يودع الثبات إلى الحركة، يترك الركود إلى ديمومة لا تنتهي، طوال عمره لم تلجئه الأحداث إلى الخلوة الطويلة وها هي ذي سنوات قليلة في موطنه تدفعه إلى حفر سرداب، حفره بأصابعه، فيه يغمض عينيه عن رؤية السجن، يسد أذنيه عن أصوات البشر، في أول العمر يكشف الإنسان عوج الدنيا فيحاول تقويمها، لكن في آخره، عندما يبدو كل شيء على حاله، ولا أمل في تحول، في انقلاب، حتى أولاده لا يدركهم، عندما يربط ظهر سعيد الباكي، يراه واحدًا منهم، لم ير أحدهم شابًّا، في أول خطى الحق تزوج في خوارزم، لم يكمل العام، وإنما رحل في وجه الجبل مخلفًا وراءه أثرًا، لا يدري، هل جاء الدنيا أولًا؟ في مدينة بشرق الصين، في قرية فوق جبل شاهق العلو في الهند، في جزيرة صغيرة في المحيط الشرقي الكبير، كل ساكنيه أربعون نفسًا ذكرًا وأنثى لم يضم واحدًا من بنيه إلى صدره لا يعرف تعدادهم لكن قلبه خفق بحبهم، بأي أرض مر عنده ثقة، إنه عالم بأحوالهم يعرفون بأي أرض هو، فالعالم كله واحد ربما رأى أحدهم في أسواق فارس المزدحمة، في ميناء البصرة، في ربوع كازاخستان لا يعرفهم ويعرفهم، لولا أن الدمع جفَّ وهجر المآقي من زمن لشارك سعيد البكاء، أول مرة يراه باكيًا، طفل آذوه، أمور السوء توائم متلاصقة، تأتي مع بعضها البصاصون لا يخفون أنفسهم الآن عند اقتفاء أثره، منهم من يصيح بصوت عالٍ بعد الاقتراب منه «أمثل هذا يتزوج بقمر؟» يسمع هاتفًا ينتهك اسمها «سماح» يلتفت برأسه مفزوعًا، الكون كله يصغي، أربع مرات أرسل مقدم البصاصين يطلبه، أوامره لا ترد، أما زكريا بن راضي، الآن أمام المصلين بجامع شيخون، يقرأ الفاتحة بصوت عال، الناس تقبل يده تبركًا، تيمنًا، ومن القلعة، رأس الدولة، نخاعها الأمين، تسرح البطائق إلى بلاد ابن عثمان،

عرف ما يجري في السر، ما من همسة أو كلمة تقال، إلا ويرسلها خاير بك وجان بردى الغزالي ويونس القاضي إلى ابن عثمان، وليلة زواج سماح، طاف سعيد، طير لم يكتمل ذبحه، كل هؤلاء الأكابر جاءوا إلى حفل العرس، العريس ابن أمير كبير ترك الخدمة ومات منذ عامين، شاب وأمامه مستقبل، أحاطوا الشيخ ريحان، الدنيا لا تسعه من الفرحة، يتمازحون معه، يتباسطون، والزيني بركات يمد مدة حافلة لعشاء الفرح، أما برهان الدين بن سيد الناس، فهو محتكر الفول الوحيد في مصر، إذا سأل إنسان قيل له، وهل تأثر سعر الفول، لم يزد طفافة من درهم، ما من سؤال صعب إلا ورده المقنع جاهز عند الزيني، وتبدو الأمور معقولة، وما الإنسان إلا خلاصة زمانه، لكن يحدث أن تتركز خلاصة الزمان في شخص بعينه، يجمع الحسنات والسيئات، الشيخ يرى خلاصة العكارة، عندما بث أشجانه للشيخ الزاهد العابد بهاء الحق علوان (لم يتوقف بعد، وما زال طوافًا عظيمًا، في كل ليلة يذكر اسم الله كل ليلة في موضع مختلف بين آخرين، السكون عند موته)، قال الشيخ بهاء الحق كلما ظن نفسه تخفف من الأحمال والأثقال، يرى الوهم، كثيرًا ما فكر في اعتزال الكون، قضاء ما تبقى من عمره في السرداب، لكنه يلوم روحه، كيف يحوم الأذى في أرض هي أول ما لامست رأسه. اختارها راضيًا لقضاء وقت ما قبل الخلاص الأبدي، أن يرى البلد آمنًا، محال، ما يراه بسيطًا كالحروف، مشروعًا كالأنفاس، في حقيقته محال، هز الشيخ بهاء الحق رأسه.

«كلنا نحترق.. أنت في ثباتك، وأنا في طوافي، لكن إن مالت الروح عما رماه بها الزمان فقل علينا السلام..».

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

# السرادق الرابع

زكريـا بـن رَاضـــي:

سرح البريد بالبطائق والرسائل، إلى بلاد المغرب، وصاحب فاس، وملك الحبشة، وأمير البندقية، والهند، والصين، فيما عدا دولة ابن عثمان، الأمور الآن لا تسمح لكبير البصاصين هناك بالمجيء إلى القاهرة ليحضر اجتماعًا كبيرًا يضم كافة كبار البصاصين العتاة في هذه البلاد، إذ يجتمع شملهم هنا، يتدارسون الأمور والواجبات، يتبادلون ما جرى لكل منهم، ستتحدث كتب التاريخ عن هذا الاجتماع، سيذكر في سطر، ما يدور به، سيظل خفيًّا مستورًا، لكن آثاره ستعم العالمين. لا يعلم أخبار الاجتماع في مصر إلا اثنان، زكريا بن راضي، والزيني بركات بن موسى، صاحب الفكرة، لأول مرة يحدث أمر كهذا، لم يخف زكريا فرحته، الزيني ألمح إلى أنه سيتعرف عند جلوسه إليهم، طريق كل منهم، وأسلوبه، طبعًا لن يقول أي واحد منهم عما يتبعه ويطبقه، على زكريا استكشاف خباياهم بما يروق له من طرق، حتى إذا ما دبَّ العداء بين الديار المصرية وصاحب أي مملكة منهم، يجد زكريا نفسه عليمًا بأدق أسرار البلاد التي يعمل فيها، مطلعًا على طريقة بصاصيها، مما يتيح له النفاذ إلى أدق الأمور، وهو بمجلسه هنا، بالقاهرة، عندما سمع زكريا أفكار الزيني تساءل من أين له هذه الخواطر؟؟ لكنه قال بعد إطراقة قصيرة، هل تعرف.. منذ عامين انتويت تنفيذ هذا. أن أجمع كبار البصاصين في العالم، لكن المشاغل ألهتني، خبط الزيني ركبة زكريا، طبعًا.. أمر كهذا لن يفوتك أبدًا.. الآن يطوف الزيني بلاد الصعيد، ينزل كل قرية في جمع من رجاله الأشداء ونوابه حاملًا الميزان والصنج. الزيني الآن يحتسب على الديار المصرية كلها، يقيم العدل فيها، أخبار جولاته تصله يومًا بيوم، نجح في ضم رجلين من رجال الزيني، لكنه لم يعثر على مخلوق واحد من بصاصي الحسبة، بعد جولة الزيني في الصعيد، سيسافر إلى دمياط، من أشهر تعهد للسلطان بدفع مبلغ معين من المال، عن دمياط والمنصورة، لا يذكر زكريا مقداره الآن، إنما في حدود ثلاثين ألف دينار، بعد التعهد توجه عدد من الأمراء إلى الزيني، قالوا فيما بينهم، لو نجح الزيني وجمع الثلاثين ألفًا لأظهر لنا السلطان عين الغضب وقال، انظروا إلى ذمم المسلمين وكيف تكون؟ قابلوا الزيني، أبدوا إشفاقهم عليه، دمياط والمنصورة لا تدر أكثر من عشرة آلاف دينار سنويًّا، كيف الحال لو انتهى العام ولم يدفع الزيني مال السلطان. ثم ما الذي يدخل جيبه؟ هل يرهق روحه؟ يطارد الفلاحين عندما يسافر، ويصرف، ويشنق أرواحًا، مقابل ماذا؟ رد الزيني قائلًا لن أقتل ولن أشنق أي إنسان لأنه تأخر في دفع ما عليه، إنما سأعذر كل مخلوق ناءت به الحال «سكت لحظات، قال» أعانني الله على جمع مال السلطان وإذا كانت دمياط لم تدر في جميع العصور أكثر من عشرة آلاف دينار، فسأصلح أمورها، وأستخرج منها ما لن يتخيله إنسان «خرج الأمراء من عنده وهم في غيظ عظيم»، أرسل زكريا خفية إلى كل منهم، لن ينسى ما قرره يومًا ما أبدًا، ألمح إليهم بنية خبيثة يضمرها الزيني ضدهم، هاجوا وطلعوا إلى السلطان إتكوا

عليه في الحديث، أبدوا تعصبًا ضد الزيني لكن السلطان خاطبهم بكلام يابس، قال: أنتم هكذا إذا ما ظهر إنسان يبغي العدل، حاربتموه ولما زادوا عن حدهم قال الغوري هائجًا، رمى العمامة، «والله أخلع نفسي وتسلموها أنتم خربة بورا، الخزائن خاوية وابن عثمان متحرش بنا، العامة لا يهدءون، وتجار الفرنجة ما عادوا يعبرون من الإسكندرية إلى دمياط، خسرنا دخلنا وعندما يظهر إنسان يتفنن في جلب المال، نقف ضده، ونمانعه، والله هذا كلام لا يرضي مؤمنًا ولا كافرًا» زكريا نفسه حار، كيف يجمع الزيني ثلاثين ألفًا من دمياط والمنصورة، في الليلة نفسها قرر أن يمد مقدم البصاصين بدمياط برجال أكفاء يرصدون أساليب الزيني، وما يستحدثه من بدع، في الأشهر الأخيرة، لا ينكر زكريا إعجابه الخفي بخطط الزيني وتدبيره، زكريا يقدر الناس حق قدرهم مهما بلغ كرهه لبعضهم، كبير البصاصين في بلاد ابن عثمان مثلًا، عدوه الأول الآن لم يره قط، لكن عنده أوصافه كلها، ومزاجه، درجة عشقه للغلمان والنساء، قدرته على اتخاذ القرارات فيما يتعلق بالمصائر، في ديوان السر دفتر كامل عنه، كأن زكريا صاحبه دهرًا طويلًا مع أنه لم يره، زكريا يراه بصاصًا من أعظم البصاصين قدرة، منذ عامين أنشأ فرقة خاصة، بعضهم يتحدث بلسان العثمانلية، كأنهم ولدوا في القسطنطينية نفسها، قسمهم إلى فروع، منهم من اختص بتاريخ أبناء عثمان وأمزجتهم وأحوالهم، آخر تخصص في أمور الجيش العثمانلي وما يستجده من أسلحة، زكريا يقدر تمامًا كبير بصاصي الدولة العثمانية بعد ثبوت أمر قاطع كحد السيف وهو اتصال عدد من أمراء المماليك بدولة ابن عثمان، زكريا عندما علم بالأمر انزعج انزعاجًا شديدًا، ليس لوجود مماليك يتصلون بابن عثمان، هذا طبيعي، سهل اكتشافه، وإن لم يستطع كبير البصاصين العثمانليين هذا فلا يستحق منصبه، زكريا انزعج لرتبهم، منهم مثلًا خاير بك، وهو من أشد الأمراء قربًا إلى السلطان، زكريا لم يبلغ السلطان لا بد من جمع أدلة أكثر، أمر بفك رسائل الأمير خاير بك لكنه لم يعثر على إشارة، إذن توجد طريقة خفية تغيب عن بصاصيه حتى الآن يراسل بها العثمانلية، الأدلة كلها شفوية، حتى بعد توافر الأدلة القاطعة، سيبقيها زمنًا تحت يده، ربما تجيء لحظة يشهرها سيفًا فوق رأس خاير بك إذا بدرت منه بادرة، السلطان بلا أدلة ملموسة لن يصدق، خاير بك تقرَّب جدًّا منه، بل أعطاه ولاية حلب القريبة جدًّا من ابن عثمان، لكن لا بد من التلويح لخاير بك بالأمر، زكريا يحوم حوله، صحيح سيأخذون حذرهم، لكن لا بد أن يعلموا، زكريا يعرف ويسكت، ثمة فكرة بعيدة في قرارة العقل - من يدري ربما دارت الأمور واعتلى واحد منهم كرسيًّا، زكريا يكره طفو الخاطرة إلى وعيه، يكره ما وصلوا إليه من خيانة أستاذهم، والبلد التي رضعوا خيرها حتى صلبت عظامهم، يقدمون ما فيها مطبوخًا جاهزًا ليأكله ابن عثمان، هذا جرم يعلم به زكريا، قليلة المعلومات التى تثير في نفسه شعورًا معينًا بعينه، طالما تمنى دخول واحد من أمراء ابن عثمان في خدمته، سيرحب به، يجزل له العطاء لكنه بينه وبين نفسه سيحتقره، لكن حتى الآن يتفوق عليه كبير البصاصين العثمانليين في هذا، ضم من عنده أكثر من أمير وزكريا لم يضم أميرًا واحدًا مشابهًا لخاير بك، عندما وصل إليه ما يفيد باجتماع الأمراء الباغضين للزيني، تساءل عما يريدون، هل يلتقون مع زكريا فيما قدره، ما يسعى إليه بتأنٍّ عظيم لكن الخلاص من

الزيني لا يتحقق بضربة خنجر، ولا سائل يدس في طعامه، ولا فرسان يقطعون عليه الطريق في الصعيد، أو فوق مدق زراعي بدمياط، أبدًا، الزيني تحدى عمره، ما أسهل أن يتخلص منه الزيني بنفس الطريقة، أمر لن تمنعه احتياطات زكريا، عندما قرر القضاء على الزيني لم يقصد ذبحه، أو قتله، إنما الخلاص منه وهو حي يرزق يأكل وجباته ويضاجع نساءه، يقتله، لكن يبقي على حياته في الوقت نفسه، هذا أشق وربما استنفد عمرًا، لكن الخلق لا يعاملون كلهم هكذا، رجل مثل الزيني لا يجود الزمان بمثله، زكريا يزن قدره تمامًا، يدرس أساليبه ويأخذ ما يخدمه منها، حتى لو استعملت هذه الأساليب ضده هو، راح زكريا يرقب الأمراء، أطلق البصاصين في ركاب كل منهم، كيف سيتخلصون من الزيني، الآذان تنقل إليه أحاديث القاعات المغلقة، العجائز يسعين إليه بالأخبار، تزايد ضيق الأمراء عندما تسلم الزيني الأمير أزدمر الصغير، تعهد باستخراج مائة ألف دينار ذهبًا منه، فيما بينهم قالوا، لو تركناه يفعل ما يشاء لدار علينا واحدًا واحدًا، ننفضح في عيون العامة، وتنزل هيبة المماليك في مصر. وتذهب حرمتهم، أيقن زكريا خطورة الحال في الليل التالي. خرج متخفيًا إلى بركة الرطل. وقتها كان الزيني يستعد لبدء رحلته الثانية إلى بلاد الصعيد. عند باب الفتوح تلكأت خطواته. كيف قرر هذا؟ أحقًّا يمضي إلى الزيني يحذره من القتل؟ يقترح عليه تغيير أماكن نومه كل ليلة في بيت يحدده زكريا يبث حوله العيون والأرصاد. في الوقت الذي يرصد فيه حركات الأمراء وسكناتهم. لا ينسى ما ألحقه الزيني به من مضايقات. هل ضعف أمامه. أليست فرصته؟ أبدًا هذه طريقة سريعة للخلاص. إذا ما ذبحه الأمراء فسيبكيه العامة ويتحسرون عليه.

سيخطو بينهم ميتًا أكثر من خطوه حيًّا يرزق. عندما قام الأمير طيبغا في زمن الناصر بن قلاوون ونادى بالعدل وصار ينصر الفقير على الغني. ضايق الأمراء مضايقة شديدة. دسوا له السم البطيء، لم يخف الأمر على العامة. بكوه بكاءً مرًّا. لطموا الخدود شقُّوا الثياب زمنًا. صاروا يقولون في كل صغيرة وكبيرة. لو طيبغا موجود بيننا. حتى عندما قام كبير البصاصين في ذلك الوقت بتكليف العلماء لوضع كتيب ورسائل تذم فيه. ازداد العامة تمسكًا به. صنعوا له بلاليق من الحلوى، تباع في الموالد ولا تزال بلاليق طيبغا ترص في دكاكين الحلوى كلما أقيم مولد لسيدنا الحسين، أو سيدي إسماعيل الإمبابي أو سيدي الليث، أو أي ولي آخر، لكن الأمراء أغبياء مناكيد لا يدركون هذا، هل ألحق الزيني ضررًا بأحدهم كما ألحق بزكريا؟ زكريا لا ينسى أبدًا ليلة تجمع الأدلة القاطعة حول أمر طال تردده في قبوله، رفضه الاقتناع بصحته، ليلتها دخل عليها القاعة مكروش النفس، مبهدل الثياب، وعندما واجهها في ضوء النهار الخائن المتسلل من ثقوب المشربية، أيقن صحة ما تردد في الاقتناع به، عرف أنه خدع، هذا شعور لم يطأه من قبل، حتى عندما بدأ بصاصًا صغيرًا ينقل كافة الأخبار، كل الأدلة لم تقنعه لكن نظرة عينيها في تلك اللحظة أنهت التردد، ذبحت الشك، وتذكر بصاص مصر الأعظم الكازروني عندما أمسك بأحد أمراء الظاهر بيبرس، وفصل أعضاءه عن جسمه مبتدئًا بذكره، أطال عذابه حتى لفظ الأمير روحه في خمسة وأربعين يومًا، بدأ بحلق شعرها الناعم المتسلل كالحقد في عروقه، شوه الوجه، حتى لا يرق القلب لتضاريس العمر البكر، أدخل سن

خنجره المحمي فيها، أداره على مهل، لم تتحمل فخمدت أنفاسها بعد ليلة واحدة، حزن عفي أوغل في قلبه، والحزن إذ يعرف الطريق إلى قلب رجل مثله علامة ضعف غير مستحبة، لام نفسه إذ تسرع بقتلها، لكنها لم تحتمل أبدًا، بالغ في تعذيبها، كان لا بد أن يعرف منها، أين ومتى نفذ إليها الزيني، واستطاع ضمها إلى صفوفه، أدخلها بيت زكريا قبل توليه الحسبة بأسابيع، كان لا بد أن يعرف منها أية أدلة على جماعة البصاصين التابعة للزيني، قال مقدم القاهرة، جماعة الزيني هذه إما محكمة البناء بحيث لا يمكن النفاذ إليها أبدا، أو غير موجود بالمرة، زكريا يثق من وجودها، وإلا فإلى أي الناس تنتمي «وسيلة»؟ فعلًا تسرع في ذبحها، هل يوجد آخرون في البيت يسهلون اتصالها بالزيني، كيف كانت تنقل المعلومات إلى الزيني، لا بد من رصد أهل البيت، مراجعة المرات التي خرجت فيها وسيلة، محاولة التعرف على دكاكين القماش والعطور التي قصدتها، مع أي الباعة تحدثت؟ أمور كلها سيتابعها زكريا بنفسه، أمر «وسيلة» يجب ألا يشيع، سبة في تاريخه.

سيصير نادرة لبصاصي الأزمنة المقبلة، آه، لا بد أنها أخبرت الزيني بطريقة نومه معها، قشعريرة سرت في ظهره، كأن الزيني ثالثهما في كل خلوة، عيناه اللامعتان تتأملان مؤخرته العارية، من يدريه، ربما واحدة من حريمه الآن على اتصال بالزيني، كلما خطر له هذا لا يقربهن يتراجع عنهن، هل ألحق الزيني أذى بأحد مثلما ألحق به مع هذا يطرق بابه ليخبره بما دار بين الأمراء، ليحميه، عندما يقدم على حمايته يسن نصلًا خفيًّا، نصل لا ينثني، إلى قلب الزيني، قابله الزيني بذراعين مفتوحتين، بدأ الحديث عن أمور تحدث في الأزهر، مجاورون كثير يجهرون بكلام في حق السلطان، بل يتحرشون بسمعة زكريا والزيني نفسه، قال الزيني «سأرسل لك أسماء المجاورين المشاغبين، وبهذه المناسبة ما آخر أخبار هذا الولد.. اسمه قال زكريا (سعيد الجهيني)». صاح الزيني «تمام.. تمام..» ابتسم زكريا «لا تفوتنا حركاته، نحن أدرى به من نفسه، بعد زواج حبيبته كان حزينًا جدًّا، قلنا إنه سيلقي نفسه في النيل، أو يشرب فصًّا سامًّا، ثم بدأ يكثر من الخلوة إلى نفسه في مقهى حمزة، أحيانًا يجلس معه واحد صاحبه، منصور»، تساءل الزيني «منصور؟» قال زكريا «منصور الركايبي، عندي معلومات كافية عنه، إنه أكثر تعقلًا من صاحبه، ويجيء منه الخير..» أشار الزيني بيده «المهم.. لنرجع إلى الولد سعيد» قال زكريا «إدمان الدخان، والمشروب الجديد ا لذي وصلنا من اليمن.. القهوة، وبعد زواج حبيبته بأشهر بدأ يتردد على بيت سنية ابنة الخبيزة.. يروح هناك كل يوم ثلاثاء، ولا ندري السر في هذا» مال الزيني وأسند ذقنه إلى يده، «أكثر من إطلاق رجالك في إثره بحيث لا يكون الهدف رصد حركته، إنما إشعاره أن هناك من يرصده» هز زكريا رأسه «فعلنا ما هو أكثر.. أمرت رجالي باقتفاء أثره ثم النداء باسم سماح بصوتٍ عالٍ، كاد يجن..» ضحك الزيني «عال.. عال.. وأخبار الصلاة؟» ابتسم زكريا، «يدي قبلة الشفاه..» تزايد ضحك الزيني، اسمع يا زكريا لا بد أن تحتل مكانة في قلوبهم أكبر، غدًا اركب حصانك، دع رجلًا من رجالك يرتدي ملابس فلاح، وآخر من رجالك في ملابس مملوك، ليضرب الثاني الأول ضربًا فظيعًا، وطبعًا يتصادف عبور موكبك هنا ترجل أنت أنصف الفلاح واقبض على المملوك، أكثر من أشباه هذا يحببك الله إلى قلوب الخلق، وعندما يصل البصاصون يجدون

لأول مرة في تاريخ الإنسان بصاصًا عظيمًا لا يتقن عمله فحسب إنما يحبه الخلق، ويحترمونه، هذا يساعدنا في نشر العدالة وإقامة الميزان. سكت زكريا، الفكرة أعجبته كاد ينسى ما جاء من أجله، هل يدرك الزيني غرضه فآثر شغله بالحديث، هل يؤجل الحديث عن الأمراء، وإذا جهل الزيني قصة مجيئه، فسيضطرب ويحار، ويتساءل عن السبب في مجيء زكريا، تأخذه ظنون شتى، غير أنه قال فجأة بعد لحظات صمت أثقلها ضوء خافت من شمعدان وحيد، «أنت يا زيني ستقتل..»، أصغى الزيني بعد يومين عندما تجول زكريا في حديقة بيته، تراءى له وجه الزيني، ثم قيامه المفاجئ، عناقه لزكريا، لمح فعلًا دموع التأثر في ركني عينيه، قال «مثلي لا يمكنه العيش بدونك يا زكريا»، في البيت لاحظ زكريا ميلا خفيًّا إلى الزيني، خاصة بعد قبول الزيني الذهاب إلى المواضع التي حددها زكريا، ونومه تحت حمايته، لكن هل يصفو قلبه تجاه الزيني، أبدًا الاستسلام أو الرجوع عن القرار القديم مذبحة يعدها زكريا لنفسه، حتى يؤكد لنفسه ثباته على قراره القديم، بدأ في استنبات بذور مشروع قديم مدفون في عقله، أرسل في استدعاء «أبو الخير المرافع»، أبو الخير بصاص قديم عمل زمنًا في أقصى الصعيد، منذ أيام وصل إلى القاهرة، يقول متباهيًا: في حياتي خربت عشرات البيوت، هدمت عائلات ما ظن أحد قط أنها ستهدم، إذا حام أبو الخير حول إنسان فلا بد أن يطرحه أرضًا، خاصة إذا وصل إلى علمه استقرار أمر هذا الإنسان أو فرحته بعياله وامرأته، يهوى إحالة الفرح حزنًا، والسرور قهرًا، والغنى مذلة، دءوب في إغلاق البيوت وإفساد سعادة الناس وفرحتهم، يرقص طربًا لحظة طلاق امرأة، زكريا يتأمل وجهه المسحوب، حدبته، ينظر إلى تقوس ظهره، عيناه تنظران إلى فوق دائمًا، من لحظة إلى أخرى يدفع أبو الخير الهواء إلى أنفه، كأنه يعاني ضيقًا، يتساءل عما سيحدث في اللحظات التالية..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

نـــداء

يا أهالي القاهرة

نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر

ينهي إليكم

الزيني بركات بن موسى

متولي حسبة الديار المصرية

ووالي القاهرة

والمتحدث عن الوجه البحري كله

أنه سيخطب يوم الجمعة

ويكشف للخلق في أركان الأرض

حقيقة الحال، وسر ما قيل وما يقال

فإذا شئتم الاطلاع على الحقيقة

فاذهبوا إلى الجامع الأزهر

يوم الجمعة

بعد الصلاة..

ذو القعدة 920هـ مقتطف «حـ»

من مشاهدات الرحالة البندقي، فياسكونتي جانتي، الذي وصل إلى القاهرة للمرة الثانية عام 917هـ وأقام بها ثم رحل إلى الشام وبلاد الحجاز، ثم عاد إلى القاهرة، وأقام بها، وفي هذه المرة كان قد تعلم لغة أهل البلاد، فلم يعد بحاجة إلى مترجم عربي.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

«لم أرتد ملابس تاجر تركي، خاصة والأهالي والشرطة يتعقبون كل عثماني ربما أمسكوه، يسلمونه في أحسن الأحوال إلى كبير بصاصي الدولة ليعاقبه عقابًا مريرًا، ليقر أي معلومات كلف بجمعها وإرسالها إلى ابن عثمان، نزلت ممسكًا عصا قصيرة أدفع بها أذى الكلاب عني، رأيت المدينة تغلي. من النادر جدًّا تواجد الأهالي خاصة النساء بعد العشاء في طرقات المدن الشرقية خاصة القاهرة التي يشرف على نظامها رجل قوي، متمسك بالدين وفروضه، له هيبة عظيمة عند الناس، وهو محور هذا الغليان، أقصد الزيني بركات، لم يعمر رجل مثله في وظيفته مع أن الأوضاع هنا سريعة التقلب وهناك من يتولى منصبًا في المساء ليخلع في الصباح، رأيت المشاعل معلقة أمام الدكاكين فقط، رأيت عجوزًا يجلس بجوار جدار قديم، أراه في الليل والنهار، لا يرعش طرفًا، كأنه بروز حجري على هيئة إنسان، وأذكر أنني رأيته في زيارتي السابقة، لا يتغير، بودي لو أرقبه، أعرف متى يأكل، متى يفك قبضته عن العصا، امرأة بدينة تجلس أمام قفص كبير، فوقه المقدونس والجرجير، رجل يبيع حلوى لذيذة الطعم من الدقيق والسمن والسكر، يحبها أهل الشرق، اسمها بسبوسة، اشتهر في القاهرة عدد من الباعة يتقنون صناعتها، أذكر منهم رجلًا قصير القامة أعور قبل المغرب يخرج من بيته إلى ناحية حارة لا يسكنها إلا العطارون، يقف جامدًا، يتوافد إليه الناس رجالًا وأطفالًا ونساء، لا يزعق أحدهم، إذا علا صوت رجل يطلب الإسراع لتلبية طلبه، هنا ينظر إليه ويشير إشارة واحدة موجزة «امش..»، ولا يمكن أن يبيع له أبدًا حتى لو تردد عليه مرات، وعندما يقطع البسبوسة، يمد يده بسكين قصيرة سلاحها عريض مثلث، حركات يده مرسومة محددة، كأنه يشكل الذهب، ينحت المرمر، تخلو الصينية إلا من فتات حلو متناثر يلمع فوق طبقة رقيقة من السمن كالأشعة الصفراء، بالسكين يجمع الفتات، يلمه إلى حافة الصينية، في اللحظة التي ينتهي من تجميعه، يجيء رجل عجوز طويل رفيع معصوب العينين، يمشي منسربًا لا حس له، يحمل طفلًا صغيرًا لا يبكي، يعطيه البائع الفتات ملفوفًا في ورقة صغيرة، يضم الحامل الخشبي المثلث تحت إبطه، ينصرف، أحببت الوقوف قريبًا منه، أراقب يديه، وجهه الجامد، لم أذهب إليه بعد، محلات الأكل كلها مفتوحة، تسمع وأنت تسير أمامها اصطدام

الأطباق والأوعية، تتصاعد روائح الطعام. السمك المقلي. الفراخ المحشوة بالبصل، السنبوسك. وهو نوع رقيق من العجين. يشكل في مثلثات محشوة باللحمة، تقلى في السمن حتى يحمر العجين. من بعيد، ترتفع أصوات، تدور وتتجه جماعة نجارين يركبون عربات تجرها الدواب، يصفقون، يكبرون مهللين، يرددون في إيقاع منتظم «ابن موسى.. ابن موسى» لم أميز بقية ما يقولون. من آن إلى آخر ترتفع صيحات صادرة عن جماعة. تبتعد كلماتهم تائهة مضطربة، تغيب، فجأة سمعت من يقول: «ابن موسى لا يأتي مرتين في زمن واحد». رد آخر:

«لو جاءهم من يصلح أمرهم لا بد أن يخلقوا فيه العيوب»، العجيب أنني سمعت بالأمس رجلًا عجوزًا يقول عند دكان عطور قديم في الحمزاوي «ظهور ابن موسى علامة من علامات خراب الدنيا.. أنا أعرف عنه ما تقشعر له الأبدان» لكن الحضور نظروا إليه، سكتوا لحظة، تسابقوا في الثناء على ابن موسى. كأنهم يدفعون عن أرواحهم أذى مكتومًا، ينفون استماعهم إلى العجوز. أي أمر محير هذا، لم أر مثله في أي البلاد، الناس تحب شخصًا بعينه، كل لسان يحمد سيرته، يثني عليه، في الوقت نفسه يسري شيء خفي، شعور لا يبين في الأرواح والجماد رهبة خفية من الزيني لا تبدو على وجه بشر إنما ترى بعيون خفية، هذا أمر حيرني فعلًا وأربكني سمعت طبل المنادي، إذن سيخطب ابن موسى في الناس غدًا. المدينة ساهرة، لم أر فارسًا مملوكيًّا واحدًا، عرفت من خادمي أن ضررهم بلغ حدًّا فظيعًا لا يحتمل منذ عام كامل، الخروج بعد العشاء مغامرة، أهالي الحارات يغلقون أبوابها ويعينون منهم من يجلس وراءها، وعندما تزايد الأذى، طلع ابن موسى إلى السلطان وشفع في الناس، قال: «الدنيا ستخرب إذا استمر الحال على ما هو عليه، من خطف نساء وذبح أبرياء» واستجاب السلطان لرجاء الزيني وأمر بمنع المماليك من مغادرة ثكناتهم العسكرية والنزول بعد العشاء إلا بإذن خاص، أمر بمنع أي مملوك من ارتداء لثام حول وجهه، لم أعاصر هذه الفترة في مصر، لكن أخبرني خادمي باستمرار الدعاء ثلاثة أيام فوق منابر الجوامع للزيني بركات، ولم يحدث هذا لأي إنسان من قبله، حتى أمر ابن موسى بمنع هذا. أخبرني خادمي بذبح ثلاثة شبان في هذه الفترة بسبب ذمهم ابن موسى، ذبحهم العامة بأيديهم عندما قال الشبان: ما يفعله الزيني مشكوك فيه، هو الذي أثار المماليك، حتى يطلع إلى السلطان ويشفع في الخلق، وعندما يمنع السلطان مماليكه، ينادي ابن موسى بالكف عن الدعاء له. رجعت إلى بيتي وفي رأسي دوار. بلا شك هناك أمان يعيش بين الناس وادعًا. لم تفارقني ضجة الناس، لهوهم، في اليوم التالي قمت من نومي مبكرًا. صعب علي دخول الجامع. لو فرض وأمسكوني فسأطلب عون الزيني. ما من أجنبي، خاصة الفرنجة، يدخل مصر إلا ويسجل اسمه والناحية القادم منها. هذا نظام جديد لم يتبع في زيارتي الأولى. لو سألني عما أفعله في المسجد فسأخبره بطوافي، برغبتي في رؤية الدنيا. ابن موسى سيفهمني، لا بد من لقائي به هذه المرة. لم أره إلا في موكبه يوم مشيه في موكب إعدام سلفه بأغرب طريقة قتل رأيتها، الرقص حتى الموت. قلت لن يفوتني سماعه، فلأدخل المسجد، لمحت رجالًا يرتدون ملابس زرقاء ياقاتها صفراء. يقفون بين المصلين يرقبون حركاتهم، يزداد عددهم كلما اقتربوا من الصفوف الأمامية وحتى آمن على نفسي جلست ملاصقًا لأحدهم لم أخطئ في القيام

والركوع، أعرف الصلاة هنا أهون من قرى الهند والمعابد والعادات التي لا تنتهي، بين الناس سرت همهمة. دوائر تتسع بعد إلقاء حجر في مياه ساكنة، تعلقت العيون بالمنبر الخشبي، وفوق السلالم الخشبية طلع حاكم القاهرة، محتسب الديار المصرية، الزيني بركات بن موسى، أصغيت مرهفًا، حديثه عامي اللهجة، وهذا يخالف الأصول على حد علمي، اضطررت إلى إحاطة أذني حينًا بيدي حتى أسمع ما يقول. بدأ لينًا ثم علا، سمعت مجيء الزيني إلى وظيفته، حرصه على إقامة العدل، وإقامة العدل في العالم أمر محبوب للبعض، مكروه لآخرين، كانت الفرصة مفتوحة أمامه. ينهب الأموال ويكدس اليواقيت، اللؤلؤ والمرجان كما فعل الأولون. وكما يفعل الآخرون لكنه أبى خوفًا منه هو وحده (يقصد الله). وها هو لا يمتلك أكثر مما يقيم أوده. وقال إنه تعهد بتقديم المال عن جهات معينة. وتمكن من استخراج أضعاف الأموال التي تدرها هذه الجهات عادة ولم يشك إنسان، أو يتضرر، لم يصادر فلاحًا فقيرًا يعمل بها، لم يتسبب في خروج بعضهم عن بلاده، وضع حدًّا لهجمات العربان على بيوت الفلاحين، هذا ما تم في الريف، أما الضرائب هنا هل شكا منها مخلوق؟ لقد ألغى العديد من الضرائب، وهنا تمهل صوت الزيني، استمع الناس إلى سر من أسرار السلطنة لا يجرؤ مخلوق على قوله. كان السلطان ينوي فرض ضريبة جديدة (وهنا علا صياح الناس، حماك الله.. حماك الله)، لقد شاءت رحمة السلطان وعدله أن يستجيب لشفاعة ابن موسى، فيلغي ما عزم عليه، (حماك الله.. حماك الله)، وما قيمة الشفاعة إذا لم تجد صدرًا رحيمًا كصدر السلطان يتقبلها، وبعد نزول الزيني من القلعة، نزوله يوم السبت وسفره إلى الصعيد للاطمئنان على الأحوال (هنا توقف الحديث وبدا التأثر في لهجة الزيني)، سرى هياج بين الناس، لاحظت صدور أصوات من مكان قصي في المسجد، أما الرجال المرتدون الملابس الزرقاء فبدءوا يقتربون من بعضهم البعض، ثم يتفرقون لكن ليقفوا في مواضع غير أماكنهم الأولى في الظهيرة، ظهيرة السبت طلع إلى القلعة هذا الرجل، سامحه الله «أبو الخير المرافع» أبو الخير الذي خرب في عام واحد ثلاثًا وثلاثين أسرة، ابن موسى لا يذم أبا الخير، إنما يذكر وقائع مدعومة بدلائل لا تقبل الشك، الذين خربت بيوتهم أحياء يرزقون، أما اليتامى فيشهدون على آباء رحلوا قبل الأوان، من أمره بهذه التفاصيل، من أوضح له حقيقة أبي الخير المرافع؟ إنه نائبه المخلص الأمين، نائبه الذي يغار على العدل كما يغار على أهل بيته (أشار بيده إلى أول الصفوف) إنه زكريا بن راضي، وتطاولت أعناق الناس ليلمحوا زكريا لكنهم لم يستطيعوا فزعقوا (أبقى الله زكريا. أبقى الله زكريا) اقترب الرجال ذوو الأردية الزرقاء من ركن المسجد، يبدو أن شيئًا يجري. علا صوت ابن موسى، رأيته يضرب صدره بيده، أبو الخير المرافع افترى عليه، تعهد أمام السلطان باستخراج ستين ألف دينار من الزيني بركات، بعد أن يتسلمه ويجري عليه العذاب (زعق الناس.. لعن الله أبو الخير.. لعن الله أبو الخير) لكن السلطان بما أوتي من قوة بصيرة ونفاذ سريرة هل يدري الناس ما قاله السلطان أولًا.. أمر بزج أبي الخير المرافع في القيد الحديدي، قال له هل تظن أنني لا أدري ما يمتلك ابن موسى. سأحكي لك حادثة بسيطة: عندما انعقد مجلس السمر الليلي، تأسف الأمير ماماي الطبردار (أي حامل الطبر والفأس) وقال: حتى اليوم كنت أظن ابن موسى واحدًا من الأثرياء والمال عنده كاللولب

يديره كيفما شاء لكنه جاءني، وكان مضطربًا زائغ العينين، طلب مني قرضًا قيمته... تساءل السلطان عن قيمته.

تأسف السلطان ثانية وقال: خمسة دنانير.. أي والله خمسة دنانير. قال السلطان: هل تظن شخصًا يرسل في طلب قرض كهذا تستطيع استخراج آلاف الدنانير منه. لماذا ستون ألف دينار؟ آه.. ابن موسى أدخل إلى خزائني آلاف الدنانير. لم يأخذ منها درهمًا لنفسه وعندي عيوني التي تخبرني بكل كبيرة وصغيرة في بيته (هنا علت همهمات من أقصى المسجد، وسرت همسات بين الناس) فوق المنبر وقف ابن موسى صامتًا.. رأسه مطرق، يداه تضمان طرف عباءته السوداء. وصاح الناس مطالبين بعضهم بالسكوت، رأيت الناس فوق سطح المسجد المطل على الصحن الداخلي يروحون ويجيئون. ثم ظهر ثلاثة رجال يلبسون الملابس الزرقاء يدفعون الرجال الذين يختلسون النظر إلى أعلى. أيقنت جمال المنظر لو صعدت فوق المئذنة الجديدة التي بناها السلطان الحالي هنا، تشبه مئذنته ذات الرءوس الأربعة والمنبثقة من جامعه الجديد في أول سوق الشرابشيين. هذه المئذنة أدمنت النظر إليها. المرور من تحتها. يتساقط فوق روحي وهج رخامها الملون. عصور سحيقة أراها في الصباح. أعود إليها وغبار العصر يغطيها فألقى منظرًا جديدًا. أجلس في دكان مشروبات قريب من الأزهر، أرقبها تغوص بقامتها، برءوسها الأربعة في الليل، حتى تندمج بظلامه. أخشى عليها من ضياع. أرجع إليها من جديد. لم يتحدث ابن موسى إلا بعد هدوء الضجة «اعذروني إذا رويت لكم فيما رويت بعض أسرار بيتي»

أنتم إخوتي.. يا إخوتي..

هل سرقت واحدًا منكم؟

(تآلفت الحناجر.. تسد الفراغ..)

حاشا لله..

هل أتيت فاحشة؟

لا..

هل ظلمت واحدًا منكم؟

وتداخلت الأصوات. علت، رأيت ابن موسى يشير بيديه، عندما هدأ الناس تقدم رجل قصير يرتدي قميصًا من الجلد، أجهدت نفسي محاولًا سماع الرجل، لم أستطع عندما رفع ابن موسى يده كان هذا الرجل يشكو ظلمًا وقع عليه، أحد رجالي ضربه لأنه كان يمشي حاملًا قربة الماء فهو سقاء وسط الطريق وهذا يعرض ثياب المارة للبلل، وتساقط الماء فوق الأرض يغطيها بالطين، وهذا يخالف الأصول التي وضعها المحتسب بالنسبة للسقائين، ومع هذا لا بد من رد حق السقاء، اعتداء رجل من رجال ابن موسى على أي إنسان بضرب غير شرعي. مرفوض. لن يقبله المحتسب أبدًا.

«بعد الصلاة تعال عندي، أخبرني عن المكان الذي مشيت فيه. وسأحضر أمامك رجالي كلهم المتواجدين فيه. ولا بد من رد حقك إليك»

وفي لحظة بعينها، قبل تهليل الناس، انطلقت صيحة من أقصى المسجد. انطلقت في هفوة صمت، تخللت حديث الزيني..

«كذاب...».

هنا لم يصدق ابن موسى، صوت نشاز، لم أخف تعجبي، الحق أنني لم أر مثل الرجل طوال سني عمري التي قضيتها راحلًا عبر البلاد، تزايد إعجابي بابن موسى، عندما عاد إلى أطراقته، لا يتكلم إلا إذا ساد هدوء، لمحت ضيقًا خفيًّا حل به، طبعًا لا بد أن يضيق بهذه الصفاقة ربما وصل أعداؤه ليفسدوا عليه حديثه إلى الناس، مرة ثانية أشار بيده إلى الصف الأول، تابعه المخلص الأمين الشهاب زكريا بن راضي (دام زكريا.. دام زكريا) هو الذي قبض بنفسه على أبي الخير المرافع تسلمه وحبسه، لا لأنه طلع وترافع في حق الزيني، ابن موسى فكر في العفو عنه، يكفيه معرفة السلطان بالحق وأهله، لكن الشهاب الأعظم سيذيقه ما أذاق الآخرين، ابن موسى لن ينثني، لن يتراجع عما يراه عدلًا، السلطان معه. وقلوب الناس تحميه، فليأت أعداؤه بما يشاءون. كل ما يرجوه، أن يمضي إليه صاحب المظلمة وإذا ثبت أنه ظلم مخلوقًا، فسيقبل أي قصاص يقع عليه كأي مخلوق. (علت ضجة من نفس المكان الذي انطلقت منه الصيحة). بدأ ابن موسى في نزول درجات المنبر الخشبي. صاح البعض «الله أكبر.. الله أكبر.. الزيني زكريا قواك الله وحماك»، دق بعض الدراويش كئوسًا نحاسية وضاعت الأصوات التي علت تشوش على الزيني.. لم أخف بهجتي.. وازداد إصراري. لا بد من لقائي به قبل سفري..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

نـــداء

يا أهالي القاهرة

نوصي بالمعروف وننهى عن المنكر

اليوم نبشركم

بقلع السلطان الصوف الأسود

وارتدائه اللباس الأبيض

مع دخول الحر

يا أهالى القاهرة

أمر الشهاب الأعظم، زكريا بن راضي

نائب محتسب الديار المصرية

نائب والي القاهرة

بشنق أبي الخير المرافع
وسوف تبقى جثته ثلاثة أيام
عبرة لمن اعتبر
ودرسًا لمن جاء ومن عبر
يا أهالى القاهرة
ممنوع على دكاكين المشروبات والحلوى
السهر بعد العشاء
ومن ضبط مخالفًا
عوقب بخمسين جلدة
يا أهالى مصر
جاءت الأخبار
بوقوع معركة
بين فرساننا الأشاوس
ورجال ابن عثمان
وقتل فرسان سلطاننا
أربعين فارسًا عثمانيًّا
وهذا أول دم يسيل
فانتبهوا يا أهالي مصر
يا أهالي مصر
نـــداء
يا أهالي مصر
نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر
أمر من مولانا السلطان
بتعيين الزيني بركات بن موسى
ناظرًا للذودخاناه
ونائبًا للدوادار الكبير
الأمير طومان باي

فلزم التنويه والتنبيه

يا أهالي مصر

لو سمع أحدكم بعض أعداء الدين والملة

يقع بالكلام في حق السلطان

أو حق واحد من الأكابر

فعليه بإبلاغ الأمر

إلى نائب الحسبة

الشهاب زكريا بن راضي

وله الجزاء، والمكافأة

ومن سمع وسكت

قطع دابره بغير معاودة

فاعلموا

وعوا..

سَعيد الجهيني:

في القلب جراح صعبة الاندمال، النفس غابة أسنة وحراب، مرشوقة لا تنتزع، لا سد يوقف الأسى المنثال، يذوي الأول والآخر، يضيع المثنى والمفرد، التاء المفتوحة نهاية النهاية، موت الآمال وليد فراق الأحبة، أما الأماني فتنأى، في أول العمر يهتف خاطر خفي دفين، جبينك لم تدركه الغضون، صدى وسوسات النجوم. يشد الأرض إلى السماء. قلوب الخلق تنهج بالمر والبلوى. لكن صبرًا. مهلًا. بعد سنوات ستجيء الأيام السعيدة. لن يستقر الأمر على حاله. أول العمر يغمض عينيه فيرى أيامه مقبلة. وربيعًا فتيًّا يخرج الخلق بمأمن من عبث المماليك. لا يدركهم خوف من هجوم المنسر. أو كبسة مفاجئة من بصاصين يسعون في أثر إنسان. لا يحب الإنسان مرتين.

أول من يخفق لها القلب. لا تنفي ضرباته. لا تصرع خفقاته. لا تنتزعه من الصدر وتسلمه إلى منقار طير جارح. يلهي به أفراخه الصغار. في الزمان المرتجى أطفال صغار لا تعرف لغاتهم لفظ الخوزقة. قطع رقبة. وباء. في الوجوه صفاء اعتاد رؤيته في وجه مولاه الشيخ «أبو السعود». لن يطول انتظار هذا. يقول لنفسه خمس سنوات.

خمس سنوات لا غير. وتمضي الأيام وتنأى. يسأل ملتاعًا. ألم تمض السنون الخمس؟ ربما بعد خمس أخرى، أبدًا، أبدًا. حتى أمنيته العذبة. أن يصبح له سكن مستقل يغلق ضبة بابه. دورة مياه لا يشاركه فيها أحد. حتى هذا صعب ومحال يقول منصور صاحبه: جئنا إلى الدنيا وسنمضي عنها فنحن لسنا بمعمرين وسنترك

آخرين يأملون في قدوم الأيام السعيدة. يا سعيد لماذا نخدع أرواحنا؟ لماذا نصدم رءوسنا بالصخر. يا سعيد إنما نأتي شيئًا إمرًا. بعد خمس ثم خمس أخرى. الأصابع تنثني لا تلاحق ما يمضي. وسبع وعشرون سنة مضت. عطن الدنيا أبدي. عبث الجان بالخلق لا ينتهي. الظلم كنيران المجوس لا ينطفئ..

الطريق إلى بيت الشيخ ريحان لا يعرفه الآن. في الأيام الضائعة انغلق. ضبة المفتاح تلغ في قلبه. قال منصور: في الزمان دواء عظيم اسمه النسيان. أحيانًا تمضي أيام معدودات تخف فيها حدة الأسى. يهتف باله المكدود.

ها هو الدواء يسري لكن في لحظة بعينها. أي وقت من أوقات النهار أو الليل. ربما في جلسته الصباحية المعتادة عند حمزة بن العيد الصغير. في رشفة معينة من كوز الحلبة. في صحن الجامع عند إصغائه إلى الدرس. فجأة يحط عليه ثقل عظيم، أوردة قلبه يندفق منها دم معتم يظلم الروح. يذكر لحظة بعينها تنفر آلامه جامحة. يهب واقفًا. ما العمر إلا حلقات نحاس محمية. تكوي النفس. ما العمر إلا ذكرى طويلة أليمة. تدثره. تزمله. ترى في أي الأفلاك منقذه؟ أي العوالم الأرضية تخفيه؟ أي النجوم تخفف البلوى. أو تنبئه بها قبل مجيئها من بعد قصي. أي قمقم يغوص فيه هربًا من عصره. من دنياه لا يفتح إلا في الزمن السعيد الآتي. يفتحه صياد بسيط فيخرج منه شعاعًا. يخرج منه روحًا وصفاء. يهبه الحياة، والحب الضائع. يؤويه الصياد، تضمهما الأبدية لا يضل الطريق إلى من أحب. أما زمانه هذا فلا يقبل ما يجود به القلب الحنون. لا يجفف دمعة أم على ابنها القتيل. لا يبدد

الهجر. لا يحيي موات الأمل. لا يجفف الجراح الطرية. أبدًا. أبدًا. يقول سعيد. ستأتي الأيام السعيدة. يصيح منصور. متى؟ لماذا نصدم رءوسنا بالصخر العنيد؟ يا سعيد لا شفاعة للخلق ترجى. حتى لو أتانا الحبيب المصطفى. وحاول ملء الأرض عدلًا وسلامًا. من بعد أن ملئت ظلمًا وجورًا. يا سعيد أنا مقطوع الأمل من المهدي المنتظر. لو قام ناطق الزمان. لو ظهر. لو جاء من الكعبة يشهر سيفه الذهبي. سيتصدى له زكريا. سيحرمه دخول الديار. سيقبض عليه ويرميه في المقشرة. الحقيقة الوحيدة في الدنيا. الحقيقة الأولى والأخيرة هي المقشرة. المقشرة. وما عداها باطل. لا بل والشهاب والزيني وسنية ابنة الخبيزة. آه، يصغي سعيد كثيرًا إلى منصور. يتأمل كلماته. يلفها، يقلبها ويعدل حروفها، منذ أيام طلع إلى المئذنة الجديدة، رأى السواد يلف المدينة لا حس في العلو الشاهق، الفراغ بحر بلا قرار، خال من المحار والأصداف، رأى نفسه وحيدًا، أول الخلق في الدنيا، رأى نفسه ينتزع ضلعًا من ضلوعه، تجيء سماح، حلقه ضاق لعابه، وأنفاسه، أرسل ألمًا كالصهد، شفت روحه وخفت، تحررت من أسر الجسد، علت، جناحاها دموع صافية، نجوم الأعالي خرساء، تقول حديثًا خفيًّا غير منطوق، لا يسمعه مخلوق، آه، أليس على حق إذن لماذا لا يتجسد دعاؤه صاعقة منزلة، تزلزل الأرض زلزالها، ينكشف الزبانية الملتحفون بقفاطين ملائكية ظاهرها الخير وباطنها الأذى، سداها الشر ولحمتها الضرر، يؤمون الصلاة، يعتلون المنابر، أرسل دمعًا صادقًا، كطلوع النهار، رأى بعيني عقله سماح الرقيقة، التي تساءل يومًا: أحقًّا تمضغ وتأكل، وتأتي ما يأتيه البشر؟ رآها عارية تمامًا، يخور فوقها لوطي عاري المؤخرة، يصول

ويجول في أرض كانت حرامًا، يحرق عشبها، يجتز التين والزيتون، يحصد غلتها، يطفئ وهجها، تذكر يد سماح، يدها الصغيرة، رقيقة كهمسة، كبيت شعر أتقنت صياغته، احتواها في يومه اليتيم الناسك، عند خروجه معهم للنزهة، شم النسيم، هذه اليد الرقيقة لا بد أن تتحسس الظهر الخشن المنحني فوق النبع الغزير، أما الشيخ ريحان فلا حديث له إلا عن زيارة العظماء الأكابر، ليلة العرس همس إليه الأمير سودون، ضحك الشيخ ريحان، جاءه بعدها الزيني بركات، يسأله عما قال الأمير سودون، ضحك الشيخ ريحان ضحكة متواضعة وبسط راحته فوق صدره، «أعفني يا زيني من البوح بما قاله، لا أبوح بما استوثقني عليه» ضحك الزيني، قال: أتعرف أنها المرة الأولى التي يميل فيها الأمير سودون على إنسان ويهمس إليه بسر، طاش عقل الشيخ ريحان، طغت عليه الفرحة، ابنته زوجة لنجل أمير قديم، في عروقه تجري دماء الأمراء والعظماء والأكابر، آه، أي فائدة ترجى من اجتلاب هوام الأفكار؟ أي نفس خربة، معطبة يضمها بين ضلوعه، أهذه روح لم تعش إلا سبعة وعشرين.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

لا يبالغون في إخفاء أنفسهم، يجهرون بالظهور أمامه، يعبرون الطريق أمام دكان حمزة. كثيرون يروحون ويجيئون، لكن سماتهم الخفية لا يخطئها إنسان، ربما ظهروا فجأة، ربما في هيئة عجوز فلاح فقير يمشي الهوينى، نظرة خاطفة من عينيه، تشي بحقيقته، تقول من هو؟ ما الذي دفعه إلى المرور من هذا المكان بالذات؟ ربما امرأة شابة، ربما عجوز بلغت من العمر قصيًّا، الأطفال حتى، أطفال لا حصر لهم ولا عد يخدمون الشهاب، يفسد الابن على أبيه، لا يصدق إلا شهادة الطفل، من هو دون الخمس سنوات، وهذا أمر مستجد لم يعهده أحد من قبل، سعيد لا يمشي مع صاحبه منصور، سيقتفون أثره، يجهدون أنفسهم في النفاذ إليه، سعيد يعلم تمامًا، حركاته ترصد، أنفاسه تحصى. يتحدث كثيرًا في الرواق في المسجد ربما فسروا حديثه. أضافوا إليه ما لم يقصده. الغريب أنه سمع بعض المجاورين يسبون الأمير طشتمر جهارًا. قال: ربما من البصاصين، لكنه سمع مجاورًا شاميًّا من أهالي حلب يقسم بصحيح البخاري، أن الأمير خاير بك يراسل السلطان العثماني في الباطن. يخبره بأحوال الخلق في الشام ومصر. ينقل إليه الصغيرة والكبيرة. وارتفعت الأصابع تتخلل اللحى. في العيون حيرة. أي بلاء قادم. أي مصائب تحوم؟ ما أدهش سعيد. ليس اتصال خاير بك بالعثمانية. ربما فكر في واقعة كهذه، أمر قريب ممن لا أهل له ولا يد. لكن ما روعه، اللهجة التي قيل بها الكلام. أي الخواطر تركب عقولهم. في وقت طويل رأى نفسه حامل الثقل الفادح. لا أحد يعينه عليه. حتى منصور صاحبه. إذا سئل عن أصحابه وزملائه. قال لا فائدة منهم ترجى. أتاهم المماليك على غفلة فعملوا فيهم ما أحالهم إلى طواشية لم يعرف مثلهم على مر الأزمان.

طواشية ينجبون خصيانًا. يعمرون بطون النساء. لكنهم بلا ألسنة. معلمهم بصاص. ومربيتهم سنية ابنة الخبيزة. الآن يسمعهم يجهرون بما يتردد هو في التصريح به. ما الذي جرى؟ هل أدركته الشيخوخة. هل يمتد مشفر الموس إلى فؤاده. إلى

وجدانه. إلى لسانه. يروح بين حلقاتهم ويجيء. يصغي. الأخبار تدور. رسل السلطان يعودون من بلاد ابن عثمان، بهدلهم، انتهك حرمتهم، حلق شعر كبيرهم الأمير مغلباي وشكه في الزناجير. كاد يقتله لولا شفاعة بعض عقلاء العثمانية فيه، الحرب أمر لا جدال فيه. قصاد ملك الحبشة يطلعون القلعة. الناس يتفرجون عليهم لغرابة هيئتهم. جان بردي الغزالي. يسافر إلى نواحي الشرقية يلعب بالسيف في رقاب الفلاحين، يقتل الآلاف حتى تسد الترع بالجثث، موت رجل عجوز كان فريدًا في صنع البسبوسة، بموته اختفى صنف لا يعوض، لم يعط سره لإنسان، الزيني بركات ينوي الخطبة في الناس، هل تعرفون، ربما كان بعض الأمراء وراء طلوع أبي الخير المرافع إلى السلطان وطعنه في الزيني.

الجامع يفيض بالمصلين، عبير الوضوء والحصير القديم، يطلع الزيني المنبر، لحظة بعينها تجيء فتغير كل شيء إلى مسار مخالف، فوق المنبر الخشبي يرى خروجه مع سماح يوم شم النسيم، إدراكه نهاية فرحته، يوم كامل تحدث إليها، لم تغب شمسه، يراه الآن معطلًا من الأمل، تضج في أذنيه الكلمات يصغى إلى أصوات العرس، ليلة أن ذبح ذبحًا ولم يفتده جبريل عليه السلام، لم يبكه قلبه بل هام كالأبرص، يرى الدنيا ثقبًا ضيقًا، قدم له جرعة ماء، عندما حالوا بينه وبين الجري، سفكت دماه فوق صحراء، اجتز البوح من صدره، الزيني يتحدث من فوق المنبر، ابن سيد الناس يتجر في الفول كما يهوى، الشفاه تتسابق في تقبيل زكريا، لمس طرف عباءته،

الرجال أمام الدكاكين يهزون رءوسهم، يضيقون عيونهم، يا سلام هل رأت القاهرة رجلًا مثله، انظروا إلى ورعه، إلى تقواه، لن يأتي الزمان ببصاص كهذا، الزيني يخطب الناس، في صوته لين ومسكنة، هل سعى في زواج سماح، لماذا حضر العرس، بأي غرض؟ أين المرأة العجوز التي تطلع بين الناس، تصيح بكلمتين فقط في وجهه، منذ مدة طويلة لم يرها أحد، لم يسمع عنها مخلوق، ربما قتلها، ربما نفاها عن الدنيا، قالوا إنها تذهب إليه في المساء ويبكي بين يديها أمام باب بيته، وإنها تخبره بما جرى وما سيجري، بما سيأتي به الزمن، لكنها الوحيدة التي تصرخ فيه، سعيد سمعها بأذنيه في أول موكب، منذ سنوات عندما رقص طربًا، مال فرحًا، الناس يضجون بالدعاء، (حماك الله)، (دام زكريا.. زكريا)، فليقل سعيد ما قالته هي، كتفاه تنوءان بحمل هم عظيم، الحجارة تثقل صدره، لكنه لا يرقد في هجير مكة، لا تلسعه نيران الرمال، لا يهتف كبلال، كعمار بن ياسر، أحد، أحد، مصرٌّ لا يلين كزرد الحديد وعنف السلاسل، أحد أحد، قلها وأطلق صيحة الشهادة، (عاش زكريا دمت يا زيني)، ما الذي بقي ليحرص عليه، زمن إمامه الزيني، وشيخه زكريا، سندته البصاصون، كاتم سره عمرو بن العدوي، ليطرد كهولة ما قبل الأوان، ليسترد شباب العمر، ليرفع المشفر الحامي عن اللسان.

«كاذب»

لحظة هينة طنت في أذنيه، ذوو الأردية الزرقاء والياقات الصفراء، زرقاء، صفراء، نفذ السهم، وتجمدت اليد في الهواء، فوق المنبر.

«كاذب»

لا يخاف الهجير، لتغرقه نظرات الاستياء، السقائين، الحدادين، المرخمين، البنائين، الفحامين، النجارين، الخبازين، البصاصين، ليزحفوا إليه، هم لا يعلمون، تتدحرج حجارة الصخر والجبل، لا يهم، لو ذبحوا ابنه بين يديه. ولو، لو منعوا الماء عنه لو أخذوا الرأس وعبثوا بالشفتين.. ولو سبقه الحسين إلى احتمال شرف العذاب.

«أنت تكذب..»

أهو الصدى؟ أبدًا. ربما. عجيب. محير. أصوات أخرى حز الخوف فيها لكنها تنطق معه في حس موحد شهيد..

«أنت تكذب».

«أنت تكذب»

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

مقدِّم بصاصي القاهرَة

الآن لا يرى ما يقوم به رجاله. لكنه يعرف ما يجري. لَمْ يَرَ وَجْه سعيد ويعرفه تمامًا. لكثرة ما قرأ عنه. يعلم أمورًا تخصه لا يدري بها سعيد نفسه. يود لو أسرع الوقت حتى يراه. الوجه الذي قرأ كثيرًا عن صمته. هنا سيعرف كل اختلاجة طافت به. ما الذي يجعل وجهه صامتًا دائمًا. لا يتحدث كثيرًا. هوايته القديمة رؤية اللحظات الأولى في وجه إنسان أحيط عمره بقيود. عند الباب الخارجي سيقدم إليه نصف كوب ماء. يشربه معصوب العينين.

أي تأثير يحدثه هذا؟ يقول الشهاب الأعظم: «يجب أن تكون الخطوة التي يعبر فيها الإنسان عتبة أبوابنا حدًّا فاصلًا بين عهدين. عندها ينقسم العمر الواحد قسمين. بحيث يخرج الإنسان من هنا يحمل نفس الاسم لكنه في حقيقة الأمر شخص آخر»

كوم الجَارح:

جذع دومة قديم عتيد يحاط بسياج من حديد، مدينة وثنية ترجم ناسكًا، بغداد الإسلام تلتف حول منصة عالية فوقها المنصور، الحسين بن منصور الحلاج، الرجال والنساء يرمونه بالأوحال، اللسان الشهيد لا يكف، أنا الحق، أنا الحق. تعلو اليد الغليظة، ساعدها مغطى بالجلد المرصع بفصوص الحديد. يهوي السوط فوق الجسد النحيل، أدرك صاحبه الأحوال والفروع، كلت يد الجلاد من الضرب، قطع ذراعي الحسين ورجليه، الابتسامة فوق شفتي العابد الزاهد، توحي بالظاهر والباطن، وجهه ملطخ بدم ذراعيه المتدفق لا يتوقف، لا يكف إنما يندفق من سخاء مبين، مال المشفر الحامي ليجتز اللسان، في الليل انتثر رماد البدن المحروق فوق دجلة، أما الرأس فنفي إلى خراسان، تجمعت بغداد، أغرقت الحسين بن منصور ما الزمان هنا إلا امتداد هذه الأيام الثقيلة النائية، ظل لزج لا يروح أبدًا، الخير مسكوب والشر باغ والعهر طاغ، إلى أي الأرجاء يأوي، إلى أي السبل يلجأ؟ حيرة غير متوقعة، غير مرجوة في نهاية المطاف، سعيد أرجف قاع روحه، أضاعوه، أصوات المدينة

تتباعد، ما أحوجه إلى غيبة، إلى إحاطة الروح بجدران الصمت إلى استرجاع الأيام البعيدة، ليدرك سر الابتسامة الجماد بينما اليدان مذبوحتان والرجلان، يحاول لم الرماد، يسأل الروح، أي سر، انصرف منصور تطارده أشباح الزمن الخائن. منصور يرتعش، يرتجف، ربما جاء ليلتمس الأمان، لكن أي أمان، في قفاه عينان لا يراهما مخلوق، تكبلان رؤيته، تحددان طريقه، منصور نقل ما يقوله الناس «مولانا اختار الزيني وثبت أركانه، فأي شفيع له يرتجى؟!»، آه لو يطلق صيحة الخلاص ويمضي، لكن إلى أين؟ حتمًا سيلقى المسيح الدجال، إلى أين؟ إلى السرداب الذي حفره بأظافره، أهذه نهاية المطاف؟ آه.. سقط في كمين متقن، أعده باغ بعناية.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

مقتطف من مُذكرات الرحالة الإيطالي

فياسكونتي جانتي 1517م - 922هـ

فيما يبدو، قدر لي أن أشاهد خلال هذه الرحلة - الثالثة - إلى الديار المصرية، أحداثًا كبيرة، بعد وصولي من بلاد السودان بأيام ثلاثة، نزلت المدينة، عرفت خروج السلطان إلى الشام لمحاربة سلطان الديار العثمانية، سمعت المؤذنين يدعون لسلطان البلاد بالنصر، وقيل لي: إن القاهرة ارتجت رجًّا مهولًا يوم السبت، وتحسرت فعلًا لوصولي بعد خروج موكب السلطان على رأس جيشه قاصدًا الشام، وحتى لا يفوت أهل بلادي وصف الموكب، وللأمانة فإنني أنقل عن صديقي الشيخ محمد أحمد بن إياس. وهو من أهل العلم المعروفين في القاهرة وصاحب تاريخ طويل عن الديار المصرية، أتمنى لو أتيحت لي فسحة وقت أعرف به أهل وطني، وحضر ابن إياس - برغم كبر سنه - خروج السلطان ودوَّن ما رآه، وسمح لي بنقل ما كتب، يقول صاحبي ابن إياس:

(...أقبل السلطان الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري، وكان الخليفة قدامه بنحو عشرين خطوة، وكان السلطان راكبًا على فرس أشقر عال، بسرج ذهب وكنبوش وهو لابس عباءة بعلبكية بيضاء مطرزة بالذهب على حرير أسود عريض قيل: فيه خمسمائة مثقال ذهب بنادقة، وكان ذلك اليوم غاية في الأبهة والعظمة، فإنه كان حسن الهيئة، تملأ منه العيون، مبجلًا في المواكب، ثم أقبل السنجق السلطاني، وخلفه مقدم المماليك سنبل العثمانلي وصحبته السلحدارية بالشاش والقماش، فدخل من باب زويلة، وشق القاهرة في ذلك الموكب الحافل، فارتجت له القاهرة في ذلك اليوم، وارتفعت له الأصوات بالدعاء من العوام الذين خرجوا كلهم، ولم يبق منهم إنسان في بيته، وبدت وجوههم مرعوشة تأثرًا وانفعالًا، وانطلقت له النساء بالزغاريد من الطيقان، فاستمر في ذلك الركب حتى خرج من باب النصر، وكان يومًا مشهودًا.

وفي أعقاب ذلك نزل حوايج خاناه، فيها مال وذهب وفضة، قيل إنه ضمنها من الذهب ألف ألف دينار خارجًا عن المعادن وقد فرَّغ الخزائن من الأموال التي جمعها من أوائل سلطنته إلى أن خرج في هذه التجريدة، وفرَّغ أيضًا حواصل الذخيرة عن آخرها، وأخذ ما فيها من التحف والهدايا وآلات السلاح الفاخرة مما

كان بها من ذخائر الملوك السالفة، من سرج ذهب وبللور وعقيق، وكنابيش زركش، وغير ذلك من التحف الملوكية. فنزل جماعة من كتاب الخزانة صحبة الحوايج خاناه وجماعة من الخزندارية وهم بالشاش والقماش، فكانت تلك الحوايج محملة على خمسين جملًا، قيل: إن جميع هذه الأموال أودعها الغوري بقلعة حلب، وفي يوم الأحد سادس عشر أرسل السلطان مناديًا للعسكر في القاهرة بأن السلطان يرحل من الريدانية يوم الجمعة عشرين ربيع الآخر (طبقًا للتقويم الإسلامي)، فلا يتأخر أحد من العسكر الذين عينوا للسفر، ولا يحتج أحد بحجة أو عذر، فلما أقام السلطان في الوطاق، وعين السلطان بعض القضاة والأعيان ليتولوا المناصب وأحوال الناس خلال سفره، فاستقر بالقاضي محمود بن أجا في كتابة السر، والقاضي علاء الدين بن الإمام في نظارة الخاص، والقاضي شهاب الدين أحمد بن الجيعان مستوفيًا لديوان الإنشاء الشريف، والقاضي الزيني بركات بن موسى ناظرًا كعادته للحسبة الشريفة، ووليًا للقاهرة ومتحدثًا عن جميع أنحاء مصر، وأضيفت إلى مناصبه الجليلة استدارية الذخيرة.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

# السرادق الخامس

(رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا)

سري لا يطلع عليه مخلوق

«رسالة أعدت بمناسبة اجتماع كبار البصاصين في أنحاء الأرض وأركان الدنيا الأربعة في القاهرة أم الدنيا، وبستان الكون، لتدارس الأحوال، والنظر في الأساليب المتبعة، وما يستجد منها، ولتبادل المعرفة والفوائد أعد في ديوان بصاص السلطنة المملوكية، وتلاه الشهاب الأعظم زكريا بن راضي عفا الله عنه، وعرفه طرقه، ومسالكه»

القاهرة

جمادى الأول 922هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَاد).

قال تعالى: (وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ).

قال تعالى: (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ).

صدق الله العظيم

وقال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت».

وقال عمرو بن العاص: «الكلام كالدواء، إن أكثرت منه فعل، وإن أقللت منه نفع».

«أما بعد:»

فلم يحدث أن اجتمع كبارنا في أركان الدنيا أبدًا، وهذا حدث جلل وعظيم، إذا كشفت عنه الأزمان المقبلة فحتمًا ستلقى فيه من الدروس والعبر ما يعرفون منه أننا حملنا عبئًا ثقيلًا وحملًا فادحًا. وأننا عانينا، وقاسينا، وضحينا بالكثير من أجل إرضاء الله تعالى، جل شأنه، وما نهدف من وراء لقائنا هذا، إلا استحداث طرق جديدة، وسبل غير معروفة، تعيننا على مهامنا الصعبة، وهذا يساعدنا في الوصول إلى لب الحقيقة، وسوف يسهل الأمر لمن يجيء بعدنا..

والله المعين..

«نشاء بحكم عملنا، وما يتعلق به، أن يحيطنا وضع غريب، وهذا يتطلب من البصاص الكبير المهيمن على أمور الدولة بأكملها، حتى البصاص الصغير الذي يتعقب رجلًا أو امرأة، أو ينقل كل ما قيل في مجلس، أن يكون صاحب فطنة وذكاء، عليه إيجاد أساليب لا تمكنه من العيش بين الناس آمنًا، إنما لا بد من عيشه محبوبًا، ربما بدا هذا صعبًا، كيف يتأتى لرجل قدر عليه بحكم مهنته أن ينفذ إلى حياة الناس

وخباياهم - وهذا مكروه – أن يكون محبوبًا؟ كيف يقصده الخلق ليحل لهم أمورهم؟ لكن لنلحظ أولًا أمرًا مهمًّا.

مهمة البصاص - بلا لف أو دوران - إقامة العدل بين الناس، ولكن بأسلوب لا يتقبله الناس، وحيث إن كل أمر في الدنيا لا يتفق عليه اثنان، مثلًا، هذه القاعة التي نجلس فيها البعيدة عن أصوات الدنيا وضجيج أهلها، لا نراها جميعًا في هيئة واحدة، مثلًا كبير بصاصي الهند الأعظم يراني واقفًا هنا، وكبير بصاصي اليمن يراني من الجانب الأيسر، أما كبير بصاصي السودان المبجل فيراني من مكان آخر بصورة مغايرة، حتى التراجمة يرونني بهيئات مختلفة وينقلون إلى حضراتكم حديثي ليس بنفس الألفاظ، إنما المعنى، ومن هنا تصبح لي أكثر من صورة، والحقيقة أن وضعي واحد لم يتغير، وحديثي يتغير على ألسنة التراجمة لكن معناه كما هو، وهكذا.. ما نراه نحن عدلًا يراه الآخرون ظلمًا وجرمًا..

البصاص لا يعمل من أجل نفسه قط، الغرض الأول والأخير، إرضاء الله سبحانه وتعالى، ثم يأتي السلطان بعد هذا، ثم أركان الدولة، وما دام البصاص مؤمنًا بالله، بربه، مسلمًا كان أو مسيحيًّا، أو بوذيًّا، ويؤمن بمولاه، فإنه يعمل جهده كله على تثبيت قواعدها، ورفع الأذى عنها..

ما من عاقل يزعم وجود إنسان محبوب من كافة قومه، لم يخلق هذا قط، ألم يكن خاتم المرسلين وسيد البشر مضطهدًا من قومه، ألم يرمه اليهود بالحجارة من فوق أسوار الطائف فألهب باطن قدميه، وسال دمه، ألم يتآمروا على قتله؟ ألم يحاربوه وتأكل واحدة منهم كبد عمه حمزة نيئًا، ومن قبل ألم يثقلوا رأس المسيح عليه السلام بالشوك، ودقوا المسامير في جسده وصلبوه، أما سيدنا يوسف فإخوته هم الذين ألقوه في البئر وحزوا نفس أبيه يعقوب، حتى البوذا الأعظم امتلأت حياته بآلام ومواجع، وهذا حال الأولياء الصالحين، والشهداء والقديسين، وخلاصة هذه العبر أنه ما من إنسان يجتمع الخاصة على حبه، بما فيهم من خوارق واختلافات، وبالتالي؛ فإن حاكم أي بلدة من بلدان الله لا بد أن يصبح مكروهًا من جانب آخر، والحاكم الأمثل من نجح في ترغيب الأغلبية فيه، وتقليل أعدائه، إذن، لا بد من وجود أعداء يتربصون ويكيدون، ويتحينون الفرصة للانقضاض، وهؤلاء إما من الخارج، أي مخالفين للجنس، أو الملة، وفي هذه الحالة لا بد من الالتفاف حول الحاكم. ومهنة البصاص هنا مقدسة، ولا يختلف في هذا اثنان، وإما أعداء في الداخل وهؤلاء يوجدون بين الأمراء والصفوة. وبين عامة الناس.

«الدرس العظيم المستفاد من التواريخ، أنه في حالة اندلاع الفتنة لا بد من حياد البصاص. البصاص يعمل للعدل وحده، ورمز العدل هو كرسي السلطنة، كرسي السلطنة ذاته.»

«إذا تآمر بعض الصفوة، أو جماعات من العامة على الكرسي، فلا بد من إبلاغ الأمر إلى صاحب الكرسي، هذا واجب، لكن لنفترض وصول بعض الصفوة المتآمرة أو العامة (الغرض الأخير نادر الحدوث) قد وصلوا إلى تقاليد التملك والسيطرة، ما موقف البصاص هنا؟؟

نقول ما دام البعض انتزع المقاليد من صاحب الكرسي الأصلي، وتمكن من اعتلائه فليس هذا إلا دلالة على ضعف الأول، كيف يمكنه إقرار العدل إذا كان لا يمكنه حماية روحه.

«ربما أثار سؤالًا، هل يبقي الجديد على القديم؟ هنا يمكن للحفاظ على المكانة وضع شروط معينة، يتوقف تنفيذها على مهارة البصاص وقدرته، مهارته في النفاذ إلى جوهر المكنون وخبايا كل إنسان، وما دام الإنسان يشعر بوجود عين ترى منه ما تراه بقية العيون، وأذن تسمع منه ما لم تسمعه بقية الآذان، فإنه يخشى هذا الجانب، ويضع له ألف حساب، لقد ذكر لنا كبير بصاصي دولة المغرب المعظم أنه حدث منذ مائتي عام أن تعصب كبير البصاصين وقتئذ للحاكم الموجود، بالغ في إخلاصه له مبالغة تزيد عن الحد حتى اكتسب عداء الأمراء والعلماء كلهم، وعندما نجح أحدهم في إزاحة الحاكم، وتولى مكانه لم يأخذ كبير البصاصين جانب الحياد، إنما جهر بالعداء للأمراء حتى بعد تيقنه من قتل الحاكم، وهذا عين الغباء، تسبب في إيذاء جمع كبير حوله، التصرف الأمثل هنا الصمت ومراقبة العامة، حتى لا يحشروا أرواحهم فيما يدور من صراع، فينحازوا إلى جانب هذا أو ذاك، نضع لهم آلاف الاعتبارات، وسيتحدث كل منا عنهم في جلسة أخرى، وعندما تستقر الأمور يبدأ ممارسة عمله، وإقامة ميزان العدالة، وربما عدنا من هذه النقطة إلى نقطة أخرى ابتدأنا فيها، كيف يكون البصاص محبوبًا من الناس برغم كراهية الخلق لمهامه، لعمله.

كيف يكون البصاص محبوبًا من الناس؟

من خصائص البصاص الأعظم، البصاص الصفوة، قدرته الفائقة على اكتساب قدرات الخلق كلهم، طبيعة البصاص تقضي عليه التدخل والتعامل مع جميع الناس، مع عدد كبير من الأجناس، آلاف البشر المختلفين في طبائعهم ونزعاتهم، لا يوجد شبيه للآخر، والبصاص الحق، البصاص المكين، هو من استطاع جمع خصال البشر أجمعين، وهذا صعب، ربما يبدو محالًا، لكنه سهل علينا يسير، يجب على البصاص أن يكون فحامًا عندما يتحدث إلى الفحامين، عطارًا نابغًا في العطارة عند حديثه إلى العطارين، ساخطًا عند استماعه إلى الساخطين، حشاشًا عندما يأتنس بالحشاشين، خاطئًا عندما يسلك طريق الخاطئين، مستغفرًا تائبًا عندما يسجد بين التائبين. راضيًا مع الراضين. يجب عليه أن ينتقل بين إظهار الكراهية والإعراب عن الحب في غمضة عين، ولا بد أن يقنع في كلا الحالين. لا بد أن يتقن لهجة الأغنياء، متواضعًا يخالط الفقراء، سفيهًا محببًا إلى السفهاء، حتى إذا جالس النساء عرف طريقه إلى قلوبهن وعقولهن الناقصة. هذا ما نراه في البصاص المكين. ومن أهم ما نقيس به مهارة بصاص هو اتساع علومه ومعارفه عن الأشخاص، كلما تبحر البصاص في العلم كلما جمع الأصول، وأتقن الفنون، كان أكثر قدرة على النفاذ إلى أحوال الدنيا وأسرارها، طبعًا هذا يستحيل على كل بصاص. من هنا قلنا بعدم ضرورة إلمام البصاص بالعلوم كالمتبحر فيها، إنما عليه الإلمام بفكرة عامة ليست سطحية عن كل تاريخ وعلم وفن، فكرة خاصة الطابع، جليلة المظهر، من أجل هذا قمت بإعداد مناهج خاصة في سائر العلوم التي فكر فيها الإنسان، ندرسها

في مدارسنا، لكي يستوعبها رجالي فتنمو قدراتهم، ولا تعجبوا يا إخواني البصاصين العظماء، يا من تملكون سر الكون إذا أخبرتكم عن بصاص شاب من رجالي يمكنه مجادلة أمتن العلماء في أشد ما يمسهم من اختصاصات بدون فكرة سابقة عما يناقشه، وطريقته تعتمد على الذكاء الحاد الوقاد، وأخذه لبعض الكلمات والأفكار من المتحدث، ثم تحويرها بشكل خاص والنطق بها على أنها أفكاره هو، ولو شئتم أحضره إليكم وأتركه لمناقشتكم. ومن أغراضي التي أنوي إنجازها قبل رحيلي عن الدنيا الوصول بكل بصاص عندي إلى مستوى يفوق هذا الشاب.

«إلى جانب ما ذكرناه نطبق طريقة أخرى في النفاذ إلى خبايا الدنيا للوصول إلى جوهر الحقيقة، الاطلاع على الأسرار الأولية، خصصت لكل طبقة وجماعة أفرادًا بصاصين، يتشربون عاداتهم وتقاليدهم وسائر ما يخصهم، وكلامي هذا منصب على البصاص الأصلي، إنما هناك جانب آخر، هو البصاص (المستصنع) وأقصد به البصاص المنضم إلينا من نفس البيئة، بمعنى إذا أردت جمع معلومات معينة عن النحاسين قمت بضم واحد منهم إلي، بدلًا من اللف والدوران، وإرسال شخص غريب لا بد من وقت حتى يصبح واحدًا منهم، المهم مراعاة السرية التامة بالنسبة للبصاص المستصنع وتمرينه تمرينًا متقنًا، بحيث تطوع قدراته لعملنا، وبالنسبة للمستصنعين يجب اختيارهم من بين أكثر الناس أمانة وثقة واستقامة، إذا نجح البصاص الأعظم في ضم مثل هذا فإنه نجاح عظيم، أخبرنا كبير بصاصي بلاد الصين العظيمة أنه نجح في ضم أكابر العلماء إلى صفه، والأعيان، والكهنة خدمة البوذا الأعظم يعملون معه، يسعون إلى ركابه، وطبيعي أن نلقى من أمثال هؤلاء مقاومة ورفضًا لظنهم ضعة مهامنا وعدم اتساقها مع الشرف والأمانة، لكنني أقول واثقًا: إنه ما من إنسان في الدنيا يستعصي على البصاص المكين. لنمسك ظروف كل إنسان وحياته. وننفذ من خلالها إلى ما يمكننا من تطويع وتليين جامد فكره. بشرط أن يتم هذا كله بهدوء ودون قسوة. وعندي الآن مثال حي؛ إنسان في أوهج فترات العمر. نعد له من سنوات.

وسوف أقوم يومًا بكتابة رسالة مفصلة للعملية التي نجريها عليه. عندما أصل إلى غايتي التي وضعتها منذ البداية. بل أوقن أنه سيشارك في كتابة جزء من الرسالة. يكشف ما جرى له، وما حدث بعد أن كان لا يطيق سماع اسمي. ولا هم له إلا تهييج العامة على أولي الأمر. وهنا لا بد من تحية وسلام أوجههما إلى زميلنا الأعظم بصاص مملكة الفرنج الغربية على نجاحه العظيم في ضم أطفال المملكة إلى صفوفه. لقد زرع روح البص في عقولهم وأطفالهم منذ تعلمهم نطق الكلمات - فلا يسمع الطفل كلمة من أبيه أو أمه إلا ونقلها. وأصدق الخلق هم الأطفال. وشهادتهم لا تكذب أبدًا. وهكذا لو نجح كل واحد منا كما نجح زميلنا الأعظم لتوصلنا إلى تحويل البشر أجمعين بعد سنين إلى بصاصين. وهذا أمر جليل يتطابق مع كل ملة ودين، ولزميلنا الأعظم الحق في الاحتفاظ بأسرار طريقته التي حولت الأطفال إلى بصاصين، فهذا لم يتوصل إليه في غمضة عين، ولكن بعد جهد سنين وسنين. لكننا نرجو الاستفادة منه واسمحوا لي أن أبدي إعجابي الفائق به وبأحواله. لنجعل غايتنا

وهادينا في دنيانا وهدفنا تحويل البشر أجمعين إلى بصاصين. إن ما نبغي الوصول إليه سر الحقيقة، برهان الحق، وهذا شاق وفظيع. فما أكثر الطرق إليه.

كيف نصل إلى معرفة الحقيقة الأولية؟

ما أتلوه الآن تسمعونه حضراتكم. وعند خروجكم من القاعة إذا اختلى واحد منكم بصاحبه. واستعاد ما قلته. هل سيقوله بنفس اللهجة؟ نفس الألفاظ التي قلتها أنا؟ بالقطع لا. محال. وعندما نذكر مجلسًا أو صحبة أو رحلة فلا يمكننا استرجاع ما مررنا به تمامًا. إنما نحكيه في عبارات لا تقرِّب ما حدث. لا نقوله كما جرى بالضبط، وعندما أتسلم شخصًا متهمًا بتهييج العامة. فزماننا لا نسأل فيه عن مصير إنسان، لا يحاسبنا أحد، لا يطالبنا بدية، لكنني لست جلادًا، أو غشومًا، أنا أحاول الوصول إلى الحقيقة، وعندما تكتشف، ستفصح عن أمور أخرى أعم وأدق، ربما تندثر لو أزهقنا روح قائلها منذ البداية، ومعرفة ما جرى أمر صعب، الزمن الماضي ليس موجودًا في مكان وزمان معين يمكنني الذهاب إليه فأستعيد ما جرى، الأمس أو السنة الماضية لا نلقاها في صورة موجودات، إنما نلقاها هنا، في أذهاننا، فيما يصيبنا من تحولات وتغيرات، ولكي أصل فعلًا إلى الحقيقة الأولية لا بد أن يلفظها الإنسان نفسه، تلفظ بالقلب والعقل بالإقناع والصدق، وتؤكدها الأدلة والقرائن. ولكي يلفظ الإنسان الحقيقة يحق له استخدام ما أراه مناسبًا من كافة ألوان الأساليب التي تؤدي بنطق الإنسان بالحقيقة، من هنا فكل

ما يقوم به رجالنا من مهام وما يطبقونه من وسائل في سبيل كشف الحقيقة أحلته الشرائع كلها، وأذكر هنا بالاحترام رسالة كبير بصاصي مملكة البرتغال الإفرنجية، المتضمنة لوسائل جديدة لإنطاق الإنسان بالحقيقة، والحق أن جميعها أمور مستحدثة في مجالنا، أضافت إلينا أبعادًا طالما تمنيناها، وطال اشتياقنا إليها، وهنا، اسمحوا لي ذكر ما نتبعه هنا من تطويع الظروف نفسها لخدمة رسالتنا.

كيفية تطويع الظروف:

نبدأ بمتابعة الإنسان في حياته، وليس في سجوننا، وننفذ إليه من ثغرات ضعفه، نفسح هذه الثغرات، نقوض الأسس والأبنية، وكما ذكرت، سهل جدًّا قتل ألف إنسان، لكن ليس مهمًّا، ما يهمني تغيير ما في المخ والقلب، وهذا صعب، وللصعاب دائمًا نتصدى، إذا ثبت لنا شذوذ شخص عن الخلق، إذا ثبت أنه يهيج الناس، يفتح عيونهم على الكبراء، فبدلًا من الترسيم عليه، ورميه في المقشرة، والمقشرة يا سادتي العظام من أبشع سجون الدنيا، وأنا شخصيًّا أتفاخر به، وأدعوكم إلى زيارة وجولة تطلعون فيها على ما أعددناه للمساجين به، ولن نخفي عنكم أمرًا، نعود إلى حديثنا فأقول: نبدأ بدراسة حياة الشخص، أرقب ظروفه، ثم أصب مائي على نار الهياج فأخفف لسعتها، وفي لحظة بعينها أنفخها فأجتز حرارتها من قلب الرماد، أمد سكين الزمن إلى عقله فأنزع منه ما يجعله شاذًّا عن بقية الخلق، حتى لا ألقاهم جميعًا منطوين يومًا تحت كلماته، يرجمون أميرًا، أو يحرقون قصرًا، أو ينهبون سوقًا، أو يهاجمون موكب السلطان، وكما قلت ما من إنسان في الدنيا يستعصي أمره على التغيير والتبديل، يا أصحاب العظمة، يا كاشفي الحقيقة، هذا ما نعيه هنا،

ونؤصله عندنا، ما من مخلوق يظل على حاله، ما من زهرة تبقى متفتحة، ما من شجرة تظل سامقة، ما من امرأة تدوم شابة إلى الأبد، ما من طائر يعلو بلا حد، ما من نشوة تحيا أبدًا، الشمس تشرق لتغيب، النهار يطلع ليشيخ، ثم يعتصره الليل، والقمر لا يبقى في العيون مكتملًا، النهر يبدأ لينتهي، والغيث بعد حين ينقطع، والمسافة مهما طالت تقصر وتنتهي، سادتي ممسكي سر العالم، ما من إنسان قط يبقى كما هو، والزمن وحده ليس سببًا، نحن ندعمه، إذا وجدنا في نفس المرء ثغرة خوف برغم اشتهاره بالشجاعة، أحوم من بعيد كطائر محلق على ارتفاع شاهق، كطائر الحدأة عندنا، لأنقض غارزًا منقاري ومخالبي، إنما أدور، أدور، أنزل إلى ارتفاع معين، ثم أطير مرة أخرى حتى أختفي، وأعاود النزول سهمًا خاطفًا، وشهابًا ثاقبًا، كلمح البرق، كصاعقة أنقض، كخاطرة عابرة، هنا تنتهي مرحلة، وتبدأ أخرى، يا سادتي العظام، ما من إنسان في الدنيا إلا وفي ميدان نفسه حفر وجراح، ثغرات وقلاع ضعيفة يقع على عاتقي واجب النفاذ منها، مرة أنفذ على مهل، مستحييًا متسللًا لا يسمع لي صوت ولا أنفاس ولا فحيح، فجأة أبرز منجنيقي، أنصب مواقعي. أبث رماحي السامة، أشهر سيوفي، ثم أهجم مرة واحدة، أحرق، أهدم، أحيل البناء أنقاضًا والعمار خرابًا، والأمان يأسًا، والآمال فشلًا مذبوحًا، والميناء الصالح لرسو السفن أجعله غير صحيح لإيواء ورقة شجر، إذا كان في صرح الشجاعة نقطة خوف أحولها إلى بركة ثم محيط، لو في قرارة القلب حب مخلوقة ما، أحيله إلى كراهية لا تحد، أجعله بغضًا، لو وجد بين الحبيب ومبتغاه عقبات يأمل هدمها أجعل منها مستحيلًا لا يمكن تخطيه. أقيم الحدود والحواجز. أحفر الخنادق، وأبث كمائني؛ فأصيب النفس بجراح تبقى طرية حتى بعد الممات. أبث في الروح عكارة لا تروق أبدًا، إذا سخط الإنسان لفقره بذرت له آمال الغني والجاه، أذيقه نتفًا من حياة الرخاء يتعود عليها، حينئذ أحيله مسخًا في عيون الخلق، لا يقدر على العودة إلى قومه، ولا يمكنه حتى التطلع إلى الأمام، وهكذا بدلًا من بتره حيًّا أحوله وهو يمشي على نفس قدميه ويحرك ذراعيه ويتحدث بلسانه، يناديه الناس باسمه لكنه في الحقيقة شخص آخر وإنسان ثان لا علاقة له بالوليد الذي انزلق يومًا من رحم الأم أو الفتى اليافع الذي اختال وَزَهَا بين أقرانه، حتى رجولته أقلبها أنوثة؛ أضيع معالم الشارب واللحية، لا أحلقهما، لا أثقب أذنيه وأعلق فيه الأقراط، لا أبتر عضوه، كل ما فيه يبقى على حاله، لكنه لا يبقى هنا سيفكر لكن كما أريد أنا، يثير الناس أيضًا، لكن كما أهدف أنا وليس كما يحب ويشتهي، هذا ما أتمه في الحياة نفسها، وإذا انتقلنا إلى الفترة التي يمكن للإنسان قضاؤها في السجن هنا أسمح لنفسي مخالفة زميلي كبير بصاصي البرتغال الأعظم في بعض ما ذكره في رسالته، كان تركيزه كله على ألوان العذاب البدني، أبدًا عندنا الآن النموذج الذي أشرت إليه، ما الذي نفعله معه؟ على سبيل المثال نفتح الباب عليه فجأة في آخر الليل، يضحك رجلنا في وجهه ضحكة معينة، ضحكة مدروسة، يسأله بلهجة كاللحم البارد الذي تجلط عليه السمن (( هل تريد خدمة))؟ نقدم له كل يوم في ميعاد معين ربع كوب ماء.. ماء عادي جدًّا لكن وقعه عليه أفظع من كي الأصابع، دبرنا موقعًا بحيث أجبرناه على رؤية حبيبته السابقة التي هام فيها وجدًا وهيامًا وأنشأ فيها القصائد رآها عارية تمامًا. يخور فوقها زوجها. زوجها وليس إنسان آخر، وكانت

تأتي من الحركات ما جعل شعر رأسه يشيب فعلًا لحظة الضرب أو التعذيب نفسها لا تؤلم يا ممسكي سر الكون. إنما ما يؤلم انتظار الإنسان لهذه اللحظة بعينها، عند تعذيب شخص، ما الذي ينتظره أكثر من هذا؟ لكن المهم أن يعيش في انتظار دائم لهذه اللحظة، اللحظة المقبلة سيحدث، ترى لماذا لم يحدث، ما مغزى كوب الماء؟ هل تغير طعمه؟ طعمه فعلًا متغير، ربما وضعوا فيه سائلًا أو عقارًا ينسيني زماني ومكاني أرادوا إفقادي رجولتي؟ ربما يقتلونني ببطء. سادتي العظام، لقد أجرينا تجربة منذ فترة وجيزة تقدر بأيام على إنسان عصبنا عينيه لامسنا رقبته بحز الموسى حزًّا خفيفًا بحيث لم تحدث به إلا جرحًا طفيفًا جدًّا لكننا أمسكنا بأنبوبة رفيعة تتصل بقربة صغيرة بها ماء دافئ صارت القطرات تنزل منسالة ونقول له: قل أين أموالك ونوقف الدم، توهم فعلًا أن رقبته تنزف دمًا غزيرًا، قال لنا كل ما نريده، بل أكثر، دلنا على أمير صاحبه اشتهر بظلمه ونهبه للأموال، صار يزعق: أوقفوا الدم، أوقفوا الدم، ونحن نحدث أصواتًا نوهمه أننا نحاول فعلًا إيقاف الدم، لقد مات الرجل بعد لحظات مع أنه لم ينزف دمًا، لكنه توهم الماء الدافئ دمًا، وأن شرايينه جفت وخلت ومات. إنني أعصب عيني السجين يمشي دائمًا متوقعًا ضربة مفاجأة تأتيه لكن متى؟ أين؟ هذا ما يتساءل دائمًا عنه، وفي ليلة معينة أدخل إلى زنزانته الضيقة النظيفة. (هذا نظام جديد للسجون ونضعه في سرية تامة) أدخل إليه أحد رجالي على أنه سجين. ولا تمضي ساعات إلا ويدب الشجار بينهما يتشاجران على أتفه الأمور، هذا ما أجريته على الشاب الذي حدثتكم عنه، أمرت رجلي بالالتصاق به أثناء نومه، قام مفزوعًا ظنًّا منه بنية أضمرها الرجل ليزنقه ثم يناله غصبًا، وهكذا أحيل الحياة إلى جهنم أبطنها بشوك، فيصبح الموت أملًا مرتجى ومتعة بعيدة المنال.

رجـــــاء

أثارنا المطلب الطريف الذي قدمه كبير بصاصي دولة كاجورا الفتية الخاص بما يوده لمهامنا في الأزمان المقبلة، وأرجو السماح لي بإضافات بسيطة إلى أفكاره كما أعددت ملاحق خاصة جدًّا حول عدة مشاكل نواجهها سأقوم بتوزيعها عليكم كل منها مترجم إلى لغات حضراتكم، وأقول متيمنًا لا يوجد أمر على الله ببعيد، ما نراه مستحيلًا اليوم يدخل باب الممكن غدًا. وغدًا بالنسبة لنا دون حد، إنني أرى يومًا يجيء فيمكن للبصاص الأعظم أن يرصد حياة كل إنسان منذ لحظة ميلاده حتى مماته، ليس الظاهر فحسب إنما ما يبطنه من خواطر، ما يراه من أحلام، بهذا نرصد كل شيء منذ مولده، نعرف أهواءه ومشاربه بحيث نتنبأ بما سيفعله في العام العشرين من عمره مثلًا، فنستطيع منعه أو دعمه قبلها، وإذا ما سئل إنسان عن الحقيقة الأولية فأنكرها يمكن للبصاص استعادة الموقف كاملًا من الزمن فيواجه به من أنكر، أرى يومًا يجيء فيمكن للبصاص معرفة الهمسات، الآهات، تأوهات الجماع بين الرجل وامرأته. إذا ما جرى حديث بين رجلين فوق قارب يجري في النيل أدركه هنا، ويمكنني التدخل في الحديث عند الوقت المناسب وتوجيهه، أرى يومًا تنزع فيه الأعضاء من جسم الإنسان لتسأل عما فعلته، فلا يمكنها الإنكار، أرى يومًا تطلق فيه على الناس أرقام معينة، فيحدد البصاص لأهل كل حارة أرقامًا، هذا

رقم (1) هذا رقم (2) بحيث لا يحمل شخصان رقمين متشابهين، وهذا أمر ناقشته بتوسع وإفاضة في أحد ملاحقي التي ستوزع عليكم، وهذا يساعدنا في حصر الخلق بدلًا من تعدد أسمائهم وتشابهها.

(وبعد)

فما ذكرته أخيرًا أخيلة تراودنا، لكن عندما يصير الأمر حقيقة، فسوف يقول بصاصو الأزمان المقبلة انظروا، كان أسلافنا أبعد نظرًا وأشد عزمًا.

«وعليكم سلام الله وأمانه.»

«كبير بصاصي الديار المصرية»

زكريا بن راضي

ذيـــــل (1)

مطلب في كيفية إعداد طعام المساجين، وطرق نومهم وأفضل اللحظات اللازمة لإقلاق راحتهم.

لا يطلع عليه إلا كبير البصاصين بعينه

قام بالترجمة ديوان الترجمة

بالمقر الرئيس لبصاصي القاهرة

922هـ - 1517م

ذيـــــل (2)

مطلب في الوسائل المقترحة لترقيم الناس، بدلًا من الأسماء، ونص فتاوى شرعية تبيح هذا في سائر الأديان.

لا يطلع عليه إلا كبير البصاصين

قام بالترجمة ديوان الترجمة

بالمقر الرئيس لبصاصي القاهرة

922 هـ - 1517م

ذيـــــل (3)

مطلب في كيفية الرقابة على الرقابة؛ أي

كيف يرصد بصاص بصاصًا آخر.

حظر، وأبيح لكبار البصاصين دون غيرهم

قام بالترجمة ديوان الترجمة

بمقر محتسب الديار المصرية

922هـ

ذيـــــل (4)

مطلب في كيفية إقناع الناس بوجود ما هو

غير موجود

حظر، وأبيح لكبار البصاصين دون غيرهم

رجاء تسليم هذا الذيل بعد دراسته وقراءته

قام بالترجمة ديوان الترجمة

بمقر محتسب الديار المصرية

922هـ

كوم الجَارح:

الوقت ذاته من كل عام، البيت يفتح للمريدين، طلاب الحق الجوابين الساعين حبًّا في أهل البيت، بعضهم التقى فعلًا بالنبي إلياس عليه السلام، لم يفن ولم يمت، النبي إلياس شرب من نبع الحياة فما عاد الموت يقربه، عاش الشيخ «أبو السعود» على أمل اللقاء به، التزود من حكمته، الاستماع إلى قصص أجيال اندثرت. الشيخ الكرماني حكى له ما لا يتطرق إليه الشك، عندما اجتاز في أول الشباب بلاد فارس، حيث عبد القوم يومًا النور والظلام، والتهبت نيران المجوس، عند البحر التقى برجل يلبس البياض، أبيض اللحية، والشارب وشعر الرأس، يمشي فتيًّا عفيًّا كأنه ابن عشرين، الشيخ الكرماني كان على وشك النزول في قارب ليعبر البحر الكبير، سلم عليه الشيخ، من عينيه ينسال بهاء غريب، حذره من ركوب البحر، قال: «الدردور عمال ومن ركبه هلك»، ودواب هذا البحر لا ترحم من يلقي به حظه العاثر إليها، رجع الشيخ الكرماني، واختفى الشيخ الأشيب، ذهب الرجل، وبرق الخاطر في عقل الشيخ الكرماني، من التقى به وحذره، هو، هو بعينه، سيدنا الخضر عليه السلام، فيما بعد عرف هلاك القارب، انتابته حسرة، كيف لم يبق معه، كيف لم يقتف خطواته، بعد أن قضى ثلاثة أشهر يستقطر حسرة لا تنبت أملًا، عزم فتوكل، بدأ طوافه، عسى أن يلتقي به، يصحبه، لكن محال، المرء لا يرى سيدنا الخضر مرتين، مع هذا لم يَضِعْ منه الرجاء، الشيخ «أبو السعود» لم ير سيدنا الخضر، لم يشهد النبي إلياس، في السرداب ترق الأحزان، توخز النفس كنصل سيف حاد، النبيَّان الخالدان هجرا الأرض التي يحيا فيها، رأى الكثير ولم يرهما، ارتعش قلبه بمنظر الموتى في غزوة بربرية، مدن خيم عليها وباء حصد وأفنى ولم يبق، عندئذ يطرق باله سؤال الحيرة الأبدي: لماذا يموتون بلا ثمن؟ لماذا جاء الإنسان وعاش وعرف الألم والأمل إذا كان ذهابه بسيطًا هكذا؟ في السرداب سمع ثقة أهل مصر فيه، سمع كل ما أتاه الزيني من رفع بعض الأسعار، من القبض على أشخاص، ارتقاؤه في المناصب، مبرر معقول، ألا يقول دائمًا، لولا ثقة مولاي

وإمامي الشيخ «أبو السعود» الجارحي لما قبلت، أحد المريدين أخبره بوقوف الزيني خطيبًا في أهالي الصعيد القصي، أخبرهم بأن الشيخ «أبو السعود» يدعو لهم ليلًا ونهارًا، إنه يأتمنه على الأرض والناس، إنه يوصيه بالعدل والخير وما هو إلا منفذ لتعاليم مولاه، بعد فناء عمر طويل يجيء من يستبيحه. لو جاءه النبي إلياس المعاصر لكافة الأزمنة سيقول له: أنت المحق. لم تعرف زمنك. لم تغص فيه لتعرف كوامنه. لكن لا النبي إلياس. ولا الخضر عليه السلام سيرشدانه، في السرداب خُيِّل له أن الهاتف صاح عليه، والهاتف يسمع ولا يرى، ولا يجيء إلا للصالحين، إما مرشدًا أو محذرًا منجيًا، أو لائمًا، أي أسى يطرق القلب الوجيع المحسور، كيف ينفذ بصره إلى الحقيقة، يقولون: مولاه باركه أول سنة لكن لم يهتف الخلق باسمه، نسوا وأصبح موقفه عنوانًا لكل ما يجري، آه لو يصل إلى شجرة الحقيقة، حدثه النساك الزاهدون عنها، من أكل ثمارها لا يعرف الضلال قط، لو وصل إلى الحقيقة كل أمر مهما لف والتوى، لم يصل إلى الشجرة، لن يرى طيفها، جاءه درويش صعيدي بحبات التمر، سطل اللبن، أكل وشرب يميل عليه هامسًا، مولانا في الباب رجل اسمه الدمراوي.

لا حجاب بيني وبين الخلق..

جاء الدمراوي، فيما يبدو ميسور الحال.

جئت ساعيًا على قدمي يا مولاي.

من أي البلاد أنت؟؟

منفلوط يا مولاي.

إلى منفلوط سافر الزيني بعد رحيل السلطان إلى الشام، جمع أهل الناحية كبيرهم وصغيرهم.. في البدء حكى عن كل شيء عن حقيقة الأخبار. الغدر الذي يطل من ابن عثمان. قال فيما قال إنه موقن من تحرك ابن عثمان ليأخذ مصر. لكن جند السلطان وفرسان الإسلام سيتولون أمره. قال: مصر محمية بأولياء الله. وصعب أخذ بلاد تضم سيدنا الحسين وسيدي أحمد البدوي وسيدي عبد الرحيم القناوي وسيدي الفولي والقطب القوي سيدي الدسوقي وسيدي الرفاعي والأولياء أصحاب الأوتاد ومولاي صاحب الكرامات النورانية «أبو السعود».

«أجرى الدمع من عيون الخلق، يا مولانا، ثم قال: إن خزانة السلطان في أمس الحاجة إلى دراهم، ورجاهم تقبل ما سيقول، جمع ضرائب عام واحد مقدمًا غير السنة التي نحن فيها، ولما كان الحال صعبًا، والدنيا متشحطة مع الناس، ضجوا وأعولوا، فتحدث إليهم بلين الكلام، قال: من يملك شيئًا ليبيعه «حاش» عنهم أذى الأمراء والمماليك، ولو تركهم لجاءوا بسيوفهم، وباعوا أولادهم وبناتهم كما تباع الماشية، وهذا ليس غريبًا، حدث من قبل مرات ومرات، وبين الكلمة والأخرى يذكر وصية مولاه الشيخ «أبو السعود» له، فصارت الناس يا مولاي، آه سامحني يا مولاي.

بكى الدمراوي، يولي سيدنا الخضر عليه السلام وجهه بعيدًا، يزعق المريدون، تعلو الهمهمات، «بعد أن صرف الناس. استبقاني مع أربعة من أهالي البلدة، أخبرنا بأمور عديدة عن أموالنا فعجبنا فيما بعد، كيف وصلته، ثم قال:

إنه سيفرض على كل منا مبلغًا قدره ألف دينار، قال: لا بد من الدفع، العجب يا مولانا، ضياع اللين في حديثه، نتر في وجوهنا، أظهر القسوة، قال: إنه يمهلنا شهرًا، ولو تأخرنا سيدعو علينا مولاه..فتخرب بيوتنا.

صرف الدمراوي. ورأى السماء مقطبة الجبين. الآن يرجع الفلاحون إلى ديار الطين، الآن يوقد عساكر السلطان النيران في سهول حلب، الآن يتوه ملاحون في البحار الغريبة، يجيء سيدنا الخضر يرشدهم إلى السلامة، الآن يضيع صواب الضالين في الصحراء، ينزل الليل صخرًا وحجارة، لا يدركهم إلا النبي إلياس، وفي لحظة معينة من الليل لم يعرفها أي إنسان حتى أشد الأولياء ورعًا في مكان مجهول لا تطرقه دابة يجتمع سيدنا الخضر وسيدنا إلياس ليلقيا نظرة على بلاد يأجوج ومأجوج، حتى لا يكسروا السد، ويغرقوا العالم. خاطر يضيق به صدر الشيخ هل نفذ بعض اليأجوج إلى دنيانا، وتنكروا في هيئة البشر؟ سيهجر السرداب حينًا، خلا البيت من مجيء سعيد.

«يا فرج..»

جاء المريد الشيخ. لا يعرف الطريق إليه مرة إلا كل سنة، في ميعاد بعينه.

امض إلى الزيني بركات، ارتد شال عمامتك الأحمر، ناد عليه، قل له أن يأتي عندي الليلة.. لا تدعه يغب.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

الجمعَة 15 شعبَان 922 هـ

ديوان سر مُقدّم بصاصي القَاهرة

عاجل ومهم

تقرير مرفوع إلى الشهاب الأعظم

زكريا بن راضي كبير بصاصي السلطنة

في الجزء الأخير من هذه الليلة، توجه الزيني بركات بن موسى، استدار الذخيرة ومتولي حسبة الديار المصرية، والي القاهرة، والمتحدث عن الوجهين القبلي والبحري إلى كوم الجارح، بعد استدعاء الشيخ «أبو السعود» الجارحي العارف بالله، وعندما دخل إليه أجلسه بين يديه، مال الزيني عليه، لكن الشيخ لم يراع هذا، نتر في وجهه: يا كلب.. لماذا تظلم المسلمين؟ لماذا تنهب أموالهم، وتقول كلامًا تنسبه إليَّ. أبدى الزيني دهشة حاول الانصراف، لكن الشيخ قام، نادى أحد مريديه (درويش اسمه فرج).. أمره بخلع عباءة الزيني عنه، تجمع حوله الدراويش أحاطوا به، أمر الشيخ فضُرب رأس الزيني بالنعال حتى كاد يهلك، ثم أمر بشك الزيني في الحديد، ثم أرسل إلى الأمير علان. وأيقظه، وقال له: اطلع شاور نائب السلطان

الأمير طومانباي في أمره، وأعلمه أن هذا الكلب يؤذي المسلمين، وفي الحال طلع الأمير علان الدوادار الكبير إلى نائب السلطنة، وأيقظه، وأخبره بما جرى، وقال الأمير طومانباي: ليفعل الشيخ «أبو السعود» ما يبدو له، وحتى ساعة كتابة هذا، ما زال الزيني بركات بن موسى محتجزًا عند الشيخ «أبو السعود»، وقال الشيخ لمريديه: «أبقوا الأمر سرًّا يومًا أو يومين حتى أستخرج منه ما نهبه من أموال الغلابة، ثم نشهره على حمار، ونخلص الدنيا منه»، وحتى الآن لا يعلم العامة بما يجري، وإن تساءل البعض عن عدم ركوب الزيني لصلاة الفجر كعادته، ومن ناحيتنا، بادرنا فأرسلنا العيون والأرصاد في كل فج، وخاصة كوم الجارح ونُمِيَ إلى علمنا أن دراويش الشيخ ومريديه وكافة أرباب الطرق الصوفية والفقراء في بر مصر سيعلنون الخبر ويهيجون الخلق.

عليكم أمان الله تعالى

(مقدم بصاصي القاهرة)

الجمعَة 15 شعبَان 922 هـ

ديوان سر نائب الشهاب الأعظم زكريا،

المختص بأحوال ابن عثمان وأموره

(مصيبة كبيرة)

بعد تضارب الأخبار وكثرة القيل والقال ورد إلينا، منذ لحظات حقيقة ما جرى، فبادرنا بإرسال الأخبار إليكم، ونأسف لعدم تمكننا من الحضور بأنفسنا لانشغالنا باستقصاء الحقائق، لقد وقعت كاينة عظيمة، طمت وعمت.

وتفاصيلها، أن السلطان الغوري دهمته عسكر سليم العثمانلي يوم الأحد الخامس والعشرين من رجب (وهو يوم نحس مستمر)، وكان السلطان قد صلى صلاة الصبح، ثم ركب وتوجه إلى تل الفار، وقيل هناك قبر داود عليه السلام، فركب السلطان، وصار يرتب العساكر بنفسه، فكان أمير المؤمنين على ميمنته، وحوله أربعون مصحفًا في أكياس حرير صفراء على رءوس جماعة أشراف، وفيهم مصحف بخط الإمام عثمان بن عفان (رضى اله عنه)، وحوله أيضًا جماعة من الفقراء، هم خليفة السيد البدوي، ومعه أعلام حمر، والسادة الأشراف القادرية، ومعهم أعلام خضر، وخليفة سيدى أحمد الرفاعي ومعه أعلام خليفتي، والشيخ عفيف الدين خادم السيدة نفيسة (رضى الله عنها)، بأعلام سود، وكان ميمنة العسكر سيباي نائب الشام، وعلى الميسرة خاير بك نائب الحلب.

قيل: أول من برز إلى القتال الأتابكي سودون، وملك الأمراء سيباي نائب الشام والمماليك القراصنة دون الجلبان، فقاتلوا قتالًا شديدًا معهم جماعة من النواب، عسكر ابن عثمان وكسروهم كسرة مهولة، وأخذوا منهم سبعة صناجق، وأخذوا المكاحل التي على العجل ورماة البندق، فهمَّ ابن عثمان بالهروب أو بطلب الأمان، وقتل من عسكره فوق العشرة آلاف إنسان، كانت النصرة لعسكر مصر أولًا، ويا ليت لو تم ذلك. بلغ المماليك القراصنة أن السلطان قال لمماليكه الجلبان: لا تقاتلوا

أو خلوا المماليك القراصنة تقاتل وحدها، فلما بلغهم ذلك ثنوا عزمهم عن القتال. وبينما هم على ذلك وإذا بالأتابكي سودون قد قتل في المعركة. وقتل ملك الأمراء سيباي نائب الشام، فانهزم من الميمنة من العسكر، ثم إن خاير بك نائب حلب انهزم وهرب، فكسر الميسرة، وأشيع بين الناس أن خاير بك نائب حلب كان موالسًا على السلطان الذي ظل واقفًا تحت الصنجق في نفر قليل من المماليك، صار يصيح في العسكر: يا أغوات هذا وقت المروءة، قاتلوا وعلى رضاكم. فلم يسمع له أحد قولًا وصاروا ينسحبون من حوله شيئًا بعد شيء. فالتفت إلى الفقراء والمشايخ الذين حوله وقال لهم: ادعوا إلى الله تعالى بالنصر فهذا وقت دعائكم. وصار ما يجد له من معين ولا ناصر. فانطلق في قلبه جمرة نار لا تنطفئ وكان ذلك اليوم شديد الحر، كثيف الغبار كان نهار غضب من الله تعالى على عسكر مصر. ولما تحقق السلطان من الهزيمة نزل عليه في الحال خلط فالج، فأبطل شقته، وأرخى حنكه، فطلب ماء فأتوه بماء في طاسة ذهب شربه، ومشى خطوتين، وانقلب من على فرسه إلى الأرض، فأقام نحو درجة، وخرجت روحه، ومات من شدة قهره. وقيل فقعت مرارته. وطلع من حلقه دم أحمر، ولم يعثر له على أثر، ولم يعلم له خبر، فكأن الأرض انشقت وابتلعته في الحال.

ولم تستغرق هذه الواقعة إلا من طلوع الشمس إلى بعد الظهر. وانتهى الحال على أمر قدره الله تعالى. تحول ابن عثمان من مرج دابق إلى حلب فملكها من غير مانع. واستولى على مال السلطان وتحفه وأسلحته التي خرج بها من بر مصر.

هذا ملخص ما جرى في الشام، نسأل الله أن يقينا شر ما يجيء من أحوال، وسوف نرسل ما يرد إلينا أولًا بأول.

عليكم أمان الله تعالى.

نائب الشهاب الأعظم

المختص بأحوال ابن عثمان وأموره

عمرو بن عدوي:

لماذا أرسل إليه؟؟ هل انكشف أمره وافتضح؟ أو انكسار العسكر واقترابه وكثرة الإشاعات واضطراب الأحوال، حتى بيت ابنة الخبيزة لا يستطيع المضي إليه، شحت يده بعد امتلاء، المأوى في الرواق ضاع، لا يجمعه إلا بيت واحد من أهالي البلدة ليلة أو ليلتين، ثم يمضي إلى غيره لتقابله العيون بالنظرات نفسها، لا يعرف ما سيقوله مقدم بصاصي القاهرة؟ لكن هل يتنبه إلى أمره مع كل هذه المشاغل والأمور المضطربة؟ لا يدري، الآن يعبر حارات العطوف، يخاف لو رآه أحد المجاورين، حتى من حرصوا على صحبته يومًا خوفًا وخشية، جهروا له بالعداء هذه الليلة التي وجد نفسه ضائعًا فيها، قابله خارج الرواق كل من ينام بجواره، بالقرب منه، زملاؤه في حلقة الدرس، شوام ومغاربة وأفغان وقفوا يرقبون ما يجري، حزمة ثيابه ربطوها تحت قدميه، قال الشيخ حمزة أكبر من في الرواق سنًّا وأقدمهم في طلب العلم وتحصيله: امض عنا ياشيخ عمرو، لا ترنا وجهك، يد

حجرية هوت فوقه، كاد يزعق فيهم، أتعرفون إلى من تتكلمون، إلى من تزعقون؟ في هذه اللحظة رأى نفسه. يجلس أمام مقدم بصاصي القاهرة، كان إذا جلس إلى التجار. إلى المجاورين، يزهو إذ يسترجع حديث المقدم إليه، يأسف لأنه لا يمكنه التصريح بذلك، زهو داخله كلما رأى إنسانًا باستطاعته إرسال أي شخص إلى المقشرة، هل نسوا هذا، لكن عرقًا غزيرًا انبثق من جلده، بلل ثيابه، ما الذي جرى يا شيخ حمزة، وأطلقت العيون شررًا، صاح الشيخ صلاح الصعيدي: امش يخرب بيتك كما خربت بيوت الناس، تقدم الشيخ بهاء الحق، خلع مركوبه، منعه الشيخ حمزة: «آذيتنا، وعددت أنفاسنا، ونقلت سكناتنا وحركاتنا»، «ذنب الشيخ سعيد، والشيخ مبروك في رقبتك»، يوم لم يعمل له حسابًا، ما الذي جرى له، يذهبون إلى شيخ الجامع يوقعون في أمره كل ما لم يجرؤوا على قوله من قبل، يأمره بطرده من الرواق ومن حلقات الدراسة، من الأزهر، يفضحه، نظر إلى مدخل الرواق ألن يجتاز عتبة الباب أبدًا، ألن يصغي إلى أنفاسهم، إلى هلوسات أحلامهم، ما الذي سيكتبه إذن في تقاريره؟ آه، لن يرحمه الرجل، فشل ولم يتقن إخفاء نفسه، وهذا يساوي الموت بالنسبة للبصاص، إلى أين يمضي؟ تطل عليه أيام بعيدة طاف فيها بالبيوت. يستجدي الدراهم بتلاوة القرآن، لن يجرؤ على دخول بيت منها، بقجة ثيابه، إلى أين؟ أيعود إليهم، يطلب الصفح والسماح، يحكي لهم عن أمه التي لا يعرف مقرها الآن، سنوات مرت على خروجها، لا يعرف الطريق إليها. لم تهتد إليه، ربما تصل إلى الرواق، لا تلقاه الآن، تسعى حول المسجد كسيحة عمياء كسيرة الفؤاد، لو حكى لهم عنها ربما رقوا له، أدرك أنه نسي وجه أمه، صورتها، لو قابلها لن يعرفها، لو تعيش فهي ميتة في قلبه منذ سنين، حمل ثيابه. ولّى هاربًا، الطرق عليها كمدة، كأن الدم المسفوح في مرج دابق انسال حتى غطى تراب القاهرة، الناس جروحهم طرية، في كل بيت مناحة، أما جرحه فنافذ حتى النخاع، سب الشيخ حمزة، لعن المجاورين، بل لعن في سره البصاصين. من يدري، ربما كشفوا أمره لغرض في عقولهم، ربما أشاع مقدم البصاصين بالقاهرة حقيقته، أشرف على فضيحته، مرة سمع الشيخ حمزة يسب كبير بصاصي السلطنة، أهمل ولم يرفع ما حدث، أهو الكسل؟ الآن يتمنى لو عرف الشيخ حمزة بموقفه، ارتعش، توقف مكانه. سمع صرخة غامضة غريبة طالعة من أحشاء العطوف، ربما يذبح إنسان، لا قيمة لذهاب رأس واحدة، فما أكثر الرءوس التي راحت في مرج دابق، لو أمسكوه الآن في هذه الساعة لظنوه يجس الأحوال، يراسل ابن عثمان، الرجم مصير هين عندئذ، لن ينقذه زكريا نفسه، ربما يدبر له مقدم مصاصي القاهرة ملعوبًا ليتخلص منه تمامًا، يمسكه بعض البصاصين الآن، يزعقون عليه«بصاص لابن عثمان» إذن فليسرع، كل شيء يولي، كأنه لم يذهب إلى ابنة الخبيزة، لم يضاجع لطيفة الحلوة، كأنه لم يستمع إلى هيفاء اللذيذة، لم يدرس العلم، لم يحفظ الحديث، آه لو بقي في البلدة بجوار أمه، يعمل فلاحًا، عنده زوجة وأطفال، تصر البوابة عند فتحها صريرًا ثقيلًا. ضبتها الضخمة توجعه، نفس الممر، عبره مرات، ارتجف، هل سيخطو فوقه راجعًا الليلة؟؟ لا يعرف ما سيفعل به، في أولى حجرات البيت طالعه نائب مقدم بصاصي القاهرة:

«اجلس»

لم يلامس ظهره مسند المقعد، رأى نفسه بعين الرجل، أدرك نحول بدنه، اصفرار وجهه.

«فضحت نفسك.. وفضحتنا.»

انعقد لسانه، ما الذي سيفعل به؟؟ عندما وصل إليه الرسول في الفسطاط، أعد كلامًا كثيرًا يقوله، كل ما يرجوه تدبير المأوى، يمكنه العمل خادمًا ينظف الحشايا ويغسل الأواني، ألم يبذل الجهد كله في خدمته، هل خاب تقرير واحد أعده قبل، ألم يتسبب في كشف أمر عشرات المهيجين، الآن لا يجد كلمة واحدة فوق ما فكر فيه، قام نائب مقدم القاهرة، لاحظ عمرو أنه متعب، تمنى لو قال له: «استرح.. لا تتعب نفسك»، لو بادله عادي الكلام.

«سوف تسبب لنا متاعب..»

قلب عمرو حمامة ابتل ريشها، يلمس ما تقرر في أمره، من خلال كلمات الرجل وحركاته، أثناء مشيه ومجيئه في الحجرة. ضرب قبضة يده اليمنى براحة يده اليسرى..

«ستبقى عندنا وقتًا حتى يبت في أمرك..»

«هنا»؟؟

ورأى عمرو ظلام الليل أبديًّا، طاف حوله خيال هائم، لا يدري أين صاحبته وتمنى لو اقترب من النائب وهمس برقة: «اهتم بنفسك، صحتك على غير عادتها، فيجاوبه النائب، قائلًا.. «رعاك الله يا عمرو وأبقاك..».

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

سعيد الجهيني:

بخرقة ممزقة قديمة، أقبل حمزة بن العيد الصغير، ينظف الموضع المعتاد من الدكة.. «لك وحشة يا شيخ سعيد.. سنتان وأكثر.. هانت عليك العشرة».

ضيق سعيد عينيه، تعب البصر وامتنع عن تمييز القريب من الأشياء، أيصدق حمزة في قوله؟؟ أو يتظاهر؟؟ أحقًّا يجهل ما جرى؟؟ ألم يبلغه الأمر؟؟ وإذا تجاهل فلا بد من غرض خفي يستحق تظاهره؟؟ ألم يسمع صدفة حديثًا تبادله بعض المجاورين المترددين على دكانه، حمزة يدعك يديه بعضهما البعض. في الترحيب حرارة لا تخفى، هل أوصوه بافتعالها؟؟ أيصدر عن نظراته ما يدفع الريبة والشك إلى قلبه؟؟

«غيبته لم تطل يا ريس حمزة..»

في كلمات قليلة رد، ليفهم حمزة أو أي بصاص آخر يقف قريبًا منه، يختبئ في الدكان، في أي مكان لا يراه، أنه لا يبدي الشكوى مما حدث، سعيد عليم بمراقبتهم له، في مكان بعينه، فوق مساحة أرض بذاتها، فراغ محدد يقف إنسان يرصد كلماته، الناس الذين يلقاهم، العبارات المتبادلة بينهم، كل ما يقوله، يرفع ويوضع

تحت تحليل عميق، لا يمر معنى خفي إلا وأدركوه، ومهما مضت السنون، حتى ولو بقي في عمره يوم واحد، يمسكونه، يحاسبونه حسابًا عسيرًا وهم قادرون على إذاقته في يوم ما لا يذوقه إنسان في مائة عام من آلام ومواجع، يبذلون جهدًا لتصحيح مساره وتقويمه، ألا يضرب الأب أولاده؟ يقسو عليهم؟ يرقب الطرقات، الشتاء يورث القلب حسرة، دفقة دم، تعيد إلي وقع أقدام مقبلة في طرقات طويلة لا نهاية لها. وجوه ترمقه بهدوء، ببرود، وعيون تنفذ إلى نسيج أحلامه، أرهقهم كثيرًا، فاهتموا به طويلًا، أخبروه بألفاظه التائهة القليلة التي يطلقها عادة أثناء نومه في الرواق، زمان أحد أصحابه أخبره بها، كثيرون يتحدثون وهم نيام، ألفاظهم مبهمة، أما هو فلا ينطق إلا لفظًا أو لفظين «الأول» «الآخر» «الأمس» «غدًا»، «المثنى»، «المفرد»، سألوه عن معاني الكلمات شهرًا بأكمله، في كل مرة يقسم أنه لا يدري، رحموه وصدقوه، ترفقوا به وصدقوه، ترفقوا به، في مرات استعادوا أحاديث تبادلها مع آخرين على فترات متباعدة في حياته، توالت عليه الأسئلة حول مغزى الكلمات توضح الشروح، توضح الفروق، تضاهي الحروف حروف الجر، وعلامات الاستفهام طلاسم تسد أبوابًا في نفسه، فكوها مع ظنه الدائم باستحالة هذا، أزالوا أرصادها. نفذوا من أضيق الثقوب، أغلقوا طاقات، ردموا ممرات وساحات، الآن ينتبه إلى نفسه فجأة، كيف يفكر فيما فعلوه به، ربما أدركوه وعرفوا ما يفكر فيه، يفهمون أنه يحاول تشويه أعمالهم، أنه ينسب إليه فظائع لم تحدث، نعم لم تحدث، لم تحدث، ألا يوجد عقار ما يمنع الإنسان من التفكير في أمور بعينها، الآن تتدافع إليه أصداء صرخات مجهولة، آدميون يتألمون، حناجر تعجز عن تفريغ طاقات الألم، ركود الهواء في الحفر المعلقة، فلمس السلاسل، يهز رأسه، ينفي الخواطر، يبيد الأفكار، ما مر به أحلام ثقيلة، فعلًا أحلام.

«بالصلاة على النبي.. اللهم اكتب لنا الستر..».

الابتسامة على وجه حمزة بن العيد الصغير، كانت كلماته تبدو طيبة، الود المنسال من عينيه الآن لا يدري القصد والهدف. في نفس هذا الموضع رأى سماح ألف ألف مرة، ذكراها تدفق الدم من الأوردة الشرايين، سماح. كيف أحبها يومًا؟ كيف عانى ما عاناه؟ لفظ الاسم بصوت عال من الطاقة. سمع ورأى ما يسقط النجوم الأعالي، ما يهوي بالنفس من شموخها، أدرك العطن جوهره. ظن أنها لا تمس، دب الخراب إلى وجه مليح، بارت الأرض. أفنى الوباء آمالًا. ظن يومًا أنه سيعبر المحيطات ويمشي عبر الربع الخراب من العالم، يعلو جبال قاف ويمضي إلى واق الواق، يرسو في جزر لا يسكنها أحد، يأكل الحديد ويشرب النار. فقط لو تصحبه الآن يتساءل؟ كيف؟ كيف أحبها يومًا، لا يدري أين هي؟ أين تسكن؟ في القاهرة أم رحلت إلى الأرياف مع الراحلين في الأيام الأخيرة، لا بد أنها أنجبت طفلًا يقول لزوجها يا أبي، يقول لها: يا أمي، لا بد أن معالم وجهها تغيرت. غلظت، كأنه يذكر شخصًا غريبًا عنه يعيش وراء المحيط، عرفه يومًا غير أن عكارة في قرارة الروح، نقطة عنبر أسود لا تروح. لا يدري ما الذي دفع إليه الآن ذكرى رجل عرفته القاهرة كلها منذ أعوام، قضى سنين لم يقرب امرأة. وعندما اشترى بماله الذي أفنى العمر في اقتنائه جارية حلوة صغيرة، لكنها بعد أيام استغاثت منه، استعانت عليه بالزيني،

الزيني خلصها من الرجل. طاش عقله، وراح يدور الشوارع. في عينيه حيرة ولهفة، وقع به خبل. ياه كانت سماح حربة مغروسة في قلبه لم يعرفها. وأراق الدمع من أجلها. يقول الآن. الحمد لله أنه لم يتزوجها. كأن شخصًا آخر حكى له ما جرى، قصَّه عليه. أما هو فلم يعرفه، قرب كوز الحلبة. الطعم مغاير في الحلق، هل نسي المذاق؟ لو اشتهى الحلبة عندهم لجاءوه بها..

«اللهم استرنا واحمنا يا كريم..»

في البداية أقبل عليه، لكن أسى الوجه الخفي، الصد الذي لا يبين في عينيه، حفر رفيعة طويلة حولهما، كأنه قام من النوم توًّا، كأنه يعاني حزنًا فادحًا، أو انتهى فورًا من بكاء طويل، حمزة بن العيد الصغير، يرى حاجزًا يقوم بينهما.

«آنستنا يا شيخ سعيد..»

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

في الجو غليان إنه يمشي على الرصيف المحيط بصحن المسجد المكشوف من وراء الأعمدة، ينظرهم، لا يقرب حلقات المناقشة إلا وقت الدرس، حتى وقتئذ ينأى بنفسه، لن يدع فرصة للظن أن يهمس لأحدهم، يرى العيون تبرق والعشرات يخرجون إلى ظاهر القاهرة، يشيلون أحمال التراب، يحفرون للمدافع التي اجتهد السلطان طومانباي في صنعها، رذاذ الحديث ينفذ إلى أذنيه.

«لو خرج طومانباي وقابلهم في الصالحية وهم متعبون ولا طعام عندهم لكنهم استراحوا يا مشايخ، والآن يسعون إلى الريدانية..»

«أنا أرى أن يخرج طومانباي ويلتف من الصحراء.. ويباغتهم عند بلبيس. لكن أن يحفر في الريدانية وينتظرهم هنا فهذا ما لا تحمد عقباه..»

«ربما أقنعه الأمراء بهذا الغرض في أرواحهم..»

«هل شك واحد منا في خاير بك من قبل؟»

«في الجو رائحة نتنة يا مشايخ.»

إذا سأله أحد جاوبه بهزة رأس لا تعني شيئًا، ابتسامة موجزة تبتر الحديث، يعرف أن أصحابه رقوا له، يخمنون ما جرى له، لا يهمه ما يقولون، يرجو ألا يثيروه بالحديث، كل كلمة تقال وتضيع في الهواء لا تغني عندهم، يقطع الممر الطويل المبلط برخام قديم، يداه وراء ظهره، يروح ويجيء فيه خوف غامض من الخروج إلى الفراغ، كأنه لو مشى في خط مستقيم سيختل ميزانه، يسقط مرفوع الذراعين مرجوف الوجه، يطلب نجدة لن تصل أبدًا، وغوثًا منقطعًا، ومددًا، لا أمل فيه، لو أكثر من التجول لرأته ألف ألف عين، كل عينين لإنسان واحد، لو أنه حدد الناس الذين يمضي بينهم، في الليل إذ يوشك شيخ الرواق على إغلاق الباب، يقوم من مرقده، تتابع أنفاسه بسرعة، يكاد ينطق رجاء مكتومًا في صدره، ألا يغلق الباب، كأنه لن يفتح أبدًا، لا يأتيه النوم إلا بعد دوار رأسه، انكتام نفسه، ضياع حسه، لا ينام نومًا، إنما يغشى عليه..

«في بر الجيزة خمسون ألفًا من العربان..»

المجاورون يروحون ويجيئون، ثمة جدد فيهم أصغر سنًّا، جاءوا بعد ذهابه في الرحلة «كما يسميها بينه وبين نفسه» في حلقه كتلة صلبة كالبندقة، لو أن ما يجري الآن جرى منذ عامين فقط، عامين؟ كأنهما عشرات السنين، زمن قائم بذاته، هل سيقف هكذا؟ يتجنب الاقتراب من حلقات المناقشة، ما يدفع طعمًا مرًّا إلى دمه، ما يحيره، كيف يسمع الآن باقتراب جيوش ابن عثمان، تكاد تلامس أرض الريدانية، خيولهم تدوس الديار المصرية، طاحت سيوفهم في رقاب أهالي الشرقية وبلبيس، ربما اجتاحوا في طريقهم بلدة قرية سماح لجأت إليها مع زوجها، استباحوا عرضها في صحن جامع قديم، العرض الذي لم يهتك في خياله يومًا ورآه متمرغًا تحت سليل الأمراء في لحظات قهر، سعيد يتقلب فوق حصير شائك، ما أبعد المسافة وأنأى الترحال بينه وبين زمن ترعشه فيه مظلمة بسيطة، ضرب إنسان في عرض الطريق، تتكاثف الحيرة والحسرة، كيف لا يحركه ما يجري من أمور؟ انتفض الشامي والمغربي، القريب والبعيد، الحريم يهتفن بالدعاء لطومانباي، حتى العيال الصغار، ربما يخشى أن يفهم حماسه خطأ، لو زعق، لو جهر بالدعاء، ربما تضايقوا. يريدونه هادئًا وادعًا، إذا هتف لطومانباي من يدريه أن الدعاء سيسمع بنصه؟ رأى نساء الجمالية الفقيرات في العطوف الجوانية والروم والباطنية يقفن أمام مشهد السيدة نفيسة حسيرات، تعلو أصواتهن بنصرة طومانباي ورفعة جند مصر عسكر الإسلام. في داخل المسجد رءوس معممة، يقيمون الصلاة في غير أوقاتها، يقرءون البخاري، شبان صغار عاب عليهم يومًا انقطاعهم وترددهم في مواجهة جور الأمراء، الآن، يبدون همة لا يدرى من أين جاءتهم، أحقًّا لامهم فعلًا، لكنه لا يخطئ الوجوه المنكسرة، معالم الغربة حتى في أبنية الحواري.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

لحظة الغروب تجسد الموت، الأسى رقراق، عبثًا صفاء النفس، الأذان حزين يدفع بالعمر مائة سنة، يعمق الغربة لمن لا بيت له ولا زوجة ولا أمل يرتجى، كأن الريف البعيد محي من المكان والزمان، الأشرعة لا تهدي القوارب إلى بر الأمان تمضي امرأة تلتف في حرير أصفر، حتى الخيال لم يعد قادرًا على تجريد الثياب، لو جاءت بلقيس نفسها، لو رقصت أمامه في حجرة مغلقة نائية، لن تهتز جذور شعيرات رأسه حتى.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

طفل ضئيل، صغير الجسم، دامع العينين. الإصبع في الفم. حيرة أول العمر. يبحث عن أبيه. يبحث عن أمه. لا يدري سعيد الطفولة المخزوقة في عينيه أثارت خوفًا غامضًا في قلب شفقة تتسال. توقف يرقب الطفل. انتبه إلى خطورة ما أقدم عليه. بأي كلام يفسر وقفته المفاجئة أمام الطفل. طفل صغير يبكي رأى نفسه ممددًا فوق حشية قديمة. وأطفال يصيحون. نساء يلطمن الخدود، آه لو يرثى الإنسان حيًّا لأقام النعي وجاءته الندابات من كل فج عميق. لو يصلب نفسه على باب زويلة. يقضي دامع العينين. كهذا الصنم الواقف في جزيرة لم يرها أبدًا وسط البحر المحيط. كلما اقترب منه إنسان يلقى الدمع هاطلًا من عينيه. السوق خال. الحركة خفت من

الطرقات. كأنها أوردة القلب الخالي. التفت وراءه. الطفل الباكي يتوسط الطريق. قدماه رفيعتان كقلم البسط. تنوءان بحمل جسمه. كل اهتزازة منه تجسد أول العمر الشقي. لا يعرف أن يمضي؟ رأى بعيني عقله امرأة وقعت بين القفف في سوق الليمون انتابها خلط فالج. ارتمت على ظهرها لا تدري ما حولها. تطفطف ربما من فمها. زحف إلى ثديها طفل يتلمس سريان الحياة منه. متى رأى المنظر. متى انتابه غم؟ بحرص عظيم استقصى أخباره، يقينًا علم بخروجه. في الرواق خطر له أن ينسرب تحت الظلام، يطلع عليه، لكن هذا أسهل الطرق لانكشاف أمره، كلما انقضى يوم، لا يطلع فيه إلى كوم الجارح،،أدرك أن المسافة تنأى، ربما لم تطأ قدماه صحن البيت، لن يتنسم هواءه المبلل بماء الورد، منذ أعوام لم يخطر بباله قط، لم يكن يقبل أي تصور ليوم كهذا، لم يطلع إلى كوم الجارح، لكنه في حذر راح يستقصي أحوال مولاه، عرف أن الأمراء عندما عرضوا السلطنة على طومانباي تمنع ورفض، لم يجدوا أمامهم إلا الشيخ «أبو السعود» ليقنع طومانباي بتولي السلطنة، سعيد يراه بوجهه الصافي، ربما أخذه التردد. لا ينسى تدخله إلى جانب الزيني بركات. ثم خيبة رجائه ومسعاه، أبدًا أبدًا لم يخب رجاؤه، بعد عودته من الرحلة طلب منه رجل أتاه دائمًا هناك جالسه أيامًا طويلة، طلب منه الذهاب إلى دكان حمزة كالمعتاد، ولو جاءت سيرة الزيني أمامه، لو تساءل الناس عن سر اختفائه يقول (رجاه الرجل بأدب) أن الزيني في مكان قريب، يعد العدة ويجمع المال والسلاح، ولم يمانع سعيد، وأي مأخذ في هذا، تساءل الناس في الدكان عن غيبة الزيني قال: «إنه يرسل الأتباع إلى بلاد مصر. يستنفر مشايخ العربان لإرسال رجالهم إلى القاهرة». يذكر يومًا شخصًا إفرنجيًّا بدا مصغيًا لكل ما يقال، استراب في أمره. بعد أيام عرف الناس الحقيقة، الشيخ «أبو السعود» نفسه قبض على الزيني ورماه في بيته، خجل سعيد من نفسه. خالف أمرًا أتاه مولاه، لكنه معذور لم يدر، ثم إن الرجل رجاه بأدب، مطلب بسيط، لم يخطئ فيه، أرسل الشيخ إلى الأمراء ألا يخونوا مولاهم وألا يغدروا ولا يخامروا عليه، وأن يساندوه في تصديه لابن عثمان العازم على أخذ مصر، يعرف سعيد أن كثيرًا من المريدين، قدموا من كافة القرى والأنحاء، يلفون رءوسهم بشيلان حمراء وخضراء سيدي أحمد البدوي ارتداها يومًا، مد يده فأحضر الأسرى من بلاد الكفر، الشيخ «أبو السعود» يخرج يوميًّا إلى الخلاء يحمل المقاطف مع العسكر، حتى تباكى الخلق لما رأوا ما يبديه من نشاط لا يناسب أبدًا لحيته البيضاء وشيبته، كبر العامة وهللوا، لو رآه سيسامحه، يحرقه الشوق إلى رؤيته لكنه لا يدري رد الفعل، هكذا أطلقوه وتركوه لا يحددون له مسارًا.

يطلب سعيد كوز الحلبة المعتاد، يطحنها حمزة الآن، يضيف إليها البندق المبشور، ولو طلب الزبون يحمرها في السمن تصبح إفطارًا حلوًا شهيًّا ألذ من أكل الفول النابت في مطعم المراغي أمام زاوية العميان، العسكر يعبرون الطريق، شيء ثقيل يقع في مكان قريب، لم يبدأ سعيد شرب الحلبة، صاحب وجه غريب يقترب منه، لم يره أبدًا.

«شيخ سعيد؟»

«أيوه»

«لو سمحت.. معي لحظات..»

الريح صائب، أيبدأ رحلة من جديد، أيعدو؟ إلى أين؟،إلى أين؟

«أبدًا.. مقدم بصاصي القاهرة يطلبك. ليس المفروض أن أقول لك. لكنني أشفق عليك، أعرف رقتك وما يمكن أن يطوف بك..»

يطل حمزة..

«لم تشرب الحلبة يا شيخ سعيد، لم تشرب الحلبة، لا حول ولا قوة إلا بالله..»

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

نـــداء

يا أهالي مصر

يا أهالي مصر

يا ساكني مصر

الجهاد

الجهاد

الجهاد

وما النصر إلا من عند الله.

زكريا بن رَاضي:

لم يتوقف لحظة واحدة من المقطم إلى بركة الرطل، الحواري مغلقة. الناس يسرعون إلى غير هدف، في الصباح الباكر، انطلقت إشاعة في المدينة كالنار في العشب الجاف، أقسم البعض أنهم رأوا جيوش ابن عثمان تجيء من ناحية الفسطاط تفاجئ طومانباي من الخلف، ارتعب الناس، ارتجفت قلوبهم، لا أحد يصحب زكريا غير مبروك، يمشي محاورًا له، العتمة في الضوء، زعيق الجند العابرين يجسدون في زكريا شيئًا خفيًّا، يدرك أنه يعايش الآن أحداثًا جسامًا لا تتكرر إلا مرات في عمر الدنيا، من قبل أن يتغير السلطان يجيء آخر، لكنهم أفراد جماعة واحدة، أما الآن فالجماعة نفسها مهددة، آخرون غرباء لا يوقفهم أحد، يرثي لطومانباي، يعرف أي وضع صعب يلاقيه، عكارة تشاؤم تأوي إلى روح زكريا هو الوحيد في مصر العالم بحقيقة ما سيجيء. لا يستريح إلى وقفة جان بردي الغزالي بجوار طومانباي، وعنده أدلة وشواهد، ابن عثمان وباء جاء في غير ميعاده، وباء لا علاقة له بانخفاض ماء النيل، شر مسلط. عسكره همج، يعرف زكريا أحوالهم بهائم لا نظام لهم، أسرع الخطى، يهرب من إدراك نتيجة يراها محدقة، هذا ما سيناقشه مع الزيني بعد قليل، هذا الزيني الذي نفذ إلى عمره، فكره وروحه، فحول ما حول وأبدل ما أبدل، عندما قبض على الزيني أدركته دهشة بل مسه خوف، سنوات

طويلة يكيد فيها للزيني، في زمن هيج عليه مصر كلها عند واقعة الفوانيس، لن ينسيه شيء أبدًا أن الزيني دفع إلى بيته بوسيلة الرومية، الزيني أيضًا تسبب في قتلها، أن يواري جسدها البلوري وحشة القبر، منذ أشهر أدرك أن الزيني لم ينشئ نظامًا خاصًّا به يجس الأخبار والأحوال، لم يتبعه بصاص واحد، إنما هم رجال المحتسب العاديون، سنين طويلة وزكريا يجهد نفسه، يبذل طاقات لا أول لها ولا آخر لكي يعثر على بصاص واحد يتبع الزيني. لم يستطع رجاله، أيقن من براعة رجال الزيني في التخفي. عمل لهم ألف حساب وحساب، أدرك زكريا أنه خدع خدعة عميقة، تمنى زكريا لو وجد نظام بصاصين فعلا يتبع الزيني، وألا يدرك أن الأمر كله إشاعة أطلقها الزيني، بنى نظامًا في الهواء أوجده ولم يوجده، عانى زكريا مرارة الخديعة أيامًا لكنه أضمر في نفسه إعجابًا خفيًّا للزيني، فعلًا أن يوجد زكريا بمفرده في زمن واحد أمر لا طعم له، كل منهما مخلوق لصاحبه، وجود الزيني أفاد زكريا، حببه إلى قلوب الخلق بعد كره ومقت، زكريا طور أساليبه وطرقه حتى يواجه مكر الزيني وخداعه، غير الفائدة المباشرة التي أبداها الزيني في عديد من المواقف، أفكاره الصالحة من أجل تطوير أعمال البصاصين، يبتسم زكريا. الزيني الذي عرض عليه كل ماقدمه على أساس أنه بعض الطرق المتبعة في نظامه هو الخاص بمراقبة الخلق، أي إنسان في مصر يعلم بوجود جماعتين جماعة بصاصين تتبع زكريا وجماعة تتبع الزيني، هذا كله وهم أشاعه الزيني، لكن الأوضاع ستجدّ فيما لو اجتاح وباء العثمانلية مصر؟ هذا ما سيناقشه زكريا مع الزيني، بيته في المقطم لا يحوي ورقة، الآن شهاب الحلبي وديوانه وكل ما يحويه في المقر السري للزيني بحلوان، أيضًا الدفاتر والجداول التي أدرج فيها اسم كل مخلوق يدب على بر مصر حتمًا سيحتاجها في الأيام القادمة، زمان عندما أمسكوا علي بن أبي الجود وتولى الزيني الأمر راح يوزع أوراقه، قتل معشوق السلطان وغلامه، حتى الآن لم يصل إلى سر العلاقة المكتومة، مات الغلام، مات السلطان، فكم يبدو الزمن بعيدًا، سنوات طويلة في كل يوم منها يؤكد قراره بالإجهاز على الزيني، فرص عديدة سنحت له عندما أرسل الشيخ «أبو السعود» وأحضر الزيني وبهدله، ليلتها عندما بلغه الأمر، قص شعر رأسه، لا بد من حزم سريع، هذا أمر لا هزل فيه ها هو الزيني بين يدي رجل صالح تقي كلمته لا ترد عند الأمراء، الكبير والصغير، باستطاعة زكريا استنفار أعوانه من كل فج عميق، يثير الناس على الزيني، وينشر الفضائح عليهم، يمكنه إرسال قوائم طويلة بالأموال التي يكتنزها الزيني، الدر والحجر البلخش واليواقيت والفيروز وأكوام الذهب، رسالة موجزة تقول لمولانا هذه هي المواضيع التي كدس فيها الزيني أمواله، حيرة اعتصرته، في تواريخ طائفة الإسماعيلية، قرأ مرة الفداوي المرسل لقتل عظيم أو كبير تواجهه في مهمته لحظات، لحظات يجب الحسم فيها، ليس مهمًّا صحة القرار أو خطؤه، المهم هو اتخاذ قرار، ربما أضاع التردد حياة الفداوي نفسه، المهم اتخاذ القرار في ذاته، درس قديم طالعه زكريا، في الليلة نفسها قرر الزيني يجب ألا يروح هدرًا، أرسل في طلب إبراهيم بن السكر والليمون، المعلم ابن كيفه استنفر آذانه وعيونه المنبثة في أنحاء الأرض، بذكاء عظيم، بكافة الطرق، عليهم التحدث إلى العامة عن عدل الزيني وتقواه وصلاحه، تذكير العامة بما أتاه لهم، ثم ينطلقون إلى ما فعله الشيخ

«أبو السعود» الجارحي، صحيح، الشيخ ولي من أولياء الله وفيه بركة، ولكن ما للمشايخ وأمور السلطنة؟ ما للنساك وأمور الدنيا؟ لو انشغلوا بأمور الدنانير لضلوا سواء السبيل، وعندما شرع الشيخ «أبو السعود» في تجريس الزيني بركات على حماره، شهره في الطرقات راكبًا بالمقلوب قرر الأمير علان الدوادار الكبير، شنقه على باب بيت قريبه محتكر الفول في مصر، بالفسطاط، أرسل زكريا مكتوبًا عاجلًا إلى طومانباي يشير فيه إلى مال جسيم لدى الزيني ولا بد من رد المال إلى خزانة السلطنة، لو شنق لضاع المال، والبلاد في أشد الحاجة إليه، ثم هناك أمور هامة تدخل تحت نطاق السرية معلقة معه، وموته يعني التسبب في أضرار كثيرة تمس الأمراء والعامة والسلطنة ذاتها، خاصة في هذه الأوقات العصيبة. مع الرسالة نفسها أرسل خطابًا صغيرًا يطلب فيه من طومانباي الإقلال من عدد مرات نزوله وظهوره بين الناس حتى لا تضيع هيبته من بين العامة، ولا يتعودوا رؤيته، يعلم زكريا تمامًا أن الزيني يفضل الشنق على إنقاذ زكريا له، أمثال الزيني يتقبلون ما أقدم عليه زكريا بأنفة، عندما أعيد إلى بيت الشيخ «أبو السعود»، ورجعوا في شنقه ارتاح زكريا، من يدري؟ ربما يتعرض زكريا لموقف مشابه لن ينقذه إلا الزيني، زمان مضطرب لا يؤمن فيه المرء على روحه ولا عياله خاصة من كان وضعه مثل زكريا، الآن يقترب من بركة الرطل، من الطبيعي لم ينزل إلى المدينة، لم يتجول في أسواقها، نوابه يرسلون إليه التقارير باستمرار، حتى من البلاد التي اجتاحها ابن عثمان، بعض نوابه راح شهيدًا، لم يتصور أنه سيرى الخراب هكذا بين الخلق، المآذن حروف تجمدت في الهواء، ابنه يس وحريمه في أقصى الصعيد، يعاوده نفس الإحساس، يعيش في زمن يشهد أحداثًا كبيرة يندر وقوعها، بيت الزيني يبدو أخيرًا، بعد قليل يصغي إليه، ثاني لقاء بينهما منذ خروج الزيني، ياه، ألم يكن غبيًّا عندما فكر آلاف المرات في الخلاص منه، ابتسامة خفية على شفتيه، لكنه أحقًّا فكر في هذا؟ أحقًّا؟؟

نـــداء

يا أهالي مصر

ينهي إليكم الخنكار العظيم

فاسمعوا

من خبأ عنده مملوكًا شنق

من دارى على أموال مملوك شنق

فاسمعوا وعوا

يا أهالي مصر

يا أهالي مصر

من دل على مكان طومانباي

له ألف دينار

من أحضره حيًّا أو ميتًا

له ألف دينار

من حامي الحرمين، والبحار

سليم شاه.

الخنكار العظيم

نـــداء

يا أهالي مصر

يا أهالي مصر

لا يخرج أحدكم بعد المغيب

لا يرتدي أحد لثامًا

ومن ضبط شنق

يا أهالي مصر

يا أهالي مصر

استكينوا

استكينوا

ومن خالف شنق.

نـــداء

يا أهالي مصر

يا أهالي مصر

من أخفى منكم جواري ونساء المماليك

شنق بغير معاودة

نـــداء

يا أهالي مصر

يا أهالي مصر

من رأى منكم

الشيخ «أبو السعود» الجارحي

من لمح منكم

ٍ

درويشًا من دراويش

الشيخ «أبو السعود»

الذين يثيرون الفتنة

ويهاجمون العسكر

ليحضره إلى وطاق جند الخنكار

وله الجزاء العظيم

له الجزاء العظيم

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

# السرادق السادس

كوم الجارح

سَعيد الجهيني:

للقبر ضمة لا ينجو منها إنسان، يضغط ضلوع المؤمن والكافر، يمحو الأول والآخر، يفرق المثنى، ويشتت الجمع، ويساوي الظاهر بالباطن، تعرف كل نفس ما أتت، وتتحدث الأعضاء عما ارتكبت، أي ذنب جنت؟ ويعرف سعيد طريقه إلى الوعر إلى كوم الجارح، ينقبض قلبه، مستقر النبال والرماح، لم يخطئه هدف في ساحة المعارك والطعان ومنذ رجوعه يود لو رأى مولاه، لحظة لا قبلها ولا بعدها، يسمع لهجته يعرف أي الأفكار تدور في عقل مولاه حوله هو، شخصه هو، أتى الزمان الذي لا يعرف فيه الابن أباه، يسأل الأخ عن أخيه فينكره حتى لو جاوره وقوفًا، أتى اليوم الذي ترمي فيه كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، في الهواء خمدة، أهي القارعة، وما أدراك ما القارعة؟ في الهواء زمتة، أهو الدخان الذي يظهر قبل الساعة؟ الجند الغرباء يفتضون الأبكار على باب جامع المؤيد، عند القبة التي انحنى فوقها مرات ومرات، خلع حذاءه، ودخل المسجد العتيد يملؤه خشوع.

ما الذي بقي إذن؟ ربما ظهر المسيح الدجال، ينزل من المقطم يطلع من حواري الحسينية، يخرج على الناس فجأة من الخليج، من النيل قبل ميعاد الوفاء، من جزيرة الروضة، من الهرم الأكبر، يركب دابته التي تجس أخبار الدنيا له، يطول الليل، يصحو القوم فلا يلقون إلا ظلامًا مستمرًّا عتيمًا، أول خيوط الضوء تدير العقول، ها هي الشمس تطلع من الغرب، ليس قرصًا من ذهب، إنما فطيرة رخوة سوداء، ما الذى بقي إذن؟ اظهر أيها السفياني، لينفخ في الصور، النفخة الأولى، والثانية، والثالثة، تقبض الأرواح، ويجيء الخراب، أربعون ألف سنة، الوخز في الصدر أي مرض خلفته الأيام، لكن أي أمر يخشاه، والروح ساحة خرائب، لا تأمن ساكنيها، ما الذي بقي إذن؟

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

تعرف يا سعيد أنك تتمنى رؤية مولاك، هذا من حقك طبعًا.. يا سلام يا أخي من علمني حرفًا صرت له عبدًا، أنت نطقت باسمه مرات أثناء نومك، يا شعلان.. أي اسم ردده سعيد في نومه عندما آويناه زمنًا؟

«الشيخ «أبو السعود».. لم يذكر غيره..».

«أرأيت.. اذهب إليه، لا تخف، بالعكس نحن نريدك أن تعاود سيرتك معه كالزمن الأول تمامًا، نريدك أن تصبح محل ثقته».

لا تنفره منك، اذهب إليه، ارتمِ على قدميه، ابكِ.. ابكِ فعلًا.

سيسألك، أين غبت عنه بعد عودتك، قل له منعوني، لكني ضربت الآن بمنعهم عرض الحائط وجئتك، ألعن أجدادنا، أستمطر الخراب علينا، قل ما تريد يا سعيد.. ما تشاء، لا بد أن تحيي ثقته بك.

أنت ابنه الذى لم ينجب وأنجبه.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

دار حول باب الوزير، مشهد السيدة فاطمة النبوية، قدماه تقطعان الطريق، هذه البيوت لم يرها من زمن، وهج الآمال، رغبة الطواف الجريء، الاندفاع، الحب، ملامسة يد حنون، طعام هني بعد غروب شتوي عتيق، أبدًا، لم يطف به شيء من هذا، أخيلة قديمة مخوزقة، ذكريات بالية كحصيرة عتيقة داستها آلاف الأحذية، إلى الممرات الطويلة ذهب، حفر صغيرة بالجدران، رأى آدميين.

«أتعرف هذا؟ كان أميرًا كبيرًا عظيمًا جليل الشأن، له في الحبوس أربعة وثلاثون عامًا، يبول مكانه، يأكل مكانه، نسي اسمه، فعلًا نسي اسمه، نسي الألفاظ والحروف وحركات الصوت وسكناته» حفرة أخرى ضمت سجينًا صبيًّا، لا يعرف الضوء، ولا طعمه، في عينيه بريق أزرق كعيون القطط في السواد العقيم، عمره عشرون، كلها قضاها هنا، ربما بدا خروجه إلى الدنيا كذهابك أنت إلى السجن، بين حجارة الصخر تذوي الأعمار، تفنى، تغرب، بين حجارة الصخر، أو في الحجرات الضيقة النظيفة المخيفة، يتمدد صاحبه منصور الآن، فما الذي بقي إذن؟

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

«ما نطلبه منك. ما نريده. الاستفادة من عظاته وحكمه. أن نعرف ثمين القول الذي يردده. آراءه في الناس. ما ينويه. بالنسبة لطومانباي. منذ دخول الخنكار نعرف أن بقاءه في البيت. لكن هناك مريدين يمضون إليه. من هم. إلى أين يذهبون هناك من يزعم بنية الشيخ على الخروج في أثر طومانباي. لكن هل تصدق هذا أنت، هل يدخل عقلك أن الشيخ «أبو السعود»، الشيخ الطيب الصالح، الورع التقي. يمكنه حمل سيف وذبح رقبة. أنت أدرى الناس به. إذا كانت هذه نيته فعلًا. فهذا تغير لا بد أن نعلمه. لا لشيء. لنستفيد منه ونفيد. كيف يتحمل العمر الكبير الحرب والهجوم. والكر والفر. طبعًا.. لا تخبره عما نريد. أنت بهذا تنقل تعاليمه وحكمه إلى الخلق كلهم عن طريقنا. بقيت مسألة ثانية.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

البيت هادئ مستكين. أحلى العمر قضاه هنا. هنا رتل عمره ترتيلًا. غناه عذبًا. يخطو عتبة البيت. بأي عينين يواجهه. بأي المعاني المتبقية في حدقتي العينين.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

نعرف أنك قادر على هذا. وإلا فلماذا لجأنا إليك. نحن نطلب معونتك يا سعيد. أنت منا.. أنت بتاعنا.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

أنت منا أنت بتاعنا..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

«أما المسألة الثانية، تعال.. اقترب.. يا شعلان اخرج.. اخرج لحظات لأن ما سأقوله سر عظيم لن يسمعه إلا سعيد وحده».

«طبعًا أنت ولا أي مسلم مؤمن يرضى عما فعله ابن عثمان بنا، من هنا عزم الزيني بركات، وبالمناسبة، فهو يهديك السلام، ويعتذر لك، بوده لو رآك، لكن عيون العثمانلية تندس حول بيته - عزم الزيني وتوكل على الله، أن ينشئ جماعة تعمل في السر لا في العلن، جماعة من الشباب الشديد المجاهد أمثالك، تقلق راحة الخنكار، تهدم أركان الخيانة، ما نطلبه منك يسير، أن تقدم إلينا أسماء الشباب القادر، الذى لا يتردد بالتضحية بذاته، بنفسه، قدم لنا الأسماء، ونحن سنعرف طريقنا إليهم، سنعرف كيف نقنعهم ونضمهم إلى صفوف الجهاد، أتفهمني».

يا سعيد.. أتفهمني؟

طيب كرر علي.. ما الذى أطلبه؟

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

أهكذا عاد يتطلع حوله، هنا جثا أمام مولاه، هذه الأرض ابتلت بماء غسل فيه التمر، هنا لفظ باسمها، لا حس في البيت، السرداب مهدوم، أين راح مولاه؟ ما الذى بقي إذن؟ آه لو يراه لمحة، سيقول كل شيء، يبوح الخفي، ينثر العطن، يفتح جرحه ليشفى، لو يراه لمحه، بعدها تفنى الدنيا، يعرف أن لفظه ود، ونظرة صفاء ستقابله، يسمع المولى كوابيسه، يبني ما تقوض، لم يخطر بباله أبدًا أنه سيأتي إلى هنا يومًا ولا يلقاه، ما الذي بقي إذن لو رآه لباح بالقديم والجديد، آه، لا فرصة للرجوع، بعيني عقله يرى مولاه، أما زال مولاه؟ يراه ساعيًا في الأرياف، يستنفر الخلق، من يدله، من يهديه إليه، ذهب مولاه، ما الذي بقي إذن؟

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

# السرادق السابع

سَعيد الجهيني:

آه، أعطبوني وهدَّموا حصُوني

خارج السرادق

مقتطف أخير من مذكِّرات الرحالة البندقي فياسكونتي جانتي 913هـ.

في ترحالي الطويل، لم أر مدينة مكسورة كما أرى الآن، بعد انقطاعي غامرت ونزلت إلى الطرقات، في الهواء حوم الموت باردًا لا يرد، رجال ابن عثمان، يدورون في الطرقات، يكبسون البيوت، لا قيمة للجدران، الأبواب ملغاة في هذا الزمن، الأمان مفقود، ولا فائدة من أي توسل أو رجاء، لا يثق الإنسان أبدًا من طلوع النهار عليه، في حارة ضيقة رأيت امرأة مذبوحة، مقلوعة النهدين، تلفت حولي، البلاط المضلع والتراب، في بيت ناء عاط طفل لم أدر ابن من هو؟ عند سبيل مياه قرب باب زويلة رأيت بشرًا انتزعت حياتهم بطريقة شيطانية. إدخال سيخ محمي في الضلوع، ينفذ حيث يخرج من الجهة المقابلة، لسان أحدهم مدلى، سؤال أبله معلق، لماذا جرى ما جرى؟

العيون برقوق عطن، لم يهدأ المنادون طوال الليل والنهار، اللهاث يشتد وراء طومانباي سلطان البلاد المختفي، خاصة بعد ظهوره المفاجئ في جامع شيخون، والتفاف الخلق حوله، ثم هجومه على ابن عثمان في بولاق، سمعت أنه بمجرد ظهوره في أي مكان يلتف حوله القوم وكأنهم يعرفون ميعاده، سمعت أن جماعات كبيرة من الدراويش (رجال دين) انضموا إليه، راحوا يغيرون على جنود العثمانلية، الذين يتطرفون في مشيهم إلى حارات نائية، أو طرقات بعيدة، يقتلون منهم ما استطاعوا، أثار هذا الفزع بين الغزاة، طولبوا بالتزام الحذر والمشي جماعات، صباح اليوم طلعت فوق السطح رأيت الأسى شققًا كثيرًا فوق المدينة، كأن البيوت نفسها أسالت دمعًا، رأيت وجه صديقي الشيخ محمد أحمد بن إياس قبل دخول العثمانلية بيوم واحد، في تقاطيعه رقدت نبوءة بالهزيمة المقبلة، كان منكسرًا، لم أره من ليلتها، سمعت ممن أثق به أن طومانباي ظهر في الصعيد، وأنه جمع آلاف العربان المسلحين حوله، وقيل إن وليًّا من أولياء الله (قديس) كان يقيم في القاهرة، هجر بيته وانطلق إلى الريف يقيد فيه نارًا حامية يستنفر الشعب، وأخبرني محدثي أن عمر هذا القديس يقدر بمائة عام، بل أزيد، وأنه أوتي شجاعة عظيمة، وقال محدثي إنه شرب من نبع الحياة، ومن شرب من نبع الحياة لا يموت أبدًا ولا يهزم أبدًا وفعَلا انطلق في أثره مئات من الشبان الصغار، والرجال والنساء ومعظمهم لم يشاهده مرة واحدة أثناء إقامته في القاهرة، وأخبرنى محدثي أن هذا الولي (القديس) يطوي معه بيرقًا رهيبًا، يقال له البيرق النبوي، ومتى نشره تهب أمة مصر من أدناها إلى أقصاها، فتضع السيف في رقاب الغزاة، ولا ترتد حتى تفنيهم؟ أبديت الشك لمحدثي وسألته: لماذا لم ينشر هذا البيرق الآن؟ قال واثقًا: إن

هذا لا يتم إلا بأمر من عنده، وأشار إلى السماء، بكى محدثي وهو شيخ من مشايخ الأزهر، قال: جاء في الكتب القديمة: «مصر كنانة الله من أرادها بسوء قصمه الله» اليوم فقط نودي في الناس بالأمان قلت لأنزل أستقصي الأخبار أدركت مخاطرتي فالغزاة لا أمان لهم، يعلنون الأمان وينقضونه. وجدت بيت صاحبي الشيخ ريحان مهدمًا محروقًا، لم يدلنى أحد إليه، سمعت ظهور الرجل الذى تحدثت عنه كثيرًا في رحلتي الثانية، الزيني بركات، قال بعض المشايخ إنه يحاول لم الشبان لمجاهدة ابن عثمان لكن أحدهم أبدى شكًّا في مقصد الزيني، خاصة بعد طلوعه إلى القلعة مرات عديدة وجلوسه مع خاير بك أوقاتًا طويلة، وعلمت أن خاير بك (سبق أن تحدثت عنه) أبدى رضاءه على الزيني، فعندما دخل الغزاة مصر، كان الزيني في بيته مغضوبًا عليه من طومانباي السلطان السابق، وكان مجردًا من كل وظائفه ينوب عنه في أهمها أحد نوابه السابقين شخص اسمه عبد العظيم الصيرفي، لم ينقض اليوم إلا وتحقق ما سمعت من أخبار قبيل العصر سمعت المنادي يدق طبلًا، وقفت منتظرًا، رأيت ثلاثه جياد سوداء يمتطي كلا منها فارس يحمل في يده ميزانًا وصنجًا وعلمًا رسم عليه شعار المحتسب، سيفًا مسلولًا، وخلفهم جواد أبيض ركبه «الزيني بركات بن موسى» ووراءه ركب شخص بدين لم أعرفه، الطريق خال، الخراب الخفي ساع في الفراغ، الدكاكين كلها مغلقة، حول الموكب الصغير فاحت رائحة نتن، تطلع مارة قلائل، أصغوا إلى دقات الطبل هزوا رءوسهم، لم يتوقفوا، حاذاني الركب ورأيت الزيني يضع لثامًا حول وجهه، لا أذكر ملامحه فلم ألتق به إلا مرة واحدة، لا بد أن أسعى إليه، صاح المنادى، يأمر خاير بك بتعيين الزيني بركات بن موسى محتسبًا للقاهرة، وكل من له شكوى أو مظلمة عليه بالتوجه إليه، ثم يتوقف المنادى لحظة ويتلو أمرًا من الزيني نفسه، أصغيت، ينادي موضحًا العملة العثمانية الجديدة حلت محل العملة المملوكية القديمة، تابعت الركب الصغير المتجه ناحية باب الفتوح، عند المنحنى اختفى، وابتعد النداء الخافت في هواء شاحب.

**جمال الغيطاني**

**الجمالية 1970 - 1971**

# (تمت بحمد الله تعالي)

تقدم الرواية التى بين أيدينا نماذج قمعية مخيفة.. معالجة من خلالها ظاهرة القمع والخوف.. كاشفة عن أسبابهما وعارضة لمظاهرهما المرعبة في الحياة العربية. فالكاتب حين يحاصره الواقع الراهن بقمعه وقهره واستبداده، حين يمارس فى السجن أقسى أشكال العنف والقهر ويحيط به الرعب يعود بنا مستنطقاً تاريخ ابن إياس فى بدائع الزهور ليجد صورة مرعبة لكبير البصاصين الشهاب الأعظم ووالي الحسبة الزيني بركات. ويكفي أن نقرأ عن تعذيب التاجر علي أبي الجود وتدرج الزيني في التفنن بتعذيبه ليحصل منه على المال. والأدهى أن وسيلة إرغامه على الإقرار كانت بتعذيب الفلاحين أمامه بهدف إخافته وترويعه على مدى سبعة أيام، ومنها صورة تعذيب فلاح أمام عينيه:" أظهروا حدوتين محميتين لونهما أحمر لشدة حرارتهما، وبدأ يدقهما في كعب الفلاح المذعور. حتى نفذ صراخ الفلاح إلى ضلوع علي، الذى حاول إغلاق عينه فصفعه عثمان بقطعة جلد على قفاه." وفي اليومين التاليين تم " ذبح ثلاثة من الفلاحين، والزيني يدخل ويخرج محموماً مغتاظاً يسأل" ألم يقر بعد؟ "فلا يجيبه أحد. يضرب الحجر بيديه." يسقط هذه الصورة على الواقع بل يسقط الحاضر والواقع عليها فيبني منها ما هو أقل إيلاماً من حاضرنا المؤلم المخيف.

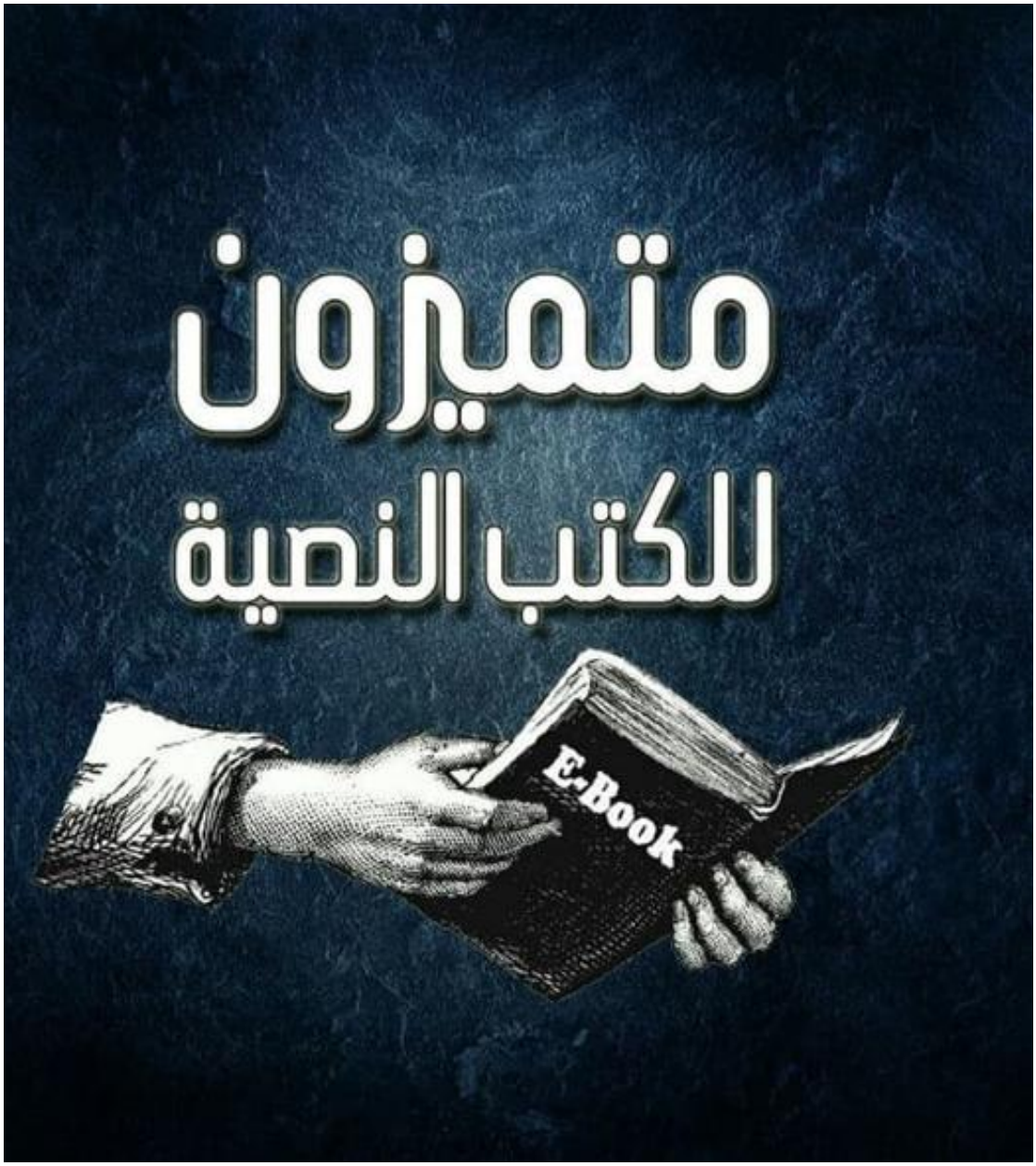


**Group Link – لينك الانضمام الى الجروب**

## **Link – لينك القنـــاة**

**فهرس المحتويات:**

---


تقديم

السرادق الأول

السرادق الثاني

السرادق الثالث

السرادق الرابع

السرادق الخامس

السرادق السادس

السرادق السابع

فهرس المحتويات:

# الملاحظات

[←1]

(1) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، القاهرة، 1984 (تحقيق محمد مصطفى). الجزء الرابع ص: 50.

[←2]

(2) المرجع السابق: الجزء الخامس ص: 79، 80.

[←3]

(3) مجلة الطريق: العددان الثالث والرابع، 1981. ص: 122.

[←4]

(4) ابن إياس، كتاب إشراف د. أحمد عزت عبد الكريم، الهيئة المصرية للكتاب 1977، ص: 140-142.

[←5]

(5)(*) السرادق: المكان الذي تعقد فيه الحفلات وتقام الأفراح.